تاريخ السودان الحديث



ضرار صالح ضرار

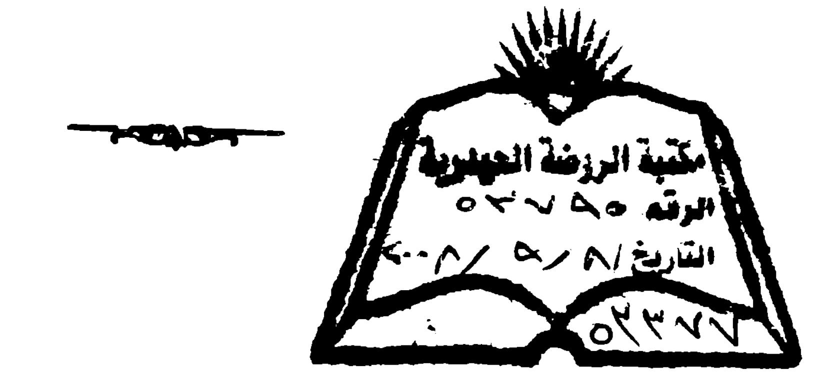
الطبعة الثالثة

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

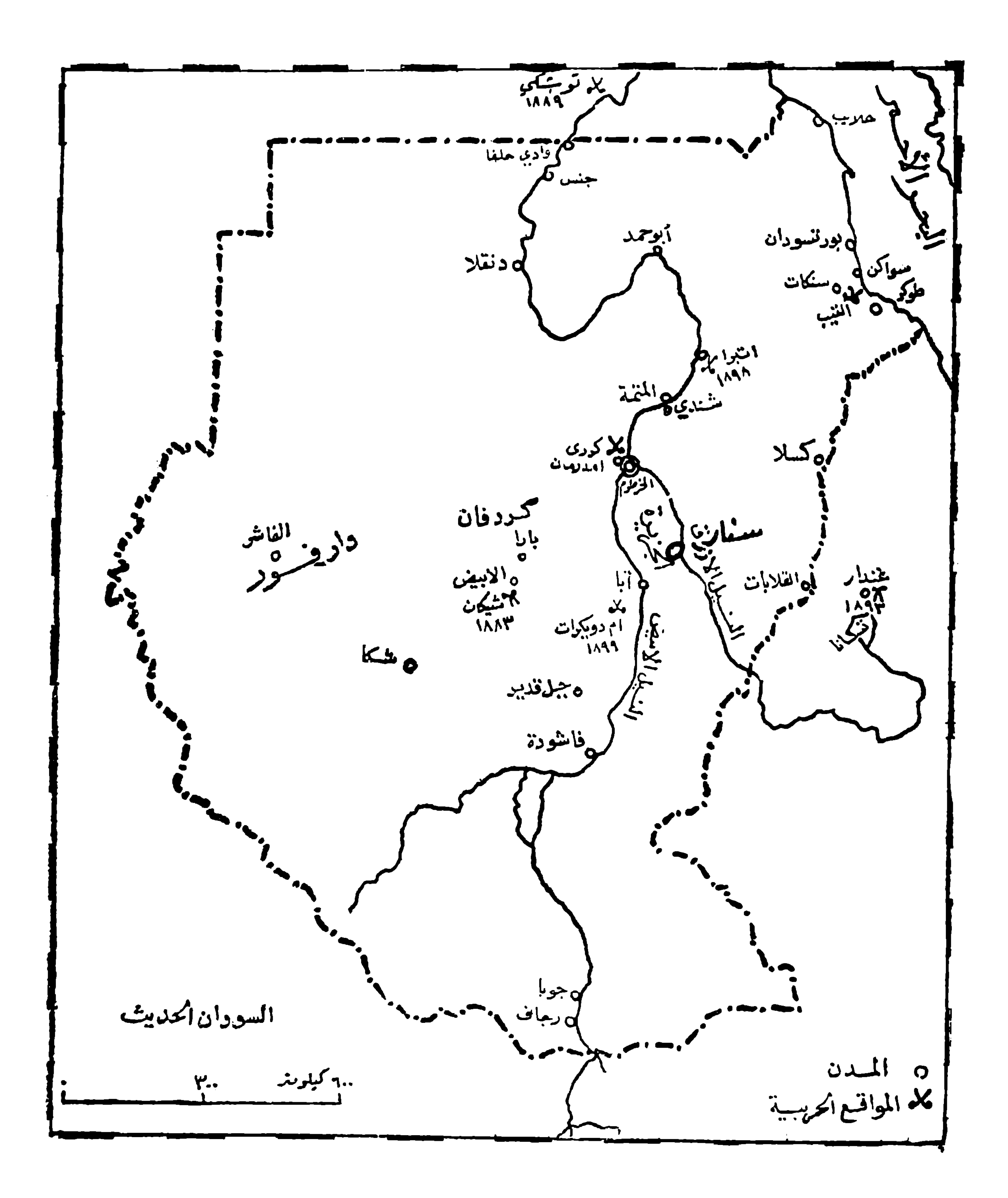
ضرار صالح ضرار

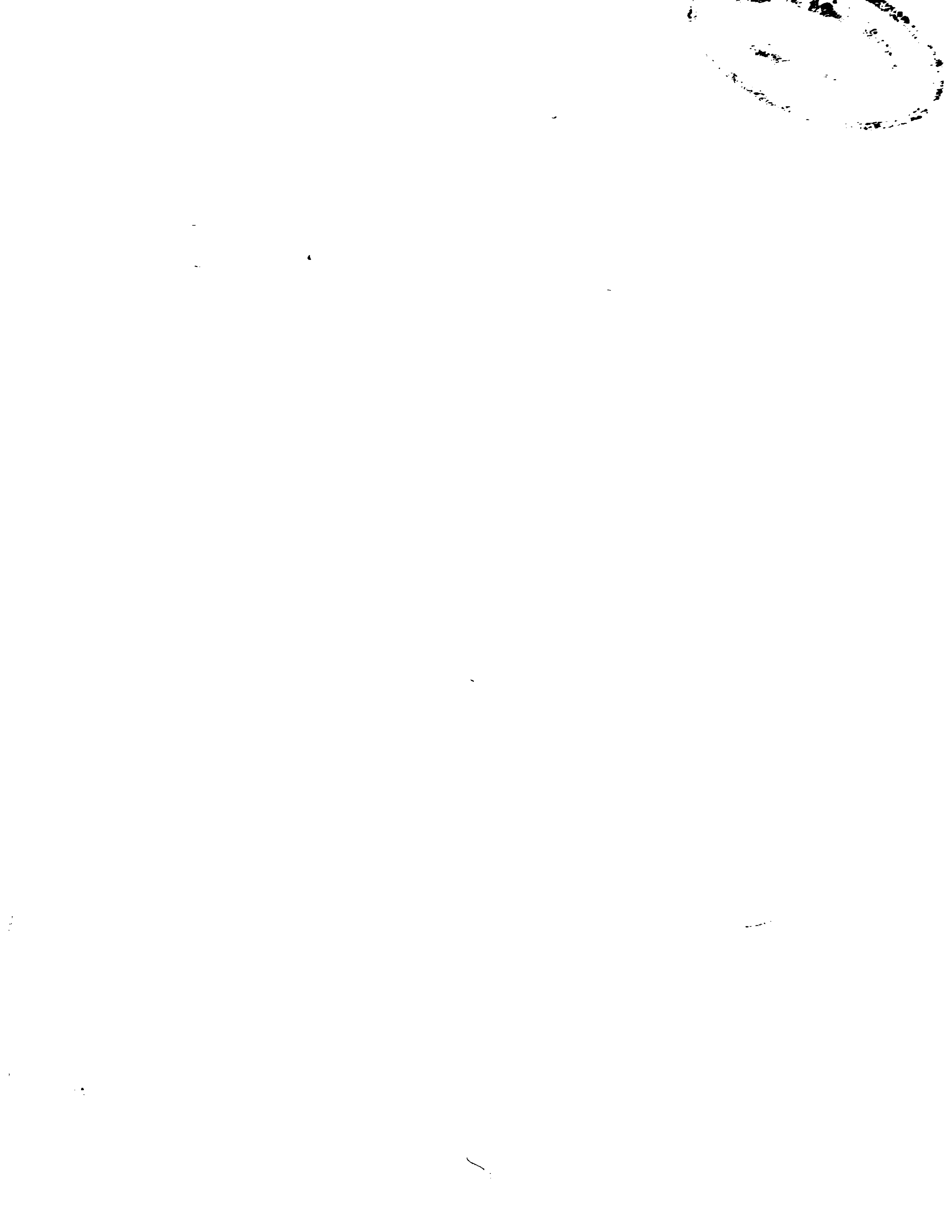
تاريخ السودان الحديث

الطبعة الرابعة



منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت


توشكي
١٨٨٩
حلايب
وادي حلفا
جنس
البحر الأحمر
أبو حمد
دنقلا
بورتسودان
سواكن
سنكات
طوكر
التيب
اتبرا
١٨٩٨
المتمة
شندي
كرري
امدرمان
الخرطوم
كسلا
كردفان
بارا
دارفور
الفاشر
سنار
الابيض
شيكان
١٨٨٣
أبا
ام دويكرات
١٨٩٩
القلابات
شكا
جبل قدير
فاشودة
جوبا
رجاف
السودان الحديث
٦٠٠ كيلومتر
٣٠٠
المدن
المواقع الحربية



الإهداء

الى والدي

مع إجلالي وتقديري

ضرار

مقدمة

قليل أولئك السودانيون الذين أرّخوا لوطنهم السودان ، وظهرت مؤلفاتهم لتحتل مكانها في المكتبة العربية . وان كثيراً مما ألف السودانيون ما يزال مخطوطاً لا يجد طريقه للنشر ، وبذلك ضاعت على القارىء العربي فرصة كبيرة لمعرفة تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي .

ولقد اهتم بتاريخ السودان عدد من الكتّاب العرب منذ عهد التدوين الأول في العالم العربي ، كما اهتم بـه مَن بَعدهم حتى أولئك الذين ألفوا فيه في القرن العشرين .

أما هذه الكلمات التي حواها هذا السّفر فهي دراسة من سوداني لتاريخ بلاده في الحقبة الأخيرة التي برز فيها السودان كجزء من أجزاء الصراع العالمي حيث انتهت فترة ما يشبه العصور الوسطى من تاريخه ليدخل السودان في عصره الحديث . وابتدأت تلك الحقبة باستيلاء محمد علي باشا – والي مصر – على السودان ، وضمه الى ممتلكاته مما جعل البلاد بعد ذلك موضع صراع للأطماع الأوروبية .

وتنتهي فترة التأريخ في هذا الكتاب باستقلال السودان الذي حدث في أول

يناير عام١٩٥٦ . وتوقف البحث الى هذا الحد ايماناً بأن التاريخ يبدأ قبل حوالي العشر سنوات من الحاضر ، واما تلك السنوات العشر الأخيرة فانهـا تعتبر من الاحداث الجارية التي لم تتبلور بعد لتصبح تاريخاً .

تلك اذن هي الفترة التي شملها هذا السفر وأرّخ لها رغبة من كاتبها في ابراز تاريخ السودان الحديث .

أغسطس ١٩٦٤

ضرار صالح ضرار

مدخل إلى تاريخ السودان الحديث

يستطيع المؤرخون ان يتحدثوا عن تاريخ جمهورية السودان في حقبة مقدارها خمسون قرناً وهم يشعرون بشيء من الطمأنينة في صحة ما يذهبون اليه من سرد للحوادث ، وتعريف بالأحوال الاجتماعية والسياسية . وقد عرف تاريخ السودان ، وتطور حضارته اكثر ما عرف من النقوش المصرية التي وجدت إما في مصر أو في بعض جهات السودان . أما قبل هذا التاريخ أي قبل خمسة آلاف سنة فانه لم تعرف للسودان حضارة كحضارة قدماء المصريين من حيث بناء المدن ، واستقرار الحياة ، وتنظيم الزراعة ، كما كان من المؤكد أن السودانيين في تلك الحقبة لم يخترعوا الكتابة .

بيد ان التجارة كانت رائجة بين السودان ومصر . وقد وجد كثير من العاج في مصر بالاضافة الى هياكل عظمية في المقابر المصرية تعود الى الاصل الحامي والزنجي . ووجدت بعض المعدات النحاسية كالإزميل في فرص ، وكذلك أوان حجرية وفخارية ، وحبات للسبح والخرز مما يدل على انها استجلبت من مصر بعد المبادلة بريش النعام والعاج . ومع ان التجارة ازدهرت بين البلدين الا انها لم تدخل في السودان أبعد من بلاد النوبة في شماله .

وفي عهود ملوك ممفيس بدأ السودان يحتل أهمية خاصة بالنسبة لقدماء المصريين حتى ان الملك سنفرو هاجم السودانيين في سنة ٢٧٥٠ ق.م. وشن

عليهم حرباً شديدة ثم هزمهم بالرغم من استماتتهم في القتال بالقسي والنبال ، وبلغ عدد أسراه ٧٠٠٠ من النساء والرجال ، كما استولى على مائتي الف رأس من البقر والضأن .

ومنذ ذلك التاريخ اصبح تاريخ السودان السياسي مرتبطاً أوثق ارتباط بالتاريخ المصري ، وكثيراً ما كان المصريون يحتلون أجزاء منه ويعينون عليها حكاماً من أشهرهم الحاكم يونا الذي حكم في حوالي سنة ٢٤٢٣ ق.م. ، وامتاز بفتوحاته في السودان ، وعدله وحسن إدارته حتى أضحى من أكثر المقربين الى ملك مصر ، وقد جعل « يونا » التجارة ميسورة التداول بين الجانبين حتى كثر تصدير العاج والريش والعطور واللبان والاخشاب لبناء السفن .

وفي هذه الحقبة نشطت الرحلات المصرية في السودان ، وقام الرحالة حارخوف بأربع رحلات طويلات المدى في السودان وصل فيها الى أعالي النيل في جنوب السودان ، كما وصل الى أقاصي غرب السودان ، وكان من بين ما فعل ان حمل ٣٠٠ حمار بمختلف محصولات تلك البلاد النائية . وبرحلاته هذه فتح سبلاً جديدة للتجارة بين القطرين .

وما لبث السودان ان اصبح ذا أهمية خاصة لمصر ، اذ أضحى بعد ذلك مصدراً هاماً للذهب الذي يستورده ملوك مصر ، وبالاضافة الى ذلك كان يصدر الرقيق ليكونوا خدماً في المنازل ، وزراعاً في الحقول ، وجنوداً للحروب .

ومن الجدير بالذكر ان العلاقات بين القطرين المصري والسوداني زادت في قوتها ، وكثر التزاوج بين سكانها وقد أظهرت المخطوطات التاريخية ان عائلة الامير امنحات كانت مزيجاً من المصاهرة المصرية السودانية ، كما أن وزير امنحوتب الثالث كانت تجري في عروقه الدماء النوبية السودانية ، أما في الطبقات الأخرى فان من المحتمل ان يكون هذا التزاوج قد وصل حداً أبعد من ذلك .

وفي غضون تلك الحقبة بين سنة ٣٠٠٠ قبـــل الميلاد و ٩٠٠ ق. م توثقت النواحي الاجتماعية بين البلدين فالآلهة السودانية كان معترفاً بها في مصر كاعتراف السودانيين بالآلهة المصرية ، وفي النواحي الادارية كان نظام الادارة المصري هو السائد من حيث تقسيم السودان الى مناطق لها حكامها وحامياتها ، وكان هناك الموظفون ومعظمهم من المصريين وقليل منهم من السودانيين، كما تركت القبائل السودانية تحت زعامة ملوك العشائر ، ولكن كانت محاولاتهم للانفصـــال عن مصر تقاوم بشدة .

ولجأ المصريون الى حمل ابناء الزعماء السودانيين الى مصر كرهائن ، وهناك كانوا يجدون تعليماً مصرياً ، ومكانـــة عالية في الدولة ، وينشأون نشأة الامراء المصريين .

وفي القرن العاشر قبل الميلاد بدأت مصر في الاضمحلال وانتهز السودانيون هذه الفرصة واستقلوا عنها، وأصبحوا ملوك النوبة وازدادت سلطتهم تدريجياً، وتولوا رعاية الإله المصري آمون ثم مـــا لبثوا أن اعتبروا انفسهم مسؤولين عن البلاد الواقعة بين البحر الابيض المتوسط وأواسط السودان .

وكان من اهم الملوك السودانيين في عهد استقلاله الملك بيانخي الذي حكم السودان حوالي سنة ٧٥١ ق. م ، وكان كثير التأثر بالحضارة المصرية محباً لهـا ومقدراً لمكانتها ، كما انه كان يدين بديانة آمون ، وعرف بتدينه الشديد، واتخذ كثيراً من الالقاب المصرية لنفسه ، وسعى سعياً حثيثاً لضم مصر الى السودان ، فجرد حملة قوية في حوالي سنة ٧٣٠ ق.م على اثر الانباء التي وردت اليه وتقول بأن البلاد المصرية التي على الدلتا سقطت فريسة للفوضى ، وأن احد ملوك الدلتا وهو تافنخت جهز جيشاً لطرد السودانيين من طيبة ، فأرسل اليه بيانخي جيشاً سودانياً قوياً لايقاف رحف تافنخت بعد أن نصح جنوده بالتزام حدود الدين ، لكن تافنخت تحصن في احدي المـدن فأقسم بيانخي ان يخرج اليه من « نبتة »

العاصمة السودانية ، حتى وصل هيرموبليس وحاصرها بجيوشه ثلاثة أيام فسلمت له ، وتعقب الملك المصري حتى ضيق عليه الخناق فاستسلم ، وعفا عنه بيانخي وبذلك دانت كل الأراضي الواقعة بين نبتة والبحر الأبيض المتوسط الى الملك السوداني بيانخي .

ولم تلبث العلاقات ان ساءت بين السودانيين والأشوريين الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على مصر بقيادة ازارهادون ، وتغلب القائد الأشوري على الملك السوداني طهراقا أول الامر ، واكتسحت الجيوش الأشورية الجنود السودانيين ، فأحضر الملك السوداني طهراقا جنوداً من السودان والتقى بالاشوريين وهزمهم ، وطردهم من مصر . ولكن تدفق الجيوش الاشورية على الحدود المصرية لم ينقطع ، وتقدم هذه المرة الملك الاشوري أشور بانيبال بجيوش احسن نظاماً ، وأشد فتكاً ، وبعد معارك حامية انسحب السودانيون من مصر وتقلص نفوذهم الذي تركز في الأراضي السودانية بعد ذلك .

وقد استمر الحكم السوداني على مصر حقبة تبلغ الثمانين عاماً كانت أمناً وسلماً ورخاء على كل من البلدين مصر والسودان ، ودفن الملوك السودانيون على الطريقة المصرية القديمة تحت ظل أهرامات صغيرة مجاراة لملوك مصر الأقدمين .
وهكذا تقلص الحكم السوداني واصبح لا يتعدى الشلال الأول ، وقبع السودان بعيداً عن مجرى الحوادث العالمية حتى ان قمبيز الفارسي لم يستطع ان يصل الى السودان .

وفي هذه الحقبة تضاءل النفوذ المصري من حيث الحضارة والصناعة واللغة ، واصبحت اللغة الهيروغليفية تستعمل للكتابة في بلاط الملك ولكن بأخطاء عديدة تدل على تدهور تعلمها ، وكانت العاصمة في نبتة ، ثم ما لبثت ان انتقلت الى مروى نسبة الى قربها من السهول السودانية ، والحاصلات الزراعية ، والثروة الحيوانية ، وكانت ملتقى تجارياً هاماً بين شرقي السودان وبقية اجزائه .

وازدهرت مروى في القرن الثالث قبل الميلاد ، وأضحت مشهورة عند اليونان الذين اعتبروها مصدر ازدهار الحضارة المصرية ، واتسعت المدينة وكثرت مبانيها .

وعرف أهلها فيما عرفوا الكتابة للغتهم الاصلية ، ولكن لم يستطع الباحثون فك طلاسمها بعد .

ويبدو ان العلاقات التجارية بين مروى واليونان كانت قوية جداً وذلك عن طريق البحر الاحمر وميناءه العقيق ، وكانت جمال قبائل البجة تقوم مقام القطارات اليوم تحمل البضائع والركاب في قوافل ضخمة ، ودخل كثير من أبناء اليونان السودان ، واشتغلوا في الصناعات المختلفة فكانوا يبنون المباني والحمامات على الطراز الاغريقي كما كانت الاواني متأثرة ابعد التأثير باليونانيين .

ولما سيطر الرومان على العالم حاولوا التغلغل في السودان ولكن السودانيين ردوهم على اعقابهم ، وحافظوا على استقلالهم السياسي .

وما لبثت النصرانية ان رسخت في مصر واوروبا وخاصة في القسطنطينية ، وبدأت ترسل مبشريها الى السودان ، وكان من بين الذين أرسلوا البعثات التبشيرية الى السودان الامبراطور جستينيان وزوجته ثيودورا ، ونجح المبشرون المسيحيون في تنصير ملوك النوبة السودانيين ، وسرعان ما اعتنق الاهالي الدين المسيحي في أواسط القرن السادس الميلادي .

وفي حوالي القرن العاشر كان السودان منقسماً الى ثلاث ممالك هي : مملكة المقرة في الشمال وعاصمتها دُنْقُلا ، ومملكة علوة على النيل الازرق وعاصمتها سوبا ، ومملكة البجة في شرقي السودان ومقر ملكها في هجر .

ولكن هذه الفترة كانت ذات أهمية تاريخية ايضاً اذ ان وفود القبائل العربية من ربيعة وجهينة أخذت تتقاطر على سهول السودان الفسيحة ، واشتد تقاطرهم

حقبة بعد حقبة أفراداً وجماعات ، وبدأ بذلك التعريب في انحاء السودان يسير عن طريق التزاوج . اما الحرب بين السودانيين والعرب في مصر فانها لم تكن تثار في كثير من الاحيان ، وكان النصر في أغلبها للمسلمين إلا أنه لم يكن نصراً حاسماً ، ولو ان المسلمين استطاعوا انيفرضوا الجزية والبَقَط[1] علىالسودانيين، ولكن هؤلاء لم يقبلوا الرضوخ الى المسلمين الا لكي يستعدوا لهم مرة اخرى .

في عهد الظاهر بيبرس تم القضاء على مملكة المقرة المسيحية في سنة ١٢٧٦ م وذلك بهزيمة الملك السوداني المسيحي داود الذي اتخذ دنقلة العجوز عاصمة له . وكانت الحملة المرسلة قوية الاثر حتى استطاعت بعد انتصارها ان قلبتالكنائس الى جوامع بعد ان خربت الكثير منها. وبزوال هذه المملكة المسيحية منالشمال تدفق العرب جنوباً حتى جاوروا مملكة علوة التي كانت عاصمتها سوبة .

وأضحت مملكة علوة السودانية مفتوحة الابواب للعرب والمسلمين ، وكانت ديانتها المسيحية قد أخذت الشيخوخة تدب فيها ، وذلك لقطع الصلات بينها وبين العالم المسيحي ، ولم يلبث ان أخذ العرب يطبقون عليها من كل جانب ، واتحد العرب النازحون من الجزيرة العربية بالفونج الذين كان يرأسهم عمارة ، وكان على رأس القبائل العربية عبدالله جماع ، وتحالف هؤلاء بعضهم ببعض ، وهاجموا دولة علوة ، وحاصروا سوبة ثم تم لهم النصر حتى خربوها خراباً أصبح مشهوراً في السودان فصار المثل يجري بخراب سوبا .

---

(١) البقط : يقول هولت انها من كلمة Pactum اللاتينية وهي بمعنى اتفاقية أي Pact بالانجليزية . اما المقريزي فيقول : البقط ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل الى مصر ضريبة عليهم . ويتشكك المقريزي في أصلها هل هي عربية أم لا . ويقول : فان كانت عربية فهي اما من قولهم في الارض بقط من بقل وعشب أي نبذ من مرعى فيكون على هذا نبذة من المال ، أو يكون من قولهم ان في بني تميم بقطاً من ربيعة أي فرقة أو قطعة . وكاتب هذه السطور يعتقد انها معربة من اللاتينية لأن مثل هذه الاتفاقية كانت موجودة قبل الاسلام بين النوبة والرومان وبين البجة والرومان أيضاً كما أن استنباط المقريزي بعيد عن الموضوع .

بانتصار الفونج وحلفائهم العرب بدأت في السودان سلطنة اسلامية عربية اتخذت من سنار قصبة لملكها ، كما اصبح سلطانها الاول عمارة دونقس . اما عبد الله جماع فقد اصبح وزيره ، ويليه في الاهمية . وتم الاتفاق بين الاثنين على ان يكون السلاطين من الفونج، والوزراء من العرب وذلك في سنة ١٥٠٤ ميلادية .

ادخل العرب الى السودان اشياء كثيرة اهمها الحياة القبلية التي عرفوها في الجزيرة ، كما جعلوا لغتهم تسود البلاد مختلطة بالسودانيين حتى كونت اللهجة السودانية الحديثة ، وأدخل العرب ايضاً الدين الاسلامي الذي انتشر في شمال السودان وشرقه وغربه ووسطه ، ولم يترك الا بقاعاً مختلفة في الجنوب .

واتسعت رقعة سلطنة الفونج وأضحت حدودها تمتد من حدود الحبشة حالياً شرقاً الى بلاد الشايقية شمالاً . ولولا وجود الحكام الاتراك في شمال السودان لأصبح ذلك الاقليم خاضعاً لسلطنة الفونج . وبقيت بعض جهات السودان خارجة على تلك السلطنة وهي دارفور والنوبة الشمالية وكردفان في فترة من الفترات .

كانت سلطنة الفونج محاولة لخلق ادارة موحدة في البلاد ، ولم تكون حكومة بالمعنى الحديث ، ولكنها كانت حكومة اقطاعية ، فللسلطان الارض ، وللزعماء الحكم على قبائلهم . وكانت اهم الصعوبات التي تواجه السلاطين هي اتساع البلاد ، وصعوبة المواصلات ، وكان سلاطين الفونج لا يطلبون من زعماء القبائل غير الجزية والخضوع الاسمي لهم .

ولما أصبح دكين العادل سلطاناً عدل في نظام الحكم ، فقلل من شأن حكم الفرد المطلق ، وعين مجلساً من الاعيان مكوناً من كبار رجال العائلة المالكة ، وعظماء السلطنة ، وجعل المجلس يجتمع أربعة أيام في الاسبوع ، وله سلطات عليا بمقتضاها يستطيع عزل السلاطين .

أما الاقاليم فكانت تحت سيطرة زعماء القبائل الذين كانوا يتمتعون بسلطات واسعة على اقاليمهم ، ولكنهم كانوا يدفعون جزية وهدايا الى سلطان الفونج .

ولم تنقطع التجارة بين السودان والخارج في عهد هـذه السلطنة ، وكانت تسير عن طريقين الى الخارج ـ طريق عن سواكن ، والآخر عن مصر ، وانتعشت ميناء سواكن في هذا العهد انتعاشاً عظيماً وقد كانت تحت سيطرة الاتراك العثمانيين ، ولكنها في نفس الوقت كانت ميناء السودان الوحيدة ، وكان التبادل التجاري يسير الى ان يصل جزيرة جاوا وجنوبي الجزيرة العربية .

ولم تكن للسلطنة الزرقاء عملتها المستقلة بل كانت تستعمل الريال النمساوي. ومن أبرز الظواهر في هذه السلطنة دخول التعليم عن طريق الفقهاء الذين دخلوا من الاندلس والحجاز وغيرهما ، وهؤلاء الفقهاء هم الذين ساعدوا كثيراً على نشر الديانة الاسلامية . وكان سلاطين الفونج يجلون الفقهاء ويجعلون لهم مكانة خاصة في الدولة .

أما من النواحي السياسية الحربية فإن سلطنة الفونج دخلت مع جارتها الحبشة في حربين أججها التنافس التجاري والاختلاف على الحدود ، كما كانت هناك بعض المخاوف التي شعر بها الفونج من جراء تهديد الأحباش لهم بتغيير مجرى مياه النيل الأزرق . وكانت البعثات الفرنسية اليسوعية المسيحية تعبر الأراضي السودانية الى الحبشة حتى خشي السودانيون من استعمار اوروبي فكان أن قتلوا رجال البعثة الفرنسية وقضوا عليها في نوفمبر ١٧٠٥ م . أما النتيجة لهذا العمل فقد كانت حملة حبشية قوية ضد الفونج ، وانتصر الاحباش أول الأمر لكن ما لبث أن شلت السودانيون شملهم وهزموهم هزيمة قاضية في عام ١٧٤٤ .

غير أن ذلك الانتصار كان بداية لانهيار داخلي في سلطنة سنار التي أخذت تتضعضع رويداً رويداً .

وعندما بدأ القرن التاسع عشر كانت السلطنة الزرقاء (والتي عرفت ايضاً باسم سلطنة الفونج وسلطنة سنار) قد وصلت حداً بعيداً في الفوضى والضعف، وأصبحت اسماً على غير مسمى . وبالرغم من أن كثيراً من المناطق في السودان كانت تؤمن بحق هذه السلطنة الاسمي إلا ان الدولة لم تكن قادرة على بسط نفوذها على تلك الأقاليم . وكان زعماء القبائل قد أضحت لهم قوة مستقلة في بقاعهم ، وقلت الهدايا والجزية التي كانوا يرسلونها لملوك السلطنة الزرقاء حتى أضحت خزينتها – كما كانت في اكثر عهودها - مع بداية القرن خاوية على عروشها .

لم يحاول سلطان الفونج أن يعيد المجد لسلطنته ، بل كان مكتفياً بذلك النفوذ الاسمي ، ومع فراغ الخزينة كان جيش البلاد ضعيفاً جداً، وقل عدده إلا من عدد قليل من الرقيق كانوا هم انفسهم مصدر قلق للسلطان ، ومصدر قوة للوزير على السلطان .

أما سنار العاصمة فقد كانت مسرحاً لحوادث دامية ، اذ كثرت فيها الاغتيالات السياسية ، فالسلاطين لا يجدون السلامة على حياتهم بسبب المؤامرات التي يدبرها الوزراء . والوزراء انفسهم في حالة يرثى لها من عدم ايجاد أمن لهم . ففي كل آونة سلطان يهوي من عرشه، وفي كل حين وزير يفقد حياته . وولت تلك الأيام التي كان فيها سلاطين الفونج ذوي النفوذ الحقيقي في السلطنة وأصبح خلفاؤهم دمى شطرنج تحركها الطوائف المتناحرة على السلطان . وبالرغم من أن يد الوزراء الهمج كانت هي العليا في ادارة شؤون البلاد الا انهم اختلفوا بين انفسهم وأضحى الواحد منهم يقتل الآخر ليرقى الى كرسي الوزارة بدلاً منه . ومع كل ذلك فقد كان هؤلاء الوزراء كثيراً ما يزعزعون مكانة السلطان ويزيحونه

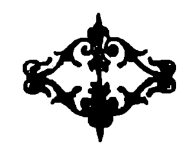
من العرش . وأصبحوا هم الذين يعينون الملوك ويعزلونهم ، بل قد اضحى الأمر فوضى الى الحد الذي تولى فيه ثلاثة ملوك أمر السلطنة في سنة واحدة ، وعزلوا من عرش السلطنة الواحد تلو الآخر في تلك الفترة القصيرة .

وليس هذا كل ما كان في الدولة . فان المنازعات القبلية كانت تؤجج نيران الحروب بين قبائل السودان المختلفة ، وادى ذلك الى مزيد من الفوضى في البلاد. وكانت هذه القبائل تهاجم كل منها جارتها ، وتغزو ديارها ، وتسلب أموالها . فأثر ذلك على حياة الاستقرار في البلاد وأساء اليها في توليد حزازات أثرت على وحدة السودان وربط مناطقه المختلفة بعضها ببعض . وأضاعت هذه المنازعات الشعور بالقومية السودانية ، وأججت فيها النزعة القبلية بدلاً منها . وبالرغم من رواج التجارة بأنواعها الا ان ذلك كان يمكن ان يثمر اكثر لو كانت وحدة البلاد مكتملة والأمن مستتباً .

وبالاضافة الى هذه الأشياء فان النزاع المرير بين سلطنة الفونج وسلطنة الفور على مناطق كردفان (١٧٤٨ م) اجهد المملكتين أيما إجهاد ، فأضعف قوتهما الحربية والمالية. وبدلاً من ان تتوسع السلطنة الزرقاء شمالاً على طول نهر النيل، وتثبت أقدامها في تلك المناطق ، أخذت الحروب بينها وبين الفور تضعف من قوتهـــا . ولو اهتم سلاطين الفونج بالمناطق النيلية بدلاً من محاولة الاستيلاء على أراضي كردفان لعاشت سنوات اخرى طويلة في قوة ومنعة .

ومن اظهر المظاهر في سلطنة الفونج هو فقدان الشعور بالقومية السودانيـة فقداناً تاماً ، فان الفونج فشلوا في خلق مثل هذا الشعور فشلاً ذريعاً بالرغم من أن الفرص كانت مؤاتية لهم اثناء حروبهم المتكررة مع جارتهم الحبشة ومع جارتهم سلطنة الفور . كما أنهم فشلوا في ايجاد جيش وطني ، وميزانية موحدة

للدولة ، وكبرياء سوداني . والمناطق النائية عن سنار لم تكن تدعى للاشتراك في حروب السلطنة ضد اعدائها ، كما أن عدم وجود خزينة عامة لم يجعل من الممكن ان تصرف الدولة على مرافق الحياة المختلفة . ولعدم وجود هذه المرافق لم يشعر المواطنون بمسؤوليتهم نحو الدولة ، وبذلك أضحى الشعور بالوطنية السودانية يكاد يكون مفقوداً فقداناً كاملاً لفترة طويلة من الزمن . ولم يلبث الا بقيام الثورة المهدية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر .



١

الفتح المصري التركي ١٨٢٠

بعد الاستيلاء على مصر وتثبيت سلطانه فيها ، اخذ محمد علي باشا يعمل جاهداً لتوسيع رقاع البلاد التي يحكمها لأنه لم يكن قانعاً بما لديه وهي الأراضي المصرية . ومن الواضح أن محمد علي كان ينظر شرقاً الى الاراضي الحجازية ، وغرباً الى ليبيا ، وجنوباً الى السودان حتى منابع النيل ، كما زاد فيما بعد طموحه فشمل تهديده الامبراطورية العثمانية شمالاً .

نجد أن محمد علي هاجم الأراضي الحجازية بين عامي ١٨١١ و ١٨١٨ حيث انتهت الحرب بانتصاره النهائي على السعوديين وإرسال زعمائهم الى الباب العالي السلطان العثماني في تركيا حيث لاقوا مصرعهم .

أما نظرته الى الغرب فلم تكن بعيدة المدى اذ أنه استولى على واحة سيوه في أوائل سنة ١٨٢٠ وذلك قبيل حملته التي جردها على السودان ، وبذلك استطاع ان يؤمن حدوده الغربية .

ولم يبق له إلا تأمين حدوده الجنوبية حيث كانت هناك عدة أسباب تستدعي الزحف على السودان وكانت حملاته ضد الوهابيين في الجزيرة العربية قد شغلته عدة سنوات قبل ان يفرغ للسودان. وكانت أولى الخطوات في سياسته التوسيعية نحو الجنوب ان ارسل وفداً يحمل في ظاهره صداقته الى سلطان الفونج في عام

١٨١٣ ، وفي باطنه يحمل جواسيس عيونهم مبثوثة لمعرفة الاحوال السياسية والتجارية والحربية في البلاد . وكان هذا الوفد يحمل هدية من محمد علي باشا الى سلطان الفونج تقدر قيمتها بنحو ٤٠٠٠ ريال منها شالات كشمير وحرير . وورد ملك سنار على هذه الهدية بما يتناسب ورغبات الباشا فأرسل اربع جوار وجلود نمر وقط زباد وقردة وشبلاً واحداً (مات في الطريق) . ولم يكن ثمن هذه الاشياء يزيد على ٨٠ ريالاً في سنار .

وكان أهم ما حمله وفد الصداقة المصري تلك التقارير التي تدل على ضعف سلطنة الفونج خاصة ، والسودانيين عامة . كما اظهرت انعدام الاسلحة النارية في القطر السوداني .

لكن حملة الغزو هذه تأخرت عدة سنوات لان شوكة الوهابيين لم تنكسر بعد مما جعل محمد علي يؤجل الغزو حتى فرصة اخرى .

اسباب فتح السودان :

رأى محمد علي أن مصر أضحت فريسة للأطماع الغربية وخاصة فرنسا وانجلترا . أما فرنسا فإنها احتلت الاراضي المصرية في عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون ، ولم يخرج الفرنسيون الا بعد صلح « امين » الذي عقد بين انجلترا وفرنسا في عام ١٨٠٢ . ثم حاولت انجلترا ان تغزو مصر في سنة ١٨٠٧ ، وهبطت الجيوش البريطانية في رشيد ولكن المدير المصري علي بك السلانكلي استطاع ان يصد ذلك الغزو في ٣١ مارس ١٨٠٧ بجهاد فيه كثير من البطولة .

علم محمد علي أنه لكي يصد الغزو الاوروبي في المستقبل عليه ان يجند جيشاً قوياً يستطيع ان يدافع عن مصر ، وعلى هذا الجيش ان يتدرب على الطرق الحديثة ، وان يستعمل الاسلحة المستحدثة . وكان يعرف ان جنوده الالبانيين

هم آخر من يقبل النظـــام الجديد الذي كان ينوي خلقه وذلك لقلة اهتمامهم ، وعدم رغبتهم في إطاعة الأوامر . لذلـــك فقد قرر ان يستجلب الجنود من السودان الذي كان دائماً مصدراً حسناً لاستجلاب الجنود من بين رجاله اذ كان الفراعنة دائماً يستعينون بالجندي السوداني . وكان السوداني بقامته العسكرية ، وشجاعته المعهودة واخلاصه وطاعته خير مـــا يطلب الوالي في سبيل تعزيز قواته ، وإدخال النظام الجديد ، وذلك بخلق جيش يسير على النظم الغربية .

واشتهر السودان ايضاً بين حكام مصر منذ أقدم العصور بأن أراضيه غنية بالذهب . وكان محمد علي من اكثر الناس حاجة الى ذلك الذهب حتى يستطيع أن ينفقه على جيشه الكبير الذي يود بناءه . ولن يكون ذلك الذهب السوداني مصدر غنى للخزينة المصرية فحسب ولكنه سيمكن الباشا من تطوير البـــلاد المصرية زراعياً وعسكرياً وصناعياً ، ولذلك فقد كان محمد علي ينوي الاستيلاء على تلك الكنوز الذهبية التي كانت الاساطير ترويها .

ولاحظ محمد علي أن مصر تعتمد في حياتها اعتماداً كلياً على مياه النيل ، وانه هو السبيل الوحيد لري أراضيها الزراعية ، لذلك كان يرمي الى الاستيلاء على كل وادي النيل بما في ذلك منابعه التي لم تكن معروفة بعد . وكثيراً ما عمدت الحبشة الى تهديد مصر والسودان في القرن الثامن عشر والسابع عشر بتحويل مجرى مياه النيل. وحتى في أيام محمد علي كان يسمع بأن الدول الاوروبية ستساند الحبشة لكي تضغط على مصر ومن هنا كان اهتمامه بالغاً بالسودان كجزء هام من وادي النيل ، وكانت الاطماع الفرنسية والبريطانية في افريقيا قد بدأت في الظهور آنذاك مما جعل محمد علي يتوسع نحو السودان .

وبامتداد ممتلكات والي مصر في السودان سيصبح له ميـدان متسع للتقهقر متى استدعى الامر وذلك اذا حدث أن هاجمته احدى الدول الاوروبية المستعمرة سواء أكانت تلـــك الدولة فرنسا ام انجلترا فانه سيجد أرضاً واسعة ينسحب اليها ، ويعد فيها جيشاً لملاقاة اي اعتداء خارجي .

غير ان خط التقهقر لا بد وان يكون مأمون الجانب، وان يكون الساكنون فيه على مودة مع الوالي ، ولكن الامر لم يكن كذلك في السودان حيث هربت اليه فلول المماليك الذين نجوا من المكيدة التي دبرها لهم محمد علي باشا ، وكان اولئك المماليك قد اتخذوا من شمال السودان موطناً لهم وعسكروا بالقرب من مملكة الشايقية حيث أنشأوا مملكة لهم كانت بمثابة طعنة من الخلف لمحمد علي . ولهذا فقد قرر والي مصر ان يخضع تلك الفلول الهاربة من المماليك ، ويقضي على قوتهم قضاء مبرماً قبل ان يستفحل امرهم في السودان، ويسيطروا عليه ، وعند ذلك تصعب محاربتهم والتغلب عليهم .

كان محمد علي باشا يرمي أيضاً الى استغلال تجـــارة السودان ، واحتكار حاصلاته، وتسويقها عن طريق مصر في الاسواق العالمية ، وكان من اهم حاصلات السودان آنذاك الرقيق والعاج والابنوس وريش النعام والذهب والجلود ، كما كان يرى ان السودان سيكون سوقاً طيبة لصادرات مصر متى بدأت مصر تبحث عن أسواق لها .

وكان والي مصر كثير الطموح، فقد كان عصره عصر نابليون الذي أخضع كل اوروبا ، ودوخ ممالكها ، وبنى امبراطورية من اعظم ما عرف التاريـــخ. وكذلك كان محمد علي باشا يريد ان يصبح قابضاً على زمام الجزيرة العربية حتى يصل الى المحيط الهندي، وعلى السودان حتى يسيطر على شواطىء البحر الاحمر وحوض النيل ، ثم ينظر بعد ذلـــك الى البحر الابيض المتوسط . هكذا كان والي مصر واسع الطموح ويريد ان يشيد امبراطورية واسعة الأرجاء في الشرق الاوسط قرب الامبراطورية العثمانية . وكانت سياسته الخارجية في كل مظاهرها امتداداً لسياسة فراعنة مصر الذين شيدوا امبراطوريتهم سواء تجاريا أو اقتصادياً حتى شملت السودان وأراضي البوانيت فيما وراء البحر الاحمر والشام والبحر الابيض المتوسط ، وكانت أهدافه هي تحقيق أهم أهداف حكام مصر الأقدمـين .

ارسال الحملات العسكرية الى السودان

لم يشأ محمد علي ان يدخل في مغامرة خاسرة في السودان ، بل كان حذراً يحتاط لكل صغيرة وكبيرة في سبيل تحقيق أطماعه ، لذلك فانه رأى ان يجمع الحقائق التي تتصل بمركز سلطان الفونج في بلاد السودان ، ومدى قوته العسكرية فأنفذ بعثة في سنة ١٨١٣ م مزودة بالهدايا الى ملك سنار .

ورأى رجال البعثة المصرية التركية ان السلطنة الزرقاء ما هي الا لقمة سائغة لمحمد علي تنتظر فراغه من حربه مع السعوديين في الجزيرة العربية حتى لا يضطر الى توزيع قواته في جبهتين في نفس الوقت .

ثم ما لبث ان قدم الى مصر الشيخ بشير ود عقيد من قرية ام الطيور قرب عطبرة في سنة ١٨١٦ - ١٨١٧[١] وطلب من محمد علي ان يعينه على خصمه الملك نمر ملك الجعليين الذي أقصاه من مشيخته وضيق عليه الخناق . وكان الشيخ بشير يعتقد ان محمد علي سيقدم له المساعدة . فأبقاه محمد علي واكرم وفادته حتى أعد العدة لفتح السودان فأرسله مع الجيش الذي سار لغزو السودان وعينه شيخاً على منطقة شندي في آخر الامر بعد نزوح الملك نمر الى حدود الحبشة .

وكانت آخر خطوات محمد علي قبل فتح السودان هي استيلاؤه على واحة سيوه كما رأينا من قبل وذلك بعد ان امتد سلطانه الى الجزيرة العربية ، وبعد ان تأكد من ان الدول الغربية لن تهاجمه من الشمال لفترة طويلة ، واصبح الطريق أمامه معداً للقيام بتوسيع بلاده جنوباً نحو السودان .

وفي هذا العام (١٨٢٠) كان محمد علي قد أعد جيشين احسن إعداد ، ورسم الخطة على ان يسير الجيش الاول لفتح الاراضي الواقعة على النيل وتضم السلطنة

---

(١) محمد احمد الجابري : في شان الله .

الزرقاء حتى يبلغ حدود الحبشة . اما الثاني فكان عليه ان يتجه الى سلطنة الفور ليستولي على أراضي كردفان ودارفور ، وهي البقاع التي كانت خاضعة لسلطان الفور .

الزحف الى سنار – يوليو ١٨٢٠ :

تولى قيادة الجيش الاول اسماعيل بن محمد علي باشا ، وكان شابا في حرالي الخامسة والعشرين من عمره . وكان جيشه يضم حوالي ٤٥٠٠ من الجنود فيهم الاتراك والارناؤط والمغاربة وعدد من قبيلة العبابدة الذين يعرفون الطرق الصحراوية بين السودان ومصر . وكان سلاح هذا الجيش البنادق و٢٤ مدفعاً.

ولم يشأ محمد علي ان يترك ابنه يسير في هذه المغامرة دون ان يزوده بالمستشارين ، لذلك اوفد معه بعض الذين يثق في مقدرتهم من الاداريين مثل عابدين بك وعبدي كاشف . ولما كان يعلم ان السودانيين يجلون علماء الدين إجلالاً عظيماً فانه أوفد مع الجيش الغازي ثلاثة من العلماء هم القاضي محمد الاسيوطي الحنفي ، والسيد احمد البقلي الشافعي ، والشيخ السلاوي المالكي . وكان على هؤلاء العلماء ان يحثوا الناس على وجوب طاعة الوالي المسلم محمد علي وان يتجنبوا سفك دماء المسلمين ويطيعوا خليفتهم العثماني وواليه في مصر .

وما ان ارتفعت مياه النيل بفعل فيضانه في يوليو ١٨٢٠ حتى اندفعت مراكب الجيش الفاتح (٣٠٠٠ مركب) تشق مياه النيل من اسوان الى بلاد السودان تحمل الرجال والعتاد ، ومثل ذلك العدد من الجمال كان يسير في الارض تابعاً للحملة .

كانت بلاد النوبة في الدر جنوبي أسوان تتمتع باستقلالها تحت حكم حسين

كاشف الذي أراد المقاومة اولاً ولكنه خاف صولة اسماعيل فهرب من امامه وبذلك افسح المجال لاخيه حسن ليسلم الى اسماعيل خاضعاً ، فأقره هذا على بلاده وتقدم بجيشه صاعداً الى الجنوب . ووجد حكام شمال السودان انفسهم ضعافا امام جيش اسماعيل وذلك لتفرقهم الى عدة ممالك صغيرة . فآثر بعض منهم ان يستسلم ففي اراضي سَكّوت سلم واليها الكاشف حسن وردي ، ولكنه ما لبث ان ضاق بجنوداسماعيل الاتراك وتدخلهم ، فثار عليهم ، وانتهت ثورته بقتله . وممن سلم الملك صبير ملك المحس وكانت عاصمته دلقو. ثم من بعده الملك طنبل والي منطقة أرقو .أما المماليك الذين اتخذوا من مراغة ودنقلا العرضي عواصم لهم في شمال السودان فلم يستقر رأيهم على شيء. فهم كانوا يخشون الفناء إن هم سلموا لاسماعيل ، وكانوا يخشون التشتيت الى الابد إن فروا من وجهه . وانقسموا الى قسمين ، بعضهم سلم فأمنهم اسماعيل ، وبعضهم الآخر هرب لائذاً بمملكة الجعليين في شندي. اما الدناقلة فهم ايضاً رأوا ألا قِبَل لهم بجيش اسماعيل المدجج فأذعنوا له مستسلمين .

المعركة الاولى للجيش الفاتح :

موقعة كورتي في نوفمبر ١٨٢٠ :

لم تقابل جيش اسماعيل اية عقبة حتى بلغ ديار الشايقية التي كان زعيمها الملك جاويش . وكان الشايقية يعتزون بجهادهم الحربي وسطوتهم على جيرانهم، وثورتهم على سلطان الفونج حيث لم يقبلوا الخضوع الى نفوذهم . وكانوا يعدون الخيل والسلاح الابيض لاعدائهم .

فلما تقدم اسماعيل ووصل بلادهم رغبوا في الخضوع اليه على ألا يتدخل في شؤونهم . ولكن اسماعيل وضع شروطاً لتسليمهم اهمها ان يسلموا الخيل

والسلاح ، وان يفلحوا الأرض . ولم يقبل الشايقية هذه الشروط ، وعزموا على القتال .

ودخلت مقدمة الجيش المعتدي الى ارضهم فلاقوها بهجوم مفاجيء بالسلاح الابيض والخيل، وما هي الا لحظات حتى سقط حوالي السبعين قتيلاً من مقدمة الجيش الغازي وفر خمسة وعشرون ليحملوا نبأ الانكسار الاول لاسماعيل .

تقدم اسماعيل بجيشه والتقى به جيش الشايقية قرب مدينة كورتي . وقام الشايقية بهجوم آخر على اعدائهم ، ولكن رصاص اسماعيـل حصدهم وخيولهم قبل ان يصلوا الى الجيش ليستعملوا رماحهم وسيوفهم . وكانت معركة خاسرة تفوق فيها السلاح الناري على السلاح الابيض وعلى بسالة حامليه . ولم تمض ثلاث ساعات حتى انتهت المعركة بخلو الميـــدان من المدافعين ، ولم تبق فيه الا جثث قتلاهم الستمائة . واستمر اسماعيل يضرب قلاعهم ودورهم بقنابل مدافعه حتى انحطت قواهم المعنوية والحربية ، وانقسموا الى طائفتين : طائفة كان يقودهـــا الملك صبير حاكم غرب بلاد الشايقيه وقد رأت في التسليم سلامة. وطائفة بقيادة الملك جاويش حاكم مروى وهذه فرت الى اراضي الجعليين حيث سبقتهم فلول المماليك ، وكانت ترى المقاومة . وهكذا أصبح الملك نمر ملك الجعليين ملجأ كل من قاوم جيش اسماعيل ، كما كانت اخبار قوة جيش الاعداء تتوالى عليه ليتخذ له موقفاً من الغزو الخارجي. وكان اسماعيل على علم بما يجري في أراضي الجعليين وزعيمهم الملك نمر ، وكان عليه ان يكون حذراً منه لأنه الآن بدأ يتزعم حركة المقاومة التي كان يفقدها السودان .

ولما سلم الملك صبير الى اسماعيل أظهر له رغبة رجاله الشايقية في الانضمام الى الجيش الغازي ، فقبلهم اسماعيل وساروا معه لاخضاع بقية الاراضي السودانية.

من عشر دقائق تخللها صمت وتوتر، وبالرغم من أن الملك نمر قدم اليه جوادين من كرام الخيل وغير ذلك من الهدايا ، ولم يقدم له اسماعيل غير جواد واحد رداً على هديته .

وفي بربر أيضاً التقى ابن الملك جاويش باسماعيل ودخلا في مفاوضات حول رغبة والده في تقديم ولائه لوالي مصر . وقبل اسماعيل هذا الخضوع مبدئياً . ثم انه أمر الملك نمر بملازمة معسكره وجيشه والسير معه الى سنار ، ولم يتركه في عاصمته شندي بل اخذه معه رهينة خوفاً من ان يثير عليه القبائل ، ويقطع عليه خطوط مواصلاته بالقاهرة إذ ان قبيلة الجعليين تحتـــل منطقة طويلة على النيل .

ومن الملاحظ ان اسماعيل طيلة زحفه هذا أقر هؤلاء الملوك الذين سلموا له على بقائهم زعماء لقبائلهم تحت اشرافه ، ولم يغير الا القليلين . ومن بين الذين سلموا اليه في بربر الملك نصر الدين ملك الميرفاب . وكان قد تأخر عن المثول بعض الوقت نسبة لمرضه ، فلما أذعن أقره اسماعيل ايضاً على قبيلته بعد ان قبل هديته التي كانت تضم خمسين جواداً ومثلها من الابل ، وقد سر بها اسماعيـل وأعطاه ما يوازنها من الهدايا .

وجاءت من مدينة شندي جماعة من المماليك وأبدت خضوعها لاسماعيـــل بينما فرت جماعة الى غرب السودان .

ومن بربر اتجـــه الجيش التركي بقيادة اسماعيل الى الجنوب ماراً بأراضي الجعليين حيث بدأ الجنود يثيرون القلاقل في ديار الجعليين اذ كانوا يهجمون على ممتلكات الجعليين من ضان ودجاج وسمن[1] . وحدثت بينهم وبين الاهلين عدة

---

(١) جورج ب . انجلش : قصة الحملة الى دنقلا وسنار (لندن ١٨٢٢) ص ١١١ .

مصادمات ذهب فيهـــا بعض الجعليين ضحية لرصاص الجنود الغاصبين بسبب دفاعهم عن ممتلكاتهم ولرفضهم قبول النقود المصرية التي يحملها الجنود والتي لم تكن قيمتها معروفة لديهم اذ أن السودانيين كانوا في ذلك الوقت يستعملون الريال النمساوي او الاسباني او المكسيكي .

وجاء الملك جاويش الى اسماعيل مستسلماً في شندي ومعه مائتا فارس من من فرسان الشايقية الذين نجوا بعد واقعة كورتي . وعرض جاويش رغبته في ان يلتحق بجيش الباشا ، فسر اسماعيل بذلك ، وعينه ضابطاً على مائـة وأربعين من رجال الشايقية ، ووزع عليهم السلاح ليكونوا تحت امرته ، وكان ولاء جاويش للجيش الغازي في وقت كان اسماعيل فيه في أشد الحاجـــة الى جنود وذلك لأن جيشه في هذه الآونة كان قد نقص كثيراً في عدده إذ انه اضطر ان يترك بعض الحاميات خلفه في الطريق الطويل بين حلفا وسنار ليؤمن مواصلاته ، فقد ترك اسماعيل في كورتي ٣٠٠ من الجنود المغاربة ، وبالقرب من بربر حوالي ٦٠٠ جندي لحراسة المراكب والمؤن ، هذا غير الحاميات الاخرى التي كان سيتركها قبل الوصول الى سنار وما بعدها . وبالقرب من الخرطوم في الحلفـايا عاصمة العبدلاب جاء ملكهم الشيخ ناصر بن الامين خاضعاً لاسماعيل ، ولمـــا وجده اسماعيل شيخاً كبيراً تركه في الحلفايا وأخذ ابنه رهينة معه حتى يتأكد من ولاء العبدلاب ، كما جعل من الملك نمر ضماناً لولاء الجعليين من قبـــل . ويقدر عدد سكان الحلفايا في عام ١٨٢١ بحوالي الاربعة آلاف نفس وكانت دائماً تشكو من غارات الشايقية عليها .

سار اسماعيل حتى بلغ ودمدني ولم يحتج الى خبرة الضابط الامريكي إنجلش الذي كان مسؤولا عن المدفعية والذي كان قد استعد لضرب الحلفايا بالقنابل في حالة عدم إذعان ملكها .

اضطراب الاحوال في سنار وسقوطها في ١٣ يونيو ١٨٢١ :

وفي سنار كانت الامور تسير في صالح الجيش الغازي . فقد كان سلطان الفونج آنذاك الملك بادي السادس وهو شاب في حوالي السادسة والعشرين من عمره لم يستطع ان يمسك بزمام الامور في سلطنته المتداعية . وكان الحل والعقد في يد وزيره محمد ود عدلان الذي بلغته رسالة من اسماعيل باشا يطلب فيها من السلطان المبايعة لخليفة المسلمين السلطان العثماني . فكتب محمد ود عدلان رسالته التي يقول فيها لاسماعيل : « لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية، فنحن الملوك وهم الرعية . أما علمت بان سنار محروسة محمية ، بصوارم قواطع هندية، وجياد جرد أدهمية، ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية ؟ » .

وكان ظاهراً أن محمد ود عدلان لم يكن يعيش في واقع عصره إذ أن جواسيسه ابلغوه بان قوة الجيش الفاتح تبلغ المائة وستة وثمانين الف محارب حتى انه اخذ يطلب من الاولياء والصالحين في البلاد السودانية ان يقيموا الصلوات والدعاء حتى يعين الله السودانيين على هذا الجيش الذي لا قبل لعربان السودان به ، ولم يأمر صراحة بتجنيد الجند من القبائل بأرض الجزيرة والجعليين ليستعد لمقابلة الجيش الغازي بل كان مشغولا في المشكلات الداخلية في سنار .

ولم تثمر المحادثات بينه وبين سلطان الفور بغرب السودان في سبيل توحيد كلمة كل السودان لمجابهة الغزو التركي في جبهة متحدة . كما ان الاضطرابات الداخلية في سنار ومنازعاته مع ابناء عمومته لم تمهله لكي يقوم بجمع جيش مناسب

للدفاع عن العاصمة . وعندما كان اسماعيل بجيشه في ودمدني تمكن جماعة من أنصار حسن ود رجب ابن عم الوزير محمد ود عدلان من اغتيال الوزير محمد ود عدلان . ولم يستطع حسن ود رجب الاستيلاء على السلطة وفر الى الحبشة . وتمكن جناح خصومه بقيادة الأرباب دفع الله الآن من تولي السلطة ، ولكن الوقت كان قد اصبح ضيقاً للقيام بأي نشاط عسكري ضد اسماعيل . واستقر رأي الأرباب دفع الله على الدخول في مفاوضات مباشرة مع اسماعيل للتسليم له.

رحل وفد مفاوضات سلطان سنار برئاسة الارباب دفع الله لمقابلة اسماعيل قبل وصوله الى سنار ، والتقوا به في ود مدني ، وعرضوا عليه رغبة السلطان في التسليم . ولما اقترب اسماعيل وجيشه من سنار خرج الملك بادي السادس لملاقاته خارج العاصمة ، ووقع تنازلا عن جميع سلطانه لخليفة المسلمين بالقسطنطينية مبايعاً له في ١٣ يونيو ١٨٢١ .

وبهذا التنازل أضحت البلاد تحت سيطرة السلطان العثماني اسمياً ، وواقعياً تحت إدارة محمد علي باشا . ودخل الجيش الغازي سنار في اليوم التالي دخول الغزاة المنتصرين وهم يقصفون البر بقنابل مدافعهم. وسار السلطان السابق خلف الجيش بعد ان عينه اسماعيل شيخاً على منطقة سنار لكي يجمع منها الضرائب ويسلمها للادارة التركية المصرية الجديدة وسمح له بأن تكون له من تلك الضرائب نسبة خاصة .

أما وثيقة التنازل[1] التي وقع عليها الملك بادي فقد أرسلت في الحال الى محمد علي باشا في مصر . وهكذا انتهى سلطان الفونج ، وغربت السلطنة الزرقاء التي عاشت في ربوع السودان من عام ١٥٠٤ الى عام ١٨٢١ .

---

(١) الجلش : صفحة ١٦٩ .

اسباب نجاح حملة اسماعيل :

تعد حملة اسماعيل لفتح السودان من الحملات العسكرية القليلة التي لم تصادفها أية صعوبة في سبيل تحقيق أغراضها ، وكما رأينا فانه باستثناء تحدي الشايقية ، وكلمات محمد ود عدلان النارية كان الفتح عبارة عن طابور سلمي للجيش الفاتح في السودان . ولو أردنا أن نبحث عن الاسباب التي جعلت هـــذا الفتح يسيراً لوجدنا عدداً منها أهمها ان السودان كان يفقد القيادة المركزية التي تستطيع ان توجهه في حرب لحفظ الاستقلال. ثم ان القبائل القاطنة في شمال السودان وخاصة الدناقلة والجعليين والعبدلاب كانت جميعها تشكو من الإغارات التي كان يقوم بها الشايقية. ومن الحقائق المعروفة أن اسماعيل في أول أمره كان يقول للدناقلة ومن جاور الشايقية ثم للجعليين بأنه انما جاء ليخلصهم من اعتداءات الشايقية . ولم يلبث ان تم التحالف بين الشايقية والجيش الفاتح وسقطت حجة اسماعيل في أنه انما جاء لتخليص القبائل السودانية من ذلك العدوان . ولم تشعر القبائـــل بأنهم استبدلوا العدو القديم بعدو أقوى يسانده الاول طيلة زحف الغزاة .

وبدا لنا ان الملك نمر كان هو الامل الوحيد في ايقاف سطوة جيش الغزاة، ولكن الملك نمر نفسه كان قد انتهى من حروباته مع الفونج وملك السعداب في المتمة ، ولم يستطع الاستقلال بملكه في شندي الا بعد تلك الحروب ، وبالاضافة الى ذلك فان الملك نمر كان يشعر بالتأكيد بأن الوقت لم يحن بعد للصمود أمـام اسماعيل وذلك بسبب تفكك البلاد السودانية وعدم شعورها بقومية سودانية . بقي هناك ملك العبدلاب الذي كان بطبيعة تاريخ قبيلته سيداً للسودان الشمالي. وكان يظن ان الاتراك لن يبقوا في البلاد طويلا. وكان يحدث الرحالة كايو الذي كان يرافق الحملة في ذلك الامر، ولكن كايو أوضح له ان هذا الاحتلال باق في البلاد ـ وجاءت هذه النصيحة بطبيعة الحال متأخرة جداً .

وبسبب تقسيم البـــلاد الى دويلات صغيرة مثل مملكة الشايقية والدناقلة والرباطاب والميرفاب والجعليين والعبدلاب سهل الفتح ، ولم تحاول هذه الدويلات ان تهاجم الجيش اثناء عبوره النيل عدة مرات وهو اضعف ما يكون عسكرياً ، او مفاجأته في غارات ليلية اثناء زحفه . ولقد كان كابو يتمنى أن يحاول ملك العبدلاب الهجوم على اسماعيل وهو يعبر النيل بالقرب من الحلفايا حتى يبيـــد قواته الغازية . وكان جيش اسماعيل حين دخل سنار لا يزيد على ١٥٠٠ جندي هم أسهل ما يكون الى الفتك بهم في اغارة ليليـــة واحدة . لكن السودانيين اضاعوا هذه الفرصة ايضاً .

أما المفاوضات التي دارت بين سلطان الفور ووزير الفونج في سبيل توحيـد الجهود ضد المعتدين فلم تسفر عن شيء حتى اغتيل وزير سنار وأذعن سلطانهـا مستسلماً لاسماعيل . وبذلك سقطت كل البلاد التي بين اسوان وسنار في يـــد الغزاة بكل سهولة . ويجب ألا ننسى ان السلاح الناري الذي أصيب به الشايقية كان خير نصيحة للقبائل السودانية في عدم جدوى سلاحهـــا الابيض مع فتك البنادق والمدافع .

وبسقوط سنار سيطر محمد علي باشا على جزء كبير من حوض نهر النيـــل والنيل الأزرق .

وعلينا الآن ان نعود الى اسوان لنرى كيف سارت الحمـــلة الاخرى التي أرسلها محمد علي لفتح كردفان ودارفور .

حملة كردفان ودارفور :

هذه هي الحملة الثانية التي ارسلها محمد علي باشا بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لضم غرب السودان الى املاك مصر . وكان الدفتردار شاباً كاسماعيل لا يقل عنه كبرياء وصلفاً واستبداداً .

وكانت الخطة التي وضعها محمد علي باشا لزحف الحملتين هي ان يسير اسماعيل بالمراكب من أصوان حتى يبلغ دنقلا ثم تعود المراكب لتقل عساكر الدفتردار الى الدبة ، ومن هناك يسلك الدفتردار وجنوده الطريق الصحراوي الى كردفان ثم دارفور . وكما كان العبابدة هم اكثر القبائل التي تعرف الطريق الصحراوي الشرقي ، فإن قبيلة الكبابيش كانت هي سيدة من يعرف الطريق بين مصر وغرب السودان ، وهم الذين يقدرون المراحل التي يجب ان يقطعها المسافر والجيش كل يوم . والكبابيش والعبابدة قبيلتان لهما مصالح اقتصادية مع مصر وكانت كل صادرات السودان ووارداته من والى مصر تنقل بواسطة جمال هاتين القبيلتين ، فتنقل جمال الكبابيش البضائع الى غرب السودان وجمال العبابدة والبشاريين ايضاً الى أجزاء السودان الواقعة على النيل . وكانت هاتان القبيلتان تأملان في انتعاش اقتصادياتهما من جراء فتح مصر للاراضي السودانية .

وأمدّ الكبابيش جيش الدفتردار بما احتاج اليه من جمال لنقل العتاد والمؤن من الدبة الى غرب السودان ، وكانوا هم خير دليل له لتحديد معسكراته في أماكن الآبار القليلة الموجودة في تلك الصحراء . واستأجر الدفتردار جمالهم لحمل سلاحه ومؤونته .

وقبل ان يصل الى هدفه في الابيض ارسل كتاباً الى السلطان محمد الفضل سلطان دارفور من محمد علي باشا ينصحه فيه بالتسليم والخضوع . فرد عليه محمد الفضل بكتاب حوى بعضاً من نصوص كتاب محمد ود عدلان ، واضاف الى ذلك :

« اما علمت ان عندنا العباد والزهاد ، والاقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم ، فتصير رماداً، ويرجع الى اهله والله يكفي شر الظالمين » .

وتقدم الدفتردار الى كردفان دون ان يعترض طريقه معترض . وكانت منطقة كردفان تابعة لسلطان الفور ، ويحكمها من قبله وال هو المقدوم مسلم الذي اتخذ من مدينة الأبيّض عاصمة لولايته . فلما علم بقرب قدوم جيش الدفتردار خرج في عساكره من الأبيّض شمالاً الى بارة ليواجه الجيش الغازي .

واقعة بارة في ١٦ أبريل ١٨٢١ :

التقى جيش المقدوم مسلم بجيش الدفتردار في بارة ، وكل من القائدين والجيشين قد استعد للقتال . وما أن رأى جيش كردفان الأعداء حتى هرعوا اليهم هاجمين بخيولهم وأرجلهم لا يتوقعون إلا النصر لهم . وما ان اقتربوا من خط النار حتى انطلقت رصاصات الأعداء تحصدهم ، واصبح كثير منهم يسقط صريعاً قبل ان يلتحم بأعدائه . وكان ذلك مصدر عجبهم اول الامر حتى اذا أثخنوا بجراح الرصاص من بعد علموا انهم يهاجمون عدواً لا قبل لهم به . وسقط المقدوم مسلم صريعا في أرض المعركة وطلب الباقون النجاة وكل منهم يحمل جروحاً في جسده من رصاص لم يصادف مثله من قبل .

هكذا انتهت واقعة بارة بانهزام الوطنيين وانتصار الجيش الغازي . وبمصرع المقدوم وانهزام جيشه سقطت كل منطقة كردفان في يد الدفتردار قبل سقوط سنار في يد اسماعيل . ولم يحاول السلطان محمد الفضل ان يتقدم بجيش من دارفور لقتال الدفتردار ، بل قبع في الفاشر ينتظر تطورات الموقف ، والبحث عن مساعدات عسكرية وإمدادات للاسلحة النارية بعد ان ظهرت له قوة فعاليتها في الانتصارات الحاسمة .

ولم يسر الدفتردار عن الأبيض لأن الوقت صيف ، والمياه في الطريق قليلة

والمسافات شاسعة ، واستقر به المقـــام في الأبيض ينظم شئون كردفان . وفي اكتوبر ١٨٢١ قرر محمد علي باشا عدم رغبته في ان يفتح دارفور ، بل كان يفكر في إخلاء كردفان والتنازل عنها لاحـد ملوك السودان نظير دفع جزيـة سنوية ، وكتب بذلك في عام ١٨٢٢ للدفتردار ولكن هذا استطاع ان يقنعـه بالعدول عن هذه السياسة فعدل .



٣

الحكم المصري (التركية السابقة)

يسمي السودانيون الحقبة بين فتح اسماعيل باشا للسودان عام ١٨٢١ ومقتل غردون باشا عام ١٨٨٥ بالتركية السابقة . ولهذه التسمية اكثر من سبب فان الجيش الذي فتح البلاد كان كله من الجنود المرتزقة الذين اعتاد الاتراك ان يجندوهم، وهم بيض البشرة يختلفون تمام الاختلاف عن السودانيين والمصريين . وبالرغم من ان محمد علي باشا كان الوالي على مصر إلا ان جيوشه التي ارسلها الى السودان لم يكن فيها جندي مصري واحد . هذا بالاضافة الى ان الضباط الذين كانوا في الحملة هم ايضاً من ضباط الاتراك واصبحوا فيما بعد اداريين في السودان .

ومن اسباب هذه التسمية ان الملك بادي ـ سلطان الفونج ـ عندما وقع على وثيقة التنازل عن عرش اجداده انما وقعها للسلطان التركي فأصبحت البلاد لذلك خاضعة للاتراك اسمياً ولوالي مصر ادارياً . وكان السودانيون سواء في سلطنة الفونج أم الفور يعرفون ان مصر ولاية عثمانية تابعة لخليفة المسلمين في القسطنطينية وذلك بحكم الصلات التجارية والثقافية التي كانت على ضعفها تربط بين مصر والسودان . وعندما غزا الانكليز والمصريون السودان وفتحوا البلاد عام ١٨٩٨ اطلق السودانيون عليهم التركية الحاضرة في أول الامر وذلك لبياض بشرتهم ، ولم يندثر هذا الاسم الا بعد ان استفاق السودانيون وانقرض اكثر الجيل الذي اصطلى بنار التركية السابقة ، وعرف الباقون الذين نشأوا في ظل الحكم الثنائي

الفرق بين الادارتين ، وعند ذاك تغير الاسم وانتشر لفظ الحكم الثنائي للادارة البريطانية المصرية فيما بعد بين ١٨٩٨ و ١٩٥٥ .

سنار في عين الجيش الفاتــح :

لما بلغ اسماعيل وجيشه سنار استفاقوا الى حقيقة العاصمـــة السودانية التي هجروا القاهرة من أجلها وقدموا ليغرفوا من ذهبها ورقيقها وحاصلاتهـــا . وجدوا فيها ان قصر الملك بدأ في الانهيار ، ووجدوا مسجداً كبيراً أبوابــه من برونز امتدت اليها يد صانعة ماهرة . اما المنازل فقد كانت اكواخاً من الطين والقش تنتشر في كل مكان . وسوقها الذي كانوا يتوقعون فيـــه الغنى الوافر لم يكن يحوي غير قليل من الخضروات كالبامية والما خية . والحوانيت قليـلة خاوية . ووجدوا ان الناس لا يملكون ذهباً كما توهمـو ، ولكن شاهدوا قصراً للسلطان من ستة طوابق هدمته أيدي المعتدين من المناطق المجاورة عندما ضعف سلطان الفونج وهاجمهم سكان الجبال الشرقية .

وانتهز اليونانيون الذين قدموا في ركاب الجيش الفاتح فرصة خلو المدينة من المقاهي والمطاعم ، وسرعان ما فتحوا فيها هذه الاماكن للبيع للجنود والضباط والاهالي . وكانت تلك اول مقاه ومطاعم عرفتها الديار السودانية .

اما السودانيون فقد كانوا في حيرة من امرهم لا يعرفون لماذا جاء الاتراك الى بلادهم ، وكانوا يعاملونهم معاملة المضيف لضيفه ، بينما كان الاتراك في حيرة من الامر لا يكادون يصدقون انه يمكن الاطمئنان الى الوطنيين . وكانوا يخشون ان يكون السودانيون يبيتون لهم الغدر في يوم من الايام اذ لا يعقل ان يسلم شعب وطنه دون مقاومة كما فعل السودانيون . ولم يلبث السودانيون ان وجـدوا ما

يؤجج في نفوسهم روح الكفاح القومي وذلك بسبب الادارة الجديدة التي فرضها حكام مصر على البلاد السودانية في سبيل تحقيق احلام محمد علي .

البحث عن الرقيق والذهب :

كان والي مصر يعرف ان ابنه اسماعيل غير قدير على ادارة السودان كما أنه غير خبير بالحروب وما أرسله الى السودان الا في رحلة تدريبية . وعندما تم فتح سنار رأى محمد علي ان من الاصوب ارسال ابنه ابراهيم باشا ليكون مسؤولاً عن ارساء القواعد الادارية الصحيحة في البلاد ، وليقوم بتصدير أكبر عدد من الرقيق من أعالي النيل الأبيض لمصر ، وكان وصوله لاسماعيل في ٢٢ اكتوبر ١٨٢١ .

انتهت اولى هجمات اسماعيل بالقبض على جماعة من السود اتضح فيما بعد أنهم مسلمون مات منهم من مات وأطلق اسماعيل الباقين ليعودوا الى ديارهم .

أرسل ابراهيم باشا الى أعالي النيل من يصطاد بعض السود ليرسلهم رقيقاً الى والده بمصر ليكون منهم جيشه للنظام الجديد الذي كان محمد علي ينوي اقامته في مصر . وقد أوضح محمد علي لابراهيم انه لن يرسل له امدادات من الجند الا بشرط ، وهو انه في نظير كل ٣٠٠٠ من الأرقاء سيرسل له ١٠٠٠ جندي[١] ، أما الاطفال والنساء فقد رؤي أن يباعوا في الحجاز ويشترى بثمنهم أرزاً وطعاماً للجيوش التركية المصرية بالسودان ولم تثمر غزوات ابراهيم في أرض قبائل الدينكا بجنوبي السودان عن اكثر من ٦٠٠ اسير لكي يرسلوا للقاهرة . ولم يطل المقام بابراهيم اذ سرعان ما أصيب بمرض جعله يسرع في العودة الى مصر مخلفاً كل المسؤوليات لأخيه اسماعيل .

---

(١) رتشارد هل : ص ١١

أما اسماعيل فانه اراد ان يظهر همة ونشاطاً في سبيل تحقيق أغراض والده، فترك امر تقدير الضرائب وجمعها للمعلم حنا الطويل وقد أظهر شدة في وضع الضرائب على السودانيين حتى أثقل كاهلهم . وكان يعاونه في تقدير الضرائب احد الموظفين المصريين ويدعى ديوان افندي، ومعهم الأرباب دفع الله ولد حمد وهو السوداني الذي تقدم مع سلطان الفونج للتسليم لاسماعيل باشا . وكان ظاهراً ان رأيه لم يكن يعطى اي اعتبار . اما اسماعيل فانه سار ببعض جنده الى شرقي سنار يود اخضاع الاراضي الواقعة على حدود فازوغلي حيث علم بأن الذهب كثير وكان أول ما قام به في سبيل تهديد الناس ان قتل اولئك الذين اغتالوا الوزير محمد ود عدلان فنفذ في اثنين منهم حكم الاعدام بطريقة وحشية ، وقبض على حسن ود رجب ثم اطلقه بعد ذلك . ولكن اعدامه الوحشي أثار كثيراً من الاشمئزاز في النفوس .

وبينما هو غائب على حدود الحبشة في جبال فازوغلي التي دانت له في يناير سنة ١٨٢٢ ، ترامت الشائعات في جهات كثيرة من السودان – من سنار الى بربر – بان اسماعيل لاقى حتفه في تلك الجبال . ثم بدأت حركات المقاومة تظهر الى السطح ، فأخذ السودانيون يهجمون ليلاً على الجنود ويقتلونهم .وصار بعضهم يهاجم قوافل الرقيق التي كان يصدرها الجيش عبر البلاد الى مصر حتى اصبح الامن مهدداً بشكل ملحوظ .

الضرائب والثورات :

وكان المعلم حنا الطويل في هذا الوقت قد وضع اسساً في الضرائب لا تتفق وإمكانيات السودانيين المادية الذين رأوا فيها ظلماً واجحافاً لم يعهدوه من قبل ، فكان الرأس من الرقيق يبلغ ثمنه ما يعادل اربعة جنيهات ومع ذلك فقد كان على كل مالك لواحد ان يدفع نصف هذا المبلغ سنوياً ضريبة . وهكذا كان

الشأن في المواشي والضأن والماعز والزرع إذ كانت الضريبة نصف قيمة الممتلكات تقريباً .

سمع اسماعيل بما كان يجري خلفه فعاد الى سنار التي وجدها تعج بحمى فتكت برجاله فتكاً ذريعاً ، فرحل منها شمالا الى ود مدني . وفي هذا الوقت استمرت الثورات بدون قيادة ضد الغاصبين ، فثار الكبابيش حلفاؤه بالامس في غرب السودان ، وكذلك الحسانية على النيل الابيض ، والبشاريون في شرق السودان الشمالي ، والشكرية في أرض البطانة وذلك في فبراير عام ١٨٢٢ .

أما الملك نمر – ملك الجعليين – وملك الحلفايا الشيخ ناصر ومن معهم فقد بدأوا يثيرون المتاعب للجيش الفاتح. وأخذوا يهاجمون مراكزه في حركات سرية غير منتظمة .

علم محمد علي ببعض هذه الاخبار فأمر محو بك مدير بربر وبلاد الجعليين بان يهاجم كل القبائل التي لا تبدي خضوعاً لسلطانه ، وخرج اسماعيل بعساكره من مدني الى أرض الجزيرة والى الشمال لكي يجعل حداً للازمات والاضطرابات التي سادت البلاد . وكان محو بك في هذا الوقت (فبراير ١٨٢٢) قد اظهر قوته للجعليين واستولى على ٥٠٠٠٠ ريال دفعوها مرغمين . وبدا ان الاضطرابات قد انتهت في البلاد اذ وعد اسماعيل بالنظر في موضوع الضرائب . ولكن نظرته كانت اقسى من تقدير حنا الطويل اذ انه زاد ضرائب ارض الجزيرة من ٣٥٠٠٠ ريال الى ٥٠٠٠٠ ريال[١] وهنا علم السودانيون أن الثقة في حكامهم الاتراك ستعود عليهم بالوبال ، وصاروا ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض عليهم .

---

(١) ريتشارد هل : مصر في السودان .

مقتل اسماعيل :

لما هدأت الامور في اكتوبر ١٨٢٢ طلب اسماعيل من والده ان يسمح له بالعودة الى القاهرة بعد انتصاراته الباهرة، واخيراً سمح له والده بذلك . فخرج في حوالي المائة من عسكره نحو الشمال وقد صمم على ان يلقن الملك نمر درساً لا ينساه في وجوب الخضوع الى السلطة الجديدة .

وصل اسماعيل الى شندي في ديسمبر ١٨٢٢ ، وأمر الملك نمر والملك مساعد وهما ملكا الجعليين بالشخوص أمامه . وكان صدر اسماعيل موغراً نحو نمر منذ ان جاء للفتح ، وكان لا يثق فيه وفي خضوعه لمصر . فلما جاء الملك نمر أمام الباشا أخذ اسماعيل يؤنبه ويتهمه انه هو رأس القلاقل والاضطرابات ؛ وانه مسؤول عن كل هجوم حدث على القوافل المصرية التي عبرت اراضي الجعليين، وانه لذلك يأمر الملك نمر بأن يدفع غرامة فادحة الغرض منها تعجيزه وتحقيره اذ طلب منه ألف أقة من الذهب وألفي عبد ذكر ، وأربعة آلاف من النساء والأطفال ، وألف جمل ومثلها من البقر والضأن وغير ذلك[1] .

فذكر الملك نمر بأن هذا من المستحيل ، وهنا انتفض اسماعيل هائجاً ، وضرب الملك نمر أمام الحاضرين بغليونه التركي في اساءة بالغة ، وأمسك نمر بقائم سيفه محاولا ضرب الباشا ولكن الملك مساعد الجعلي أمسكه وتحدث باللهجة الهدندوية[2] مع الملك نمر . فسرعان ما أبدى الملك نمر خضوعه وانصياعه لأمر الباشا الشاب[3] . ولكي يظهر خضوعه التام دعا اسماعيل باشا لضيافته في تلك الليلة ، وأخذ ينحر له الضأن ، وهيأ له ولحرسه الشراب ، وأمعن في خدمته والاهتمام براحته . وفي هذه الاثناء كان الجعليون يطوقون مكان الحفل بالقش

---

(١) تختلف الروايات في العدد وتتفق في استحالة الطلب .

(٢) لغة البحر الاحمر ويستعملها التجار بحكم اتصالهم بسواكن وعبورهم لأرض البجة .

(٣) هوسكنز : رحلات في اثيوبيا (لندن ١٨٣٥) .

والقصب من كل مكان ذاكرين بأن مطالب الباشا من الحيوانات وغيرها ستصل صباح الغد وستجد طعامها من القش والقصب. وسر اسماعيل لأنه كان يحلم بأنه سيذهب بهدايا قيمة لوالده من ذهب وعبيد وماشية وغير ذلك. وقبيل ارفضاض الاحتفال أطلق الجعليون النار في القش الذي كان يطوق اسماعيل ورجاله، فماتوا خنقاً وحرقاً، وبذلك تخلص الملك نمر من اسماعيل كما تخلص منه جميع السودانيين، واندلعت الثورة في كل مكان.

نتائج مقتل اسماعيل :

جابهت الحاميات المصرية التركية هجمات في كل مكان، واضطرت الى الانسحاب من المتمة وكرري وحلفاية الملوك والعيلفون. أما حامية ود مدني فقد كانت قوية واستطاعت ان تمنع اي هجوم عليها وذلك بقيادة محمد سعيد افندي وكيل اسماعيل. وكان الخطر الذي يواجه محمد سعيد افندي في ود مدني والجزيرة ناجماً عن نشاط الارباب دفع الله ضد الحكومة الجديدة لأنه أخذ يؤلب سكان أرض الجزيرة على الحكام ويجمعهم حوله. ويبدو انه كان مختلفاً منذ البداية مع واضعي الضرائب المعلم حنا وديوان افندي، فلما لم يجد اذناً صاغية أسرها في نفسه حتى وجد الفرصة سانحة فثار. ومما يدل على احساس السودانيين بوجوب توحيد الصفوف أن حسن ود رجب وهو من اعداء الارباب دفع الله ايام سلطنة الفونج اجتمع بالارباب واتحدا سوياً. لكن جيوش محمد سعيد لم تترك لهم مجالاً لجمع الكثير من الرجال اذ هاجمتهم مرتين وتمكنت من القضاء على الحركة قبل استفحالها في ارض الجزيرة.

وبمقتل اسماعيل اصبح الدفتردار حاكماً عسكرياً على كل من كردفان وسنار. وهو المنصب الذي أخلاه اسماعيل. وكان على الدفتردار ان يسير بجزء من جيشه لكي يعيد اخضاع القبائل السودانية الثائرة. وقبل ان يصل الى مكان الثورات

بدأ محو بك مدير بربر في محاولات عديدة لاخضاع شوكة الجعليين وفك حصارهم الذي ضربوه على بربر ، فتغلب عليهم وأخذ ممن خضعوا له ما وجد عندهم من اموال . وتقهقرَ الملك نمر ومن كان معه متوغلين في سهول البطانة ينتظرون غفلة اعدائهم ليكروا عليهم مرة ثانية .

تأخر وصول الدفتردار الى اراضي النيل حتى اواخر عام ١٨٢٣ حين ظهر بجيشه في المتمة عاصمة الجعليين الاولى ، بعد ان قتل الكثيرين من قبائل الحسانية قبل وصوله اليها . هناك قابله بقية الجعليين وهم ينتظرون مصيرهم المشئوم . وتقدم احد الفدائيين وهجم برمحه على الدفتردار وهو بين عسكره يريد ان يقتله. وقبل ان يصل الى الدفتردار ضربه الجند بالرصاص فخر قتيلاً . ثم امر الدفتردار رجاله باطلاق الرصاص على كل الجعليين حتى حصدوهم وقتل منهم ومن غيرهم ما لا يقل عن ثلاثين الفاً [١]، وأسر آخرون وأرسلوا الى مصر لكي يباعوا في سوق الرقيق بالقاهرة . لكن قناصل الدول الاوروبية شعروا بالمجازر التي يرتكبها الدفتر دار والفظائع التي قام بها فأثاروا دولهم ، وعلى اثر احتجاجاتهم اطلق محمد علي عدداً كبيراً من الاسرى وأعادهم الى السودان .

لم يكتف الدفتردار بذلك بل تابع هجومه على كل من كان يعضد حركة المقاومة القومية ضد الغاصبين ، ففتك باهل شندي ، وأحرق الدامر وقتل من وجد فيها ، وأعمل رصاص بنادقه في حلفاية الملوك والعيلفون وجزيرة توتي ومدني وهاجم القبائل البدوية في كل البقاع فلم يترك جنده الشكرية او الحسانية او الكبابيش .

غير أن القيادة لحركة المقاومة لم تتبلور بعد ، وظهر رجل ادعى المهدية [٢]،

---

(١) محمد علي مؤسس مصر لدودويل .

(٢) نفس المصدر ولكن لا يعرف اسم هذا المهدي (صفحة ٥٣) .

وجمع حوله عدداً غفيراً من النـــاس وعظم امره ، فهاجمه الدفتردار في معارك متوالية ولم يستطع هذا المهدي الصمود امام اعدائه وقد انفض من حوله بقية أتباعه بسبب الرصاص المنهمر ... وأذاع الدفتردار بين قناصل الدول الاجنبية في فبراير ١٨٢٤ بان المهدي قتل بأيدي القوات المصرية ، ولكن بعد شهرين من ذلك التاريخ ظهر هذا المهدي مرة ثانية بجموع كبيرة، ولم يستطع الدفتردار إخماد مهديته إلا بعد ان وصلت امدادات من الجيوش المصرية من القــاهرة في ابريل ١٨٢٤ ، فتمكن بمساعدة هذه الجيوش من القضاء عليه قبل ان يستفحل امره .

أما الملك نمر فانه استمر في إغاراته على الدفتردار حتى بلغت خسائر رجاله عدداً عظيماً فهاجر من السودان الى حدود الحبشة حيث خطط مدينة أسماها المتمة أسوة بعاصمة الجعليين الأولى ومكث هناك عدة سنين الى ان مات [١] .

استطاع الدفتردار برصاص بنادقه وقسوته أن يخضع بقية السودانيين الذين لم يجدوا الفرص للهرب من بلادهم الى دارفور والحبشة والأصقاع النائية من بلاد السودان التي لم تصل اليها أيدي الدفتردار. وقاسوا من بربريته ووحشيته كثيراً. ومنذ ذلك الحين ارتبط اسم التركية بالظلم والقسوة ، ولم يرضخ السودانيون الا لضعفهم العسكري والقومي .

كان من نتائج مجازر الدفتردار البربرية أن بدأت بذور القومية السودانية تزرع في النفوس ، وأخذوا يشعرون بأنهم سودانيون أمام أتراك مصر ، ولذلك ربطت بين قلوب القبائل وحدة الهدف وهو الخلاص من الحكم التركي المصري ان عاجلاً او آجلاً .

---

(١) زاره الرحالة الانجليزي باركنز ونزل ضيفاً عزيزاً عليه (١٨٥٢) ، وتحدثا عن مقتل اسماعيل صفحة ٣٦٩ - المجلد الثاني طبع ١٨٥٣ .

أما في المحيط العالمي فان سمعة الحكم المصري في السودان وجدت استهجاناً عاماً من الدول الاوروبية التي رأت أن أطماع الباشا والي مصر سببت نكبات عظمى للسودانيين . وبالرغم من أن محمد علي كان يرغب في ان تساس البلاد السودانية بطرق اكثر انسانية الا ان الحكام الذين أرسلهم لم يكونوا على نفس المستوى من التفكير فأساءوا الى حكم محمد علي في السودان . وأثارت مذابح الدفتردار الرأي العام الاوروبي حيث رفعوا الى محمد علي استنكارهم لما كان يفعل الدفتردار بالسودان ، وكان ذلك أول تدخل اجنبي وخاصة من بريطانيا في امبراطورية محمد علي الذي كان يحاول بقدر ما يستطيع أن يظهر انسانية حكمه للدول الاوروبية عامة والانجليز خاصة .

لم يمكث الدفتردار طويلاً في الحكم لأن محمد علي استدعاه حيث وصل في سنة ١٨٢٥ الى مصر وحاول الباشا بذلك ان ينهي الاضطهاد العسكري في السودان ، ويبدأ في حكمه وإدارته بطرق اكثر انسانية ، وأقوى فعالية وتنظيماً ، وبأيد اكثر خبرة من الدفتردار . فرجع صهره الى مصر . وتسلم منه ادارة البلاد عثمان بك الذي كان يماثل الدفتردار في سوء ادارته وقسوته واضطهاده لأهالي السودان ولم ينجهم من سطوته الا موته بعد ثمانية اشهر من توليته حكمدارية السودان

الادارة التركية المصرية في عهد محمد علي

١٨٢١ – ١٨٤٧

ارساء قواعد الادارة :

كانت السنوات الاولى من الفتح بين ١٨٢٠ و ١٨٢٣ حقبة أهم ما فعله في اثنائها اسماعيل والدفتردار هو اخضاع سكان البلاد وانهاء الممالك السودانية القديمة

وخاصة مملكة الفونج وسلطنة الفور . ثم كان على القائدين ان يحققا كل اغراض محمد علي من ذلك الفتح .

لم تكن هناك خطة موضوعة لادارة البلاد في ذلك الوقت ولكنها وضعت تحت حكم عسكري كان قاسياً في مناطق حكم اسماعيل ، وأشد قسوة في كردفان حيث كان الدفتردار حتى قتل اسماعيل في شندي ، فرحل الدفتردار من كردفان وقد اصبح هو (سر عسكر) القائد الاعلى للقوات في السودان وحاكم البلاد المطلق .

أبقى اسماعيل إدارة الديار السودانية في كثير من الأحوال على ما وجدها عليه فالمكوك استمروا زعماء لقبائلهم ولكن سلطاتهم تقلصت الى حد بعيد ، وأصبحوا موظفين للحكومة الجديدة يسألون عما يدبر رجال قبائلهم من مؤامرات ، ويساعدون في جمع الضرائب . وبدلا من أن يكونوا حكاماً على قبائلهم أضحوا رقباء تستخدمهم الحكومة الجديدة . ولكي تحقق الادارة الجديدة الأمن في البلاد وضعت قوات عسكرية في بعض المدن مثل دنقلا وبربر وشندي ومدني وسنار وبذلك كانت تؤمن خطوط المواصلات مع القاهرة ؛ كما أنها كانت تؤكد بقاء القبائل موالية للحكومة . ومن الجلي أن الاسلحة النارية هي اهم العوامل التي ركزت دعامة هذا الحكم وحرمت على الوطنيين .

في الشهور الاخيرة من حكم الدفتردار كانت البلاد مستكينة بعد ان ضعضعتها الحوادث ، وبدأ محمد علي في تغيير خطة الحكم فاستدعى الدفتردار الى القاهرة في اوائل عام ١٨٢٤ وهناك لاقى حتفه ، واشيع بأن محمد علي كان سبباً في اغتياله بالسم .

ومنذ بداية الفتح كان ظاهراً أن أهم ما يريده محمد علي هو الذهب والرقيق والضرائب . ووضع المعلم حنا الضرائب على كل قبيلة وكل مدينة وقرية وساقية

وفرد ، وبالرغم من ان اسماعيل اكتشف أنها جائرة إلا انه لم ينقص منها شيئاً بل زاد في بعضها وبدىء في جمعها عام ١٨٢٢ حين بدأ السودانيون يشعرون بثقل وطأتها .

لم تكن الضرائب هي المشكلة الوحيدة بل ان طريقة جمع الضرائب كان لها اثر اسوأ ، فمنذ بدء الفتح لم يستلم الجنود مرتباتهم لمدة ثمانية اشهر[١] ، وكان معنى هذا أن عليهم أن يجدوا لأنفسهم الطريقة التي بها يستطيعون ان يحصلوا على نقود لشراء متطلبات الحياة . لذلك فانهم عاثوا في البلاد ظلماً وتجنياً لكي تمتلىء جيوبهم وعيونهم .

تطور الادارة

تقسيم السودان الى مديريات :

لم يضع محمد علي خطة جاهزة او نظاماً للادارة في البلاد المفتوحة ، ولذلك فان اسماعيل لم يضع أي اسس او تقسيم للبلاد في الفترة التي عاشها في السودان . ولما أصبح الدفتردار حاكماً على كل الانحاء المفتوحة جعل همه الاول إبادة كل الحركات التحررية ، واخضاع البلاد بقوة البارود . كذلك لم يكن السودان بحدوده المعروفة الآن قد سقط في يد محمد علي دفعة واحدة ، ولكن اجزاء منه هي التي كانت تحت حكمه .

لكن باستقرار الاحوال في السودان قسم محمد علي البلاد على النظام الاداري التركي الى مديريات بلغ عددها فيما بعد ست مديريات هي دنقلا وبربر والخرطوم

---

(١) المجلس .

وسنار وفازوغلي وكردفان ثم ضمت مديرية التاكا في شرق السودان بعد عام ١٨٤٠ فأصبحت المديرية السابعة .

عين محمد علي حاكماً على السودان اطلق عليه في سنة ١٨٣٤ الحكمدار وكان يتمتع بالباشوية . وأعطيت له السلطات العليا الادارية والتشريعية والتنفيذية والعسكرية . لكن محمد علي اضطر بعد عام ١٨٤٣ أن يغير نظام الحكمدارية وما لها من سلطات مطلقة في السودان بسبب التخوف الذي اعتراه من الحكمدار احمد باشا شركس المشهور في السودان بأحمد باشا ابو ودان . فقد كان احمد باشا طموحاً ، وأراد أن يسلخ السودان من محمد علي ويستقل به عن طريق فرمان من الباب العالي في القسطنطينية . وكانت هناك شائعات بانه بدأت المشاورات بينه وبين الوزراء العثمانيين الذين قيل بانهم حصلوا منه على مبالغ كبيرة في سبيل تحقيق اطماعه . وكتب القناصل الاوروبيون في السودان رسائل وتقارير تصف نشاط هذا الباشا الطموح .

عند ذاك رأى محمد علي أن الخلاص من احمد باشا ابو ودان اصبح لازماً ، فكتب اليه يستدعيه الى القاهرة . وظل هذا يسوّف الرحيل حتى قرر محمد علي ان يذهب شخصياً الى السودان لاحضاره . ولم يشعر محمد علي بالاطمئنان إلا بعد ان حدثت فجأة وفاة احمد باشا في الخرطوم في ٦ اكتوبر ١٨٤٣ ، ثم اشيع بعد ذلك أن زوجته ابنة محمد علي دست له السم وقتلته بايعاز من والدها . لكن محمد علي نفى بان تكون له أية علاقة بموت الحكمدار المفاجيء .

ومنذ ذلك الوقت ألغى محمد علي منصب الحكمدارية خوفاً من أمثال ابو ودان واستبدله بمنصب « منظم » في السودان . ولم يجعل المنظم يتمتع بأية سلطات على بقية المديرين في السودان . وكان اول منظم في السودان هو احمد المنكلي باشا ، الا أن منصبه كان ضعيفاً جداً لأن المديرين كانوا يتصلون بالقاهرة مباشرة دون الرجوع اليه ، واستغلوا عدم وجود رئيس قريب منهم فأخذوا يديرون البلاد كما

حلا لهم . وبعد إطلاع محمد علي باشا على هذه الحقائق رأى أن لا بد من إعادة منصب الحكمدارية الى السودان ، ولكن بعد ان يضع الحكمدار تحت مراقبة دقيقة . لذلك فقد كان يختار لهذا المنصب شخصيات يعرف ضعفها واستكانتها وعدم طموحها حتى لا يتكرر الموقف الذي اتخذه احمد باشا ابو ودان الذي هدد كيان امبراطوريته .

هذا ما كان من أمر منصب الحكمدارية ، ثم يلي ذلك المنصب في الأهمية وظائف المديرين اذ كان يعين على كل مديرية مدير من رتبة قائمقام ويكون مسؤولاً عن إدارة مديريته من جميع النواحي كما أنه يمثل السلطات العليا فيها . وفي كل مديرية قاض ليحكم بين الناس على قلة ، وعلى الاهالي بايعاز من الادارة على كثرة ، وينفذ المدير قرار المحكمة . بيد أن كثيراً ما كان المدير يأخذ الامور بيده فيقضي شخصياً في كل ما يريد دون ان يعطي مجالاً للقاضي بالتدخل .

وقسمت كل مديرية الى عدة مراكز يشرف على كل مركز كاشف وهو ضابط برتبة يوزباشي ، وله سلطات واسعة على مركزه يستقيها من المدير . فكانت مديرية كردفان مثلا مقسمة الى خمسة مراكز ، ولكل كاشف معاونون من مشايخ القبائل او المدن أو القرى . وهؤلاء تحت اشرافه لكي يبلغوا كل ما يجب ، وهم أنفسهم تحت رقابة دقيقة . ولا يستطيع هؤلاء المشايخ ان يتهربوا من مسؤوليتهم ، أو محاولة الاعتراض على أوامر الكاشف ، والا نالهم العذاب . ووصفهم الرحالة الانجليزي هوسكنز (١٨٣٥) بأنهم كانوا في حالة رعب من سيطرة الكاشف وان سلطتهم على قبائلهم تقلصت حتى تلاشت وأصبحوا في منتهى الخضوع الى ذلك العهد الاداري . وكان هؤلاء المشايخ بين المطرقة والسندان فهم مكروهون من رجالهم ، وغير موثوق بهم عند حكامهم وقد فقدوا هيبتهم واملاكهم وحريتهم فلا يستطيعون العمل بالتجارة او يتسلمون ضرائب لاشخاصهم رسمياً ، بل صاروا يعتمدون كل الاعتماد على القليل الذي يصلهم من الحكومة . ويضيف باثريك (١٨٦١) الرحالة الانجليزي بأن هؤلاء

المشايخ كانت تختارهم القبيلة أو القرية وتوافق الحكومة عليهم . وكان المنصب على العموم وراثياً . وحددت مسؤولية الشيخ بان يساعـد في جمع الضرائب والبحث عن الهاربين من وجه الحكومة ، والادلاء بالشهادة كلما طلبت منه الادارة ذلك .

القضـاء :

أدخل محمد علي القانون التركي في البـلاد ليحل محل التقاليد القبلية في كل الاحكام فأصبح نافذ المفعول في القضايا الجنائيـة والمدنية . وأدخلت المحاكم الشرعية أيضاً للنظر في القضايا الخاصة بالزواج والطلاق والارث بين المسلمين .

وعُين رئيساً للقضاة على كل الديار السودانية وأصبح يملأ المركزين للقضـاء والافتاء ، وله ديوان في الخرطوم حيث يساعده في النظر في القضايا احد القضاة والمفتي ومجلس من العلماء ، وكان مجلس العلماء يجتمع في القضايا الكبرى الجنائية لمساعدة رئيس القضاء في النطق بالحكم .

أما في المديريات والمراكز قد جرت العادة بان كان الحل والعقد في يد المدير الذي جعل من القاضي وغيره صورة من غير عمل . ولذلك فان أهمية القضاء في الاقاليم كانت تنحصر في فض المنازعات المدنية ، وتسجيل الارث والهبـات ، وعتق الرقيق ، وتمليك الأراضي . واستطاع المديرون بما لهم من سلطات ادارية وتنفيذية أن يقلصوا من واجبات القضاة الذين أصبحت وظائفهم عديمة الاثر في الحياة العامة .

ولما كان الاتراك العثمانيون يقضون في الشرع على المذهب الحنفي لذلـك نجد ان هذا المذهب هو المذهب الرسمي للدولة ، وبه يقضي رجال الشرع الذين كانوا يعينون من رجال هذا المذهب .

الضرائب :

اشتهرت الضرائب التركية في المسألة البلقانية في القرن التاسع عشر بأنهـا لعنة الادارة التركية. وكذلك كان الحال في السودان بعد ان تم فتحه على يد اسماعيل والدفتردار ، فقد بدأت متاعب المواطنين مع حكام الخديوية المصرية .

لم يأخذ واضعو الضرائب حالة السودانيين بعين الاعتبار ، بل كان تقديرهم لها سريعاً وبدون خبرة، كما انها لم تراع قدرة السودانيين على دفعها. لكن الحاجة كانت ماسة الى جمعها ، ومن ثم بدأت المتاعب للسودانيين. وكانت العقبة الأولى أمام الضرائب هي قلة ما بأيدي السودانيين من نقود. فالسودان في ذلك الوقت لم تكن له عملة خاصة به ، وكان يستعمل النقود الفضية الاجنبية الاوروبيـة ، وقليلاً من القطع الذهبية . وفيما عدا ذلك فقد كانت هناك المقايضة سواء بقماش الدمور السوداني ام بالذرة التي يعيش عليها الوطنيون . وبسبب قلة العملة الفضية فقد كره السودانيون ان يفارقوا اعز ما يملكون . وساءهم ان هذه الضرائب ليست مرة في العمر ولكنها كل حين وآخر ، وبدرجة منتظمة لم يعهدوها من قبل في ايام السلطنة الزرقاء .

بالاضافة الى ذلك فقد اعتبر السودانيون هذه الضرائب دلالة على استعبـاد الاتراك المصريين لهم ، وهي التي تقرر حريتهم وعبوديتهم ، ولم يروا أن ولاتهم الذين قدموا من مصر قدموا لهم شيئاً واحداً طيباً نظير ما يجبون من ضرائب . وبالرغم من أن الضرائب كانت محددة في الدفاتر الا أن ما يجمع منها والمواعيد التي تجمع فيها كانت بمثابة لغز يحير الدافعين . وذكر الرحالة التشيـكي بالمي (١٨٣٥) أنها كانت تجمع في وقت يكون فيه الناس حسبوا انفسهم قد انتهوا منها . وأساء الى الموقف أن محصلي الضرائب كانوا شرذمة كبيرة من الكتبـة الأقباط الذين ارسلهم محمد علي ليكونوا محاسبـين تصحبهم شراذم من الجنود

المصريين والاتراك والمرتزقة، فينزلون ضيوفاً غير مرغوب فيهم على القرى حيث يكون مأواهم ومأكلهم ومشربهم ورشوتهم من جيوب اهل القرية، فلا يخرجون منها الا بعد ان يستنفدوا آخر ما عند الاهلين. ويضيف أن كل هؤلاء الموظفين والجنود يعيشون عالة على المواطن المسكين الذي كان عليه ان يدفع قيمة ضيافتهم وكثيراً ما كانت اكثر من الضريبة المفروضة عليه. كما أن الضرائب تجمع مضاعفة حتى يستطيع الحكمدار ومن دونه من الاداريين ان يأخذوا نصيبهم قبل ان تصل المبالغ الى خزينة الحكومة:

اعتبر السودانيون حكامهم والموظفين والجنود عصابات للنهب صعب عليهم الخلاص منها. وزاد الطين بلة ان الطريقة التي كانت تجمع بها الضرائب كانت من الوحشية بمكان، فالتعذيب والجلد بالسياط والشتائم كلها كانت امراً عادياً عند الجنود الذين يحصلون الضرائب. وقد رأى ذلك الرحالة هوسكنز، وذكر بان السودانيين كانوا جد مستائين وخاصة من الشتائم التي كان يتفوه بها الجنود والكتبة وغيرهم. وضاق السودانيون ذرعاً بسبب رعونة الحكام وكبريائهم، ومع ذلك فهم إن اخفقوا في دفع الضرائب فان نقودهم القليلة ومحاصيلهم وأقمشتهم وأبقارهم كانت تصادر ثم تباع بأبخس الاثمان لقلة الطلب، وبعد ذلك يطالبون بدفع ما تبقى عليهم.

رأى السودانيون انه لا قبل لهم بهذه الضرائب الباهظة، وانهم طالما لا يستطيعون تغيير الأحوال بالقوة، فليغيروها بالابتعاد عن اوطانهم، ومنذ ذلك الوقت بدأت هجرات اهل القرى والمدن فراراً من الباشوية، واعتصموا بأطراف البلاد في دارفور التي لم يفتحها الباشا، وبالحدود الحبشية وبالبحر الاحمر بعيداً عن الغاصبين، وكان كل منهم يردد ما فعله احدهم باللغة العامية:

لو كان الترك حوض رملة	حوض الرملة قط ما بيروي
شن بيناتنا غير ما سروة	لي مكان ما سكن ود ثروة

ويعني هذا ان الاتراك ليسوا سوى حوض من الرمال لا يمكن ان يروى قط، وليس هناك بيننا وبين النجاة منهم حيث سكن مواطننا « ود ثروة » غير إسراء ليلة واحدة لننجو مما نحن فيه .

أصبح إسراء ود ثروة سنّة عند الكثيرين، وبدأت الهجرات بأعداد كبيرة تشق طريقها بعيداً عن ايدي حكام محمد علي. ومع ذلك فان الضرائب لم تنقص، بل اصبح الموجودون في القرى مسئولين عن دفعها كاملة وبذلك تضاعفت حتى ناء بثقلها السودانيون .

الجيش :

ذكرنا في بداية الحديث عن الفتح ان محمد علي ارسل ما يقارب ٩٠٠٠ جندي للسودان للاستيلاء على سنار وكردفان ، ولم يكن في هذا العدد من المصريين الاصليين جندي واحد . أما بعد الفتح فقد بدأ اسماعيل والدفتردار في ارسال السود الى مصر حسب طلب الوالي وذلك لتجنيدهم لاقامة جيشه على النظام الجديد . ووصل الى أصوان حوالي ٣٠٠٠٠ من السودان ، وهناك كانوا يدربون ليرسلوا الى الحجاز حيث يريد محمد علي ان يثبت حكمه . غير ان كثيراً منهم كان يموت في ذلك المعسكر لأسباب صحية ولم يبق منهم على قيد الحياة اكثر من تسعة آلاف رجل. فرأى محمد علي ان الاستفادة منهم في اجزاء امبراطوريته الاخرى لا يجدي لكثرة الوفاة بينهم ، فآثر اعادتهم الى السودان حيث أصبحوا « الجهادية » الذين يساعدون في الأمن ، وجعلهم تحت امرة ضباط من شباب المماليك .

كان السود يموتون في أسوان وكان الجند الاتراك يموتون في السودان بسبب الاحوال الصحية ، لذلك أعاد محمد علي بعضهم الى مصر . ولكنه بعد سنة ١٨٢٤ كان قد بدأ في تجنيد الفلاحين المصريين ، وأخذ في ارسالهم الى السودان

أيضاً ليكونوا القوات العسكرية فيه. ومنذ ذلك التاريخ اشترك الجندي المصري في الحكم بأراضي السودان جنباً الى جنب مع جندي محمد علي التركي .

أصبح الجيش المصري في السودان يتكون من عناصر مختلفة، فهناك الاتراك والمغاربة والمصريون، ومن السودانيين الشايقية والجهادية السود الذي جلبوا من جنوب السودان ليكونوا نواة للجيش المصري الحديث آنذاك . وتضخم عدد الجيش شيئاً فشيئاً حتى أصبح تعداده ١٦٠٠٠ جندي في سنة ١٨٤٥ . وكان من أهم أعمال هذا الجيش حفظ الامن ، وجمع الضرائب بشتى الطرق حتى أصبح محصل الضرائب والجندي شيئاً واحداً . وبمرور السنين ضعف الضبط والربط بين الجنود ، وفقدوا كثيراً من خبرتهم وتدريبهم العسكري، وصاروا جباة للضرائب في شيء كثير من الجور والعسف بالأهالي .

العاصمة :

عندما كان الفونج يحكمون البلاد كانت عاصمتهم سنار، ولذلك فان اسماعيل جعلها العاصمة أول أمره . لكن ما لبث أن وجدهـا لا تصلح لجنوده في ايام الخريف بسبب كثرة الامطار ، وسوء الحالة الصحية فيها ، ولذلك فانه انتقل شمالا الى ود مدني حيث جعلهـا مقره الرسمي . ولما جاء عثمان باشا الذي عين « سر عسكر » بدلا من الدفتردار أعجب بالمنطقة التي يقترن فيها النيل الابيض بالنيل الأزرق ، فوضع هناك عدداً من الجند وبنى قلعة لهم في ديسمبر ١٨٢٤ ، وبقي فيها متخذاً اياها عاصمة له حيث مات فيها بعد ثمانية اشهر من وصوله .

تلك هي بداية مدينة الخرطوم التي أصبحت عاصمة للسودان ، ثم بلغهـا الحكمدار علي خورشيد باشا عام ١٨٢٦ وأخذ في تحسينها وتنميتها شيئاً فشيئاً ، وبعد ان كانت قرية لصيد الاسماك أضحت مدينة يسكنها ما يقرب من ٦٠٠٠٠

في عام ١٨٤٥ . وكان نصفهم تقريباً من المصريين ومن بينهم جاليات يونانية ولبنانية وسورية وأعداد من الاوروبيين .

اهتم خورشيد باشا ايام حكمه (١٨٢٦ - ١٨٣٨) بتحسين المباني بالخرطوم. وجعل الطوب الاحمر والاخشاب في متناول السكان حتى تصبح عاصمة لائقة . وبنى جامعاً ودوراً مختلفة للحكومة ، وثكنات للجيش . وفي عهده اتسعت الخرطوم بخطوات واسعة ، ونزح اليها كثير من السكان .

اشراك السودانين في الحكم :

شهدت الخرطوم في عهـــد خورشيد نوعاً جديداً من الحكم إذ كان هذا الحكمدار على درجة عالية من حسن الادارة والتنظيم ففي أيامه أشرك السودانيين في الادارة ، وأقام المجالس المحلية في كثير من انحاء السودان ، وجعل من أحدهم وهو الشيخ عبدالقادر ود الزين مستشاره الاول في شؤون الحكم وإدارة المواطنين. وامتاز عبد القادر بسعة أفق ، وأمانة في النصح ، وشجاعة أدبية جعلته نافذ الكلمة عند الحكمدار ، فهو الذي يعرف دخائل الناس يسرون اليه ويعلنون ، ويعرف أخلاقهم وعاداتهم ، وكان أقوى حلقة اتصال بين الحاكم والمحكوم .

ورغبة من خورشيد في ان تساس البلاد بسياسة انسانية جمع مجلساً مكوناً من كبار الموظفين والضباط والاعيان ، وبعد مناقشات دارت في ذلك المجلس أرسل خورشيد خلاصة الموقف في البلاد الى محمد علي ، الذي جمع مجلساً للشورى في القاهرة كان من بين اعضائه المعلم حنا الطويل والدفتردار في عام ١٨٢٦ . وارفض الاجتماع بعد ان اعلن حنا بأن الموقف في السودان يدعو الى الحيرة ، ويصعب حل مشكلاته .

لكن خورشيد لم تفتر له همة ، وبمعاونة الشيخ عبد القادر بدأ في حل تلك

المشكلات التي تجابهه . وكانت اهم العقبات هي فرار السودانيين من اوطانهم الى تخوم الحبشـــة ودارفور والبحر الاحمر حول سواكن التي كانت تحت سيطرة العثمانيين وواليهم في جده . وكانت من آثار تلك الهجرات ان قـــل الزرع واستغلال الاراضي ، وهرب عدد من الرعاة بثروتهم الحيوانية ، وقـل السكان في القرى ، وتعذر جمع الضرائب .

لمس خورشيد هذه المشكلة وحملها الى مستشاره السوداني الشيخ عبد القادر فقدم اليه الحل المطلوب — وكانت لآرائه افضل النتائج على السودانيين وعلى الحكم المصري في السودان — فقد اشار على خورشيد بان يعفي مشايخ القبائل من الضرائب وكذلك الفقهاء ورجال الدين. فاذا اطمأن هؤلاء لنزاهة الحكم اطمأنت العامة وعادوا الى أوطانهم . كذلك اوحى اليه بان يلغي متأخرات الضرائب ، وان يعطي الأمان لكبار الفارين من الزعماء ومن معهم . وسار هو شخصيـــاً كرسول من خورشيد الى بعض هؤلاء الزعماء فاتصل بادريس ود عدلان وهو من اخوان الوزير محمد ود عدلان الذي اغتيل قبيل الفتح ، وسلمه امان الباشا ، وصحبه معه الى خورشيد فأمنه هذا على حياته ، وعينه شيخـــاً على الفونج . وذهب الشيخ عبد القادر موفداً الى زعيم قبيلة العركيين الذين ثاروا بعد مقتل اسماعيل في ارض الجزيرة واضطروا الى الرحيل الى حدود الحبشة عندما هاجمهم المصريون في حملاتهم الانتقامية ، واستطاع ان يقنع الشيخ احمد الريح العركي بالعودة فعاد هو وافراد قبيلته من الحدود الحبشية ، واصبح الشيخ احمد من المستشارين الذين يركن خورشيد الى رأيهم .

لولا آراء الشيخ عبد القادر ومعاونته لخورشيد لتسببت ازمات في البـلاد فقد امر محمد علي ان يدخل التجنيد الاجباري على عرب السودان كما فعـل في صعيد مصر . وكان محمد علي في حاجة ماسة الى جنود وذلك لتوطيد موقفه في امبراطوريته التي كان يريد لها التوسع . ولما أطلع خورشيد الشيـخ عبد القادر علي هذا الأمر عارضه عبد القادر معارضة شديدة وأوضح له أن هذا الامر

سيسبب كثيراً من عدم الثقة والاطمئنان في نفوس السكان ، وانه سوف يحثهم على الفرار الى الحدود بعيداً عن ايدي الحكومة . وعملا بهذا الرأي الصائب امتنع خورشيد عن تنفيذ امر محمد علي وبذلك استمر الاستقرار المنشود في البلاد.

التوسع في عهد محمد علي :

باستقرار الأحوال نتيجة للسياسة الحكيمة التي سار عليها الباشا والمستشار السوداني تمكن الحكمدار من الاطمئنان الى ما وراءه بحيث بدأ سياسة جديدة للتوسع والتعدي على المناطق التي لم تطأها الأقدام المصرية . ولجأ منذ اول حكمه الى الهجوم على المناطق الجنوبية ، فقامت بينه وبين قبائل الدينكا (سنة ١٨٢٧) ، والشلك سنة ١٨٣٠ ، سلسلة من الغارات انتهت باضطرار الحكم المصري على الانسحاب من تلك المناطق دون ان يوطد حكمه فيها ، واكتفى بأعداد من الرجال لكي ينخرطوا في سلك الجندية .

اما في الحدود السودانية الحبشية فقد قامت هناك مناوشات بسبب التحالف الحبشي مع بعض القبائل السودانية اللاجئة الى هناك ، كما ان السلطات الحبشية كانت طامعة في أن تفرض الضرائب على سكان الحدود السودانيين بالرغم من انهم تحت السيادة المصرية . واستمرت هذه المناوشات عدداً من السنين لم يحرز المصريون نجاحاً ابعد من استيلائهم على منطقة القلابات ، وهي منطقة متنازع عليها . وطلب الحكمدار الامدادات من مصر ، لكن انجلترا بدأت تتخوف من توسع محمد علي باشا نحو الجنوب والشرق[1] . فان امتداد امبراطوريته في البحر الاحمر على الشاطئين الشرقي والغربي ، وزحفه للوصول الى الخليج الفارسي ، وتطويقه للحبشة أثار كثيراً من الاهتمام في بريطانيا التي كانت تنظر الى هذه

---

(١) دودويل : محمد علي مؤسس مصر الحديثة .

المناطق على انها مناطق لنفوذها وكانت التجارة رائجة بين البنيان (الهنود) وبين هذه المناطق مما جعل انجلترا تعد العدة للاستيلاء عليها مستقبلاً .

أوضحت بريطانيا للباشا مصدر قلقها من سياسته التوسعية فاضطر الى التوقف عن زحفه على الحبشة التي كانت تعتبر في القانون الدولي جزءاً من الاراضي الواقعة تحت النفوذ العثماني . لكن محمد علي لم يشأ ان يخوض حرباً مع الانجليز في ذلك الوقت فامتنع عن الزحف على الحبشة ، واصدر أوامره للحكمدار الذي خلف خورشيد وهو احمد باشا ابو ودان بعدم التوسع صوب الحبشة .

ما زالت هناك بعض الاراضي الواقعة في شرق السودان لا سيادة فعلية عليها وهي أراضي الهدندوة والحلنقا والبني عامر وما حول سواكن . وكانت هذه ملجأ لبعض الهاربين من ضرائب الحكومة فرأت الحكمدارية أن الوقت قد حان لضمها للسودان المصري ، وساعد في ذلك ان الاستعدادات الحربية اصبحت متوفرة مع توقف المناوشات المصرية الحبشية . لذلك بدأ الحكمدار أحمد باشا ابو ودان في غزو اراضي الهدندوة والحلنقا وهي التي كانت تسمى التاكا . وكان لذلك الهجوم سببان أولهما توسيع رقعة السودان والثانية جلب ضرائب جديدة من اراضي البجة وخاصة ماشيتهم وإبلهم .

بدأ الهجوم على البجة في سنة ١٨٤٠ ، وشهدت اراضي القاش مواقع حامية بين الهدندوة والجيش المصري انتهت بخسائر من الطرفين لكن فعل الرصاص كان اقوى من فعل سيوف الهدندوة ورماحهم ، ولم يجد زعيم الهدندوة محمد دين بداً من الاستسلام آخر الامر وهو ينوي ان ينقض على الغاصبين في اول فرصة . وطلب منه ابو ودان أن يدفع ضرائب ثقيلة ، فاعتذر فأمسكه رهينة لديه حتى لا تتكرر هجمات الهدندوة على جنوده . لكن ذلك لم يثنهم عن الخروج عليه والاستمرار في مهاجمته حتى اضطر الى أن يعقد معهم صلحاً مكتفياً منهم بضرائب اسمية ، وعاد آخر الامر الى الخرطوم يحمل معه محمد دين حيث

توفي هناك . وجعل ابو ودان حامية مصرية في منطقة كسلا وبذلك تمكن من السيطرة على كل من قبائل الهدندوة والحلنقا .

عرف محمد علي أن شرق السودان لا يمكن أن يخضع لسلطانه الا اذا امتد الى الميناءين اللتين على البحر الاحمر وهما سواكن ومصوع . لذلك دأب على الحصول عليهما من السلطان التركي. وتكللت مساعيه بالنجاح في عام ١٨٤٣ حين استأجر سواكن من السلطان . وفي سنة ١٨٤٦ تم استئجار مصوع ايضاً على ان يدفع الأجرة سنوياً وتكون قابلة للتجديد كل سنة .

أما سواكن فانها وضعت الجزء الاكبر من القبائل البجاوية بتجارتها وأملاكها تحت سلطان خديوي مصر ، وطوقت مصوع قبائل بني عامر البجاوية التي تسكن على سواحل البحر الاحمر وبذلك انقطع امل الفارين من ضرائب الحكمدارية الى تلك الأصقاع .

كذلك استطاع الخديوي ان يسيطر على كل تجارة الحبشة التي كانت تجد منفذاً عن طريق مصوع في وقت كان الانجليز يريدون فيه السيطرة عليه . واهتمت الحكومة الانجليزية بهذا الاستئجار اكبر اهتمام ، وحاولت الاعتراض عليه ، ولكن دون جدوى اذ وافق الباب العالي التركي عليه .

من الجدير بالذكر أن احمد باشا ابو ودان هو الذي سعى الى ضم هذين الثغرين الى حكمدارية السودان ، ولعل هذا كان جزءاً من طموحه باستقلال السودان بعد اعطائه موانيء تجعله يستغني عن طريق النيل ، فيتخذ من سواكن ميناء كالاسكندرية تكون نافذة الاتصال بينه وبين العالم الخارجي للتبادل التجاري .

بقيت دارفور بعيدة عن متناول الخديوي ولكنه كان دائم التفكير في الاستيلاء عليها عندما يجد الفرصة ولذلك فقد فرض على تجارتها حصاراً ومنع

الاتجار معها في الاسلحة النارية ، وبالرغم من محاولات سلطان دارفور الحصول على البنادق فان ذلك كان متعذراً عليه حتى سقوط سلطنته في تاريخ لاحق .

نظرة عامة الى عهد محمد علي باشا
١٨٢١ - ١٨٤٩

الحكام على السودان في هذه الفترة :

الامير اسماعيل محمد علي باشا	١٨٢١ - ١٨٢٢
محمد بك الدفتردار	١٨٢٢ - ١٨٢٤ [١]
عثمان جركس	١٨٢٤ - ١٨٢٥
محو بك	١٨٢٥ - ١٨٢٦
الحكمدار : علي خورشيد	١٨٢٦ - ١٨٣٨
الحكمدار : احمد باشا ابو ودان	١٨٣٨ - ١٨٤٣
المنظم : احمد باشا المنكلي	١٨٤٣ - ١٨٤٥
الحكمدار : خالد باشا	١٨٤٥ - ١٨٤٩

بلغت فترة حكم محمدعلي باشا على السودان ٢٩ عاماً كان في خلالها يهتم بكل صغيرة وكبيرة في البلاد تدفعه لذلك عدة دوافع . فكان حريصاً على أن يجد اقصى ما يريد من ثروات البلاد ـ في الرجال والزراعة ، والحيوان ، والمعادن ؛ ثم أخذ يفكر في رفاهية السودانيين. وكانت هذه الفترة حافلة بالاعمال التقدمية ،

---

(١) وصل الدفتردار الى مصر في أوائل عام ١٨٢٥ وذلك بسبب انهماكه في حروبه مع الملك نمر وبقية القبائل السودانية الثائرة وكذلك لطول الطريق بين السودان والقاهرة .

كما كانت تطفح بالظروف العصيبة والمشكلات الضخمة .

من محاسن إدارة الباشا أنه أعطى السودانيين حكومة مركزية موحدة قوية بسطت سلطتها وقانونها على مساحة شاسعة من البـــلاد ، وهي وإن لم تكن حكومة مستبدة عادلة إلا أنها وضعت الاسس الاولى لتوحيد السودان من الناحيـــة القومية والادارية والمالية والقانونية ، فقوضت بذلك أركان الممالك الصغيرة التي كانت تقسم البلاد وتضعفها ، ووضعت نظماً احدث على كل حال مما كانت عليه السلطنة الزرقاء . وباخضاع القبائل السودانية الى حكومته استطاع محمد علي ان يقضي كذلـــك على الحروب الاهلية التي كانت تقوم بين كل قبيلة واخرى بل بين البيوت المختلفة في القبيلة الواحدة .

ولئن كان محمد علي قد أزال الفوارق القبلية ، ومنع تلك الحروب الصغيرة الا انه أباد من السودانيين في عامين على يد الدفتردار أضعاف مـــا كان يقتل في الحروب الاهليـــة. وهو وان أعطى البـــلاد وحدة في الادارة الا ان تعسف الاداريين الذين عينهم سبب في تشريد آلاف العائـــلات من مناطق زراعتهم وسكناهم . وبدلاً من ان تنتج الارض اجدبت فنتج من هجرها نقص في المواد الغذائية في البلاد بأسرها كما تسبب في هبوط مستوى المعيشة .

حاول محمدعلي ان ينمي الزراعة فشجع زراعة النيلة في غرب السودان حتى أجبر الاهلين على زراعتها دون زراعة الذرة . وأدخل زراعة الفاكهة كالعنب والليمون ، كما أدخل عشرات من الاكباش لتهجين النسل السوداني ، وفكر في زراعة الافيون في البلاد ، وأمر بارسال مائة زارع مصري الى السودان لتعليم الأهالي الزراعة والري على الطريقة المصرية ، وتساءل كثيراً عن الفول السوداني وحاول جلبه وزراعته في مصر ، كذلك اعجب بثوب الدمور السوداني الذي رأى حنا الطويل يتدثر به فسأل عن مصدره ، وعرف انه من القطن الذي يزرع في السودان، فأمر بارسال بذرته التي أصبحت فيما بعد ام القطن المصري الطويل

النيلة . وأظهر كذلك شغفاً بالضأن السوداني وأمر بأن ترسل منه ٢٥٠٠٠ رأس دفعة واحدة ، ولولا حسن تصرف خورشيد لهرب اصحاب القطعان بكل ثروتهم الى خارج البلاد حتى تصبح فقيرة في ثروتها الحيوانية ، اذ انه نصح الباشا بألا يشتط في طلباته والا تدهور الموقف .

إن اهتمام محمد علي بالسودان جعله يذهب لزيارته في شتاء ١٨٧٨ — ١٨٣٩ حيث وصل الى الخرطوم ، والتقى بكثير من زعماء البلاد ، وحثهم على العمل المتواصل قائلاً لهم : « إنكم ان اتبعتم ما يفعله الآخرون فسوف ترفعون من المستوى الذي أنتم فيه الى مستوى الأقطار الأخرى» . وود كثير من السودانيين ان يرسلهم الباشا الى مصر حتى يتلقوا من علمها وفنها . وكانت زيارته لمعرفة ثروات البلاد خاصة المعدنية ، ولكن ظهر له ان الذهب الذي سمع عنه لم يكن بتلك الكثرة ، ولذلك انصرف إلى تطوير وسائل الانتاج الاخرى .

لكن محاولاته لتحسين الزراعة ، وتربية الضأن وغير ذلك كانت محدودة الفائدة إذ ماذا يمكن ان يفعل مائة زارع مصري وحفنة من الاكباش في بلد كانت المواصلات فيه عسيرة والمسافات شاسعة . ولم يحدث ان اشتغل الاهالي بالتجارة في المحاصيل التي زرعوها أو باعوا ما لقح من ضأن ، بل ان اكثر التجارة كانت محتكرة في يد الحكومة . ويصف الرحالة هوسكنز (١٨٣٥) الموقف « بأن الباشا يأمر السودانيين بزراعة ما يريد ويجبرهم على أن يقبلوا الثمن الذي يدفعه لهم ، فهو المشتري الوحيد لكل غلالهم ، من حبوب وقطن ونيلة وصمغ وريش نعام وغير ذلك ، ولم يترك لهم إلا الرقيق ليتجروا فيه » .

وبنظرة إلى عدد السواقي التي كانت تدار على النيل للزراعة قبل محمد علي وبعد استيلائه على السودان يظهر الفرق الكبير ،فقد كان في مديرية دنقلا وحدها ٥٩٠٠ ساقية توقفت منها ٢٥٦٢ ساقية خوفاً من بطش واستبداد الادارة المصرية التركية ؛ وهروباً من الضرائب التي وضعت عليها ، وحدث المثل تقريباً في كل

الاراضي التي على النيل ، لذلك نجد ان هذا اثر تأثيراً سيئاً على الحياة الغذائيـة في السودان إذ نقصت الاغذية بمقدار النصف،وهجرت الارض الزراعية لتغطيها الصحراء . أما الزراع المصريون فقد كانوا يزرعون في منازل الحكام المصريين حيث زرعت الفواكه من عنب وليمون، ولم يتركوا أثراً في الزراعة السودانية.

راجت في ايام محمد علي تجارة الرقيق اذ دخلت الاسلحة النارية بيد الجيش التركي المصري وبفعل الرصاص حمل الكثير من الرقيق الى مصر ليكونوا جيش محمد علي الجديد.

اما الاداريون الاتراك ومن عاونهم من المصريين فقد كانوا آفة الادارة في السودان اذ كان شغلهم الشاغل الاثراء عن طريق الرشوة ، وابتزاز الاموال من السكان ، واحتكار بعض التجارة لأنفسهم ، والاختلاس احياناً وذلك قبل ان ينقلوا او يعادوا الى مصر . ولبعدهم عن القاهرة كانوا آمنين من اعين محمد علي ، وبذلك أدخلوا الفساد في الحكم الى بلاد لم تعرف عن ذلك شيئاً من قبل بسبب بدائية نظامها الاداري السابق الذي لم يعرف الضرائب أو احتكار التجارة .

كان لغزو محمد علي باشا للسودان أثر كبير للنواحي العلمية ، اذ بـدأت الرحلات الجغرافية والاستطلاعية الاستعمارية تجد طريقها الى البلاد السودانية ، وكانت من أولى الرحلات الجغرافية محاولة سليمان كاشف وسليم قبطان اكتشاف منابع النيل ، وكانا مصريين وهما أول من حـاول ذلك ونشرت رحلتهما في الجمعية الجغرافية الفرنسية سنة ١٨٤٢[١] . وقـام كذلك آخرون منهم بالمي التشيكي (١٨٣٧) وهوسكنز الانجليزي (١٨٣٥) . أما كايو الفرنسي فقد ذهب في صحبة الجيش الغازي عام ١٨٢١ ، ويعتبر كتابه بعنوان « رحلة الى مروى » من أهم ما كتب عن تاريخ السودان وآثاره .

---

(١) العرب تاريخهم بين الوحدة والفرقة لمحمود كامل المحامي .

٣

من الخديوي عبـاس (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤)

الى الخديوي محمد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣)

تربع عبـــاس باشا على عرش الخديوية في سنة ١٨٤٨ ، وقد بلغت الحالة في السودان حداً بعيداً من سوء الادارة ، وفساد الحكم . وكان الحكمدار خالد باشا قد جعل من منصبه أداة للغنى ، ولم يكفه مــا كان يأخذ من رشوة أو ابتزاز لأموال الناس بل امتدت يده أيضاً الى الأموال الحكومية وحول مبالغ كبيرة لمصلحته الشخصية . وفي نوفمبر من ١٨٤٩ وجد ان هذا الحكمدار قد اختلس حوالي نصف مليون جنيه مصري مما كان له اسوأ الأثر في تقدم البلاد ، كما سبب للادارة ضائقة مالية .

رأى عباس ان الحكمدارية لا يصلح لها مثل خالد باشا اليوناني الاصل ، وانه لا بد من ايجاد نوع اصلح لمنصب الحكمدار ، فاستدعى خالد باشا وأرسل بدلاً منه عبد اللطيف عسى ان يكون خيراً من سلفه ، وعرف ان من اسباب سوء الادارة اعتقاد الاداريين بأنهم في منفى ،وانهم يجب عليهم أن يغتنوا في المدة التي يقضونهـــا في السودان . وكان لهذا الشعور السائد أثره النفسي على الاداريين

المصريين والاتراك إذ يبلغ بهم الضيق مبلغاً عظيماً ، وينظرون الى السودان والسودانيين بمنظار أسود ، وليس لديهم الاستعداد للعمل من أجـل رفاهية السودانيين .

قرر عباس ان يجعل فترة الخدمة في السودان للمصريين محـددة ، فكان على الاداريين الذين يعملون في دنقلا في شمال السودان ان يمكثوا ثمانية أعوام ، وفي الخرطوم ست سنوات ، وفي كردفان اربع سنوات ، وكذلك في فازوغلي . ووضع خطة من شأنها منع أي موظف من ترك مقر عمله قبل نهاية المدة المقررة ، كما انه لم يسمح للموظف ان يبرح مقره للسفر النهائي قبل وصول خلفه . وأراد عباس من ذلك ان تكون هناك (عملية تسليم وتسلم) بين الاداريين ، وان يحاسب الخلف سلفه. وجعل الاعذار الصحية غير مقبولة الا اذا كانت مشفوعة بشهادات طبية تثبت ان الموظف لن يستكمل صحته الا اذا عولج في مصر .

أما في مجال تخفيف حدة الرشوة المنتشرة بين الاداريين والموظفين كبـارهم وصغارهم فقد حاول ان يعالج ذلك الداء بوضع موظفين برتب اعلى في الوظائف المسؤولة ، وكانت أول خطوة قام بها في ذلك هي تعيين المديرين من رتبـة الأميرالاي بعد ان كانوا في رتبة القائمقام من قبل ، وكان يظن ان الموظف المسؤول ان كان في رتبة عالية ويتناول مرتباً اعلى خفت حدة رغبته في استلام الرشاوى كما ان رتبته العظيمة وكبرياءها سوف تمنعانه من قبول الرشوة .

ولما كانت اعمال المديريات في البلاد تتداخل في بعضها احياناً ، أو تكون المديرية اكبر من أن يديرها مدير واحد فقد أخذ عبـاس ايضاً ينظم التقسيمات الادارية حسب ما اقتضته الظروف ، لذلك نجد انه فصل دنقلا وبربر وجعلهما مديريتين بدلاً من واحدة. وهذا أفاد كثيراً في أنه جعل في تلك البقعة الشاسعة الامتداد مديرين يقومان بتصريف شؤون المنطقة بدلا من واحد . ولما كانت فازوغلي وسنار مرتبطتين ببعضهما دون اتساع كبير فقد دمجهمـا في مديرية

واحدة حتى يوحد بين مشكلات السكان في تلك المنطقة .

عندما زار محمد علي السودان سنة ١٨٣٨ وجد ان البلاد في حاجة الى عدد من الكتبة والمحاسبين ولذلك فانه أمر بارسالهم من مصر ، فوصل البلاد عدد من الاقباط كانت لهم الرغبة في العمل بالسودان . وفي عهد عباس ظهر ان السودان ما زال في حاجة الى اعداد أكبر حتى يتم تنظيم الادارة الحكومية وخاصة النواحي المالية ووضع أسس صحيحة للحسابات والمراجعة المالية العامة . ونتيجة لهذه الحاجة فقد وفدت أعداد أخرى كبيرة من الاقباط للقيام بذلك العمل . وكان التعدين والبحث عن الذهب من أبرز الصعوبات التي واجهتهم ، لأنهم بعد مراجعة الصرف والدخل وجدوا ان استخراج الذهب يكلف اكثر مما ينتج ، وهذا ما جعل الخديوي عباس يأمر بابطال العمل في استخراج الذهب من السودان .

بدأ الطب الغربي الحديث يأخذ طريقه الى السودان في هذه الفترة ولو أن السودانيين أنفسهم لم يجدوا الفرصة للاستفادة منه ، ولكن وجود عدد كبير من الموظفين المصريين والاتراك ، والعسكريين والمدنيين والأجانب جعل الخديوية تقرر ادخال بعض الخدمات الطبية لموظفيها خاصة العسكريين . وشاهد السودان اول صيدلية وعدد من الأطباء في الخرطوم كانوا يسهمون في علاج الأجانب . ومع هذه الصيدلية دخلت اول مدرسة نظامية في الخرطوم سنة ١٨٥٣ وكان يشرف عليها رفاعة بك رافع الطهطاوي ، وهو من الاساتذة المصريين الذين تلقوا تعليمهم في اوروبا ، ثم ارسل الى السودان حيث اعتبر نفسه منفياً ، وضاق ذرعاً بوجوده في الخرطوم . وكان كثير الشكوى من ذلك مما جعل أثر مدرسته في البلاد مفقوداً لأن حالته النفسية لم تشجع كثيراً على الالتحاق بها كما أنها كانت لتعليم ابناء المصريين والترك الموجودين في البلاد ، وبلغ عددهم ٨٤ تلميذاً مصرياً وتركياً وكان يعاونه في التدريس محمد افندي بيومي ، وأحد عشر مدرساً ثم أقفلت المدرسة في ايام محمد سعيد باشا وأعيد اساتذتها الى القاهرة . ومما تجدر

الاشارة اليه ان عباس اقام اول مطبعة في السودان وبدت اعماله كأنهـــا تسير بنفس خطوات نابليون حين فتح مصر ولكن بصورة مصغرة .

بدأت اعداد من التجار الاوروبيين تدخل السودان ، واخـذوا في تنشيط التجارة بين السودان والدول الاخرى ، كما فتحوا المتاجر والمخازن في عـــدة اماكن من البلاد ، وكانت تقابلهم بعض الصعوبات في تجارتهم خاصة في التجارة على النيل الابيض اذ كانت تلك التجارة احتكاراً حكومياً ، وسبب ذلـــك بعض الاختلاف بين اولئك التجار والحكمدار عبد اللطيف باشا ، بل ذهبوا الى اكثر من ذلك وتقدموا بشكوى الى الخديوي يطلبون عزل عبد اللطيف من الحكمدارية لأنه كان يقيد التجارة ، ولأنه لم يطلق يدهم في ان يتجروا في كل ما يريدون ، ولأنه كان يحتكر لنفسه جزءاً كبيراً من تجارة السودان . وتجنباً لما يحدثه القناصل الاجانب ودولهم من متاعب في مصر فـــان عباس استدعى عبد اللطيف وعين بدلاً منه رستم باشا الذي اتخذ سياسة ضعيفة نحو التجـــار الاجانب ، وأطلق يدهم في البلاد ليفعلوا ما يحلو لهم حتى اصبحوا ذوي نفوذ عظيم اينما ذهبوا وخاصة في الأصقاع الجنوبية .

تبلور هذا النفوذ في المناطق الجنوبية وجبال النوبة بسبب تدفق الإرساليات التبشيرية المسيحية وذلك بمساعدة وتشجيع الكنائس الاوروبية . وكانت بداية هذه الارساليات في عهد محمد علي حين بدأ التبشير الكاثوليكي . ولكن في حوالي سنة ١٨٤٨ توقف نشاطه لعدم حصوله على سند قوي اوروبي نسبة الى عهـــد الثورات الاوروبية آنذاك الذي اضعف النشاط التبشيري في الخارج . ولكن ما أن استيقظت الكنائس الاوروبية الى ظهور افريقيا حتى بدأت توجه نشاطها الى السودان ايضاً. وكان اول من شجع على ذلك في وادي النيل الرحالة التشيكي بالمي سنة ١٨٣٧[١] حينما زار السودان وكتب كتاباً يشجع اوروبا على نشر المسيحية

(١) بالمي : رحلات في كردفان ١٨٤٤ لندن – صفحة ١٩٠ .

في السودان قبل ان ينتشر فيه الدين الاسلامي. ولكن لم يكن التبشير الاسلامي قد اتخذ شكلاً رسمياً اذ لم تدعمه الخديوية المصرية. وكانت اولى البعثات التبشيرية الارسالية النمسوية وهي اول من اتخذ طريقه في الجنوب وفي جبال النوبة، ووصلت بعثات من الرهبان والراهبات الى هناك حيث استمر نشاطهم حتى استقل السودان في الثورة المهدية فأقفلت هذه البعثات التبشيرية وتزوج السودانيون بعض الراهبات حفاظاً عليهن وأنجبن لهم.

محمد سعيد:

اعتلى محمد سعيد الأريكة الخديوية في سنة ١٨٥٤، ووجد تركة مثقلة في الادارة السودانية، كما وجد أن الخطط التي وضعها عباس لم تغير شيئاً في الموقف، ولم تقلل من مساوىء الحكم. فقرر ان يلمس المشكلة في مسرحها ويتبين اصولها وفروعها وذلك بالمسير الى السودان. وكان يعتمد في ذلك على ثقافته الغربية ورغبته الصادقة في ان يصل الى الدواء لمعالجة الداء.

سافر سعيد الى السودان في يناير سنة ١٨٥٧، والتقى بالاداريين المصريين والاتراك كما التقى بأعيان السودانيين وتحدث معهم في المشكلة السودانية ووجد أنها تتلخص في عدة مسائل اهمها أن الخديوية لم تلتفت الى السودان الالتفات الكافي، ولم تعطه الاهمية اللازمة وذلك لأن الخديوية كانت دائماً مشغولة بالاتجاه الى الشمال نحو المسائل الاوروبية والتركية، ومحاولة تقوية منصب الخديوي في مصر، وجعل الدول الاوروبية تعترف به وبأهميته حتى لا ينقض السلطان العثماني فرمانه الخاص بخديوية مصر واسنادها الى ذرية محمد علي باشا.

وبالاضافة الى ذلك فان الحكمدارية في السودان كانت تفتقر الى الحاكم الرشيد المخلص الذي يريد ان يطور السودان لا ان يبتز أموال ساكنيه. ويحتاج

ايضاً الى مديرين لهم مثل عليــا في النزاهة والعدالة حتى لا يضيقوا الخناق على الأهلين .

وكانت مضايقــات الحكام من مرتبة الجندي الى الحكمدار ترتكز اساساً على مقدار الضرائب التي تدفع ، والمتأخرات التي لم تجمع ، والطريقة التي تجمع بها ، ولذلك فقد كان من اهم الحلول التي توضع هي النظر في وضع حــل عملي لهذه المشكلة .

وبجانب هذه المشكلة كانت معضلة تجارة الرقيق تشغل باله بسبب الضغط الناشيء من الدول الاوروبية وخاصة انجلترا . ومع تجارة الرقيق كانت مسالك حرية التجارة وتحسين المواصلات وذلك للنهوض بالبلاد . وبالاضافة الى كل ذلك كان من واجبه ان يقلل من نفوذ التجــار الاجانب والاوروبيين في السودان عامة وفي الجنوب خاصة حيث كوّنوا لأنفسهم دويلات داخـل الدولة وذلك باتخاذ حراس من السود والشماليين مدججين بالبنادق ، وجعلوا لأنفسهم مناطق نفوذ تجارية يحكمون فيها كما شاءوا دون استطاعة الحكمدارية في الخرطوم ان تفعل شيئاً .

الادارة :

كان سعيد حريصاً على ان يحسن الأداة الحكومية في السودان ولذلك فانه عين اخاه الامير عبد الحليم حكمداراً على السودان سنة ١٨٥٥ بمرتب[1] قــدره عشرة آلاف جنيه سنوياً . وكان كل من الخديوي والحكمدار الجديد يريد ان يسعى في سبيل تحقيق رفاهيــة السودانيين ، واعطائهم ادارة نزيهة انسانية .

---

(١) كان الحكمدار يتناول حوالي ١١٠ جنيه شهرياً ما عدا الامير عبد الحليم .

ولكن الامير عبد الحليم لم يطل المقام في السودان بسبب انتشار مرض وبائي فقفل راجعاً الى مصر سنة ١٨٥٧ م ، ولم يرسل سعيد خلفاً له إنما فكر في ان يفعل ما فعله قبله محمد علي وذلك بإلغاء منصب الحكمدارية ، وإبطال عمل الحكومة المركزية مكتفياً بالمديرين الذين يحكمون على المديريات المختلفة. وكان الغرض من ذلك ايقاف تسلط الحكمدار على المديرين والاهالي، واعطاء مسؤوليات اكثر وأكبر للمديرين حتى يتمكنوا من النهوض بالمديريات واصدار قرارات سريعة دون اللجوء الى الحكمدار اذ يمكن ان يسبب ذلك بعض التأخير في التنفيذ . ويستطيع المدير الاتصال بالقاهرة مباشرة في اعماله ويتصل بالنظارة أي الوزارة المختصة . وكان سعيد يرمي من وراء ذلك ان يتم تطوير السودان كجزء من القطر المصرى وبإشراف مباشر من الوزارة المصرية .

اراد سعيد كذلك ان يمكّن السودانيين من الاشتراك في حكم البلاد، ولذلك فقد عمد الى ادخال الحكومات المحلية ، فأصدر اوامره بالبدء فيها ، وجعل في كل مديرية مجلساً يتفاوت عدد اعضائه بين ١٢ و ٢٩ حسب ما تقتضيه ظروف كل مديرية . وكان اعضاء هذه المجالس يقررون الطرق التي يتم بها تقدم البلاد ورفاهيتها وخاصة في شئون الضرائب .

ومع مجالس المديريات اقام سعيد مجلساً مركزياً في الخرطوم يتكون اعضاؤه من ممثلين لمجالس المديريات حيث يجتمع كلهم في العاصمة لتنسيق العمل بين المديريات السودانية .

لكن العبرة ليست بطبيعة الحال في الهيكل الاداري وانما في التنفيذ واستعداد الاعضاء لأن يتصرفوا التصرف المناسب . وبطبيعة الحال كانت هذ تجربة حديثة لا بد ان كانت اخطاؤها اكثر من صوابها بسبب قلة الخبرة لد القائمين بها . ولهذا فقد اخفقت في تأدية الغرض الذي من اجله اقيمت ، كما ا الاداريين لم يستطيعوا ان يتقبلوا الانتقادات التي كان يوجهها اعضاء المجالس واا

كانت صورة طبيعية للحكم الديمقراطي الذي وضع سعيد اول لبناتـه . وظهر زعماء من بين السودانيين في هذه الفترة منهم احمد ابو سن زعيم قبيلة الشكرية ، والفقيه ابراهيم عبد الدافع . وتصدر هذان الزعيمان حركات الاصلاح في البلاد وخاصة في الخرطوم . ولما عين اراكيـــل بك مديراً على الخرطوم سنة ١٨٥٧ اعترض السودانيون علىتعيينه لأنه غير مسلم، وطلبوا ان يولى عليهم مدير مسلم. وتقدم الزعيمان السودانيان بالاعتراض فأرسلا الى مصر حيث وضعا في سجون الاسكندرية بعض الوقت ثم اطلق سراحهما وسمح لهما بالرجوع الى السودان .

ان اعتراض السودانيين على تعيين اراكيل بك الارمني ليس بالحدث الذي يمكن تجاهله ، بل يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار اذ يدل على ان السودانين كانوا يتعصبون لدينهم ولا يقبلون ان يولي الخديوي عليهم الا المسلمين ، وهذه النزعـة الدينية لها اهميتها خاصة عند اندلاع الثورةالمهدية، كما سيظهر لنا فيسنة ١٨٨١م.

هكذا اصبحت الادارة في ايدي مديرين جشعين يعاونهم المشايخ الوطنيون الذين تبعوا المديرين في جشعهم خوفاً منهم، واخذوا يستغلون مركزهم الاداري احياناً ، كما درجوا على اقتسام ما يقع تحت ايديهم مع المديرين ، فأخفق هذا النظام اللامركزي الديمقراطي الذي أعطى السودانيـين بعض الحق في ادارة وطنهم. وشاهد سعيد هذا الفشل الذي حاق بمشروعه الانساني قبيل موته فأمر باعادة الحكمدارية ، والعودة الى النظم الادارية القديمـة اذ كانت – مع سوء نتائجها – خيراً من النظام الديمقراطي الذي لم يجد التربة الصالحة ، ولا الوقت المناسب . وعين موسى باشا حمدي حكمداراً على السودان .

الضرائب :

عندما وصل سعيد الى شمال السودان تقدم اليه اثنان من السودانيـــين بعرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب . وبدأ سعيد في تقصي الحقـــائق

الخاصة بمقدار الضرائب ، وموعد تحصيلها ، والمتأخر منها . واقتنع بأنها اكثر مما يقدر عليه الاهالي ، فجعل جماعة منهم يقدرون ما يمكن ان يدفع ، ثم بعد ذلك انقصه وجعل فئاتها محددة على ان يدفع كل صاحب ساقيـة ٢٠٠ قرش وقد كانت ٣٠٠ قرش ، ووضع عشرة قروش على كل فدان يزرع بالامطار ، أما على المواشي والضأن والماعز فقد وضعت بضعة قروش ايضاً حتى لا تثقل على كاهل اصحابها .

ولما كانت الضرائب المتأخرة قد أحدثت صعوبة كبيرة للمحصلين وللدافعين فان سعيداً امر بإلغائها كلياً على ان يبدأ في جمع الضرائب التي وضعت حديثاً . ومنع الجنود النظاميين والباشبوزق من السعي وراء جمعها وترك ذلـــك لمشايخ القرى لتسليمها لمشايخ القبائل وهؤلاء يسلمونها للمديرين . كذلك جعل تحصيلها على أقساط ثلاثة ، وسمح للمشايخ أن يأخذوا ٤٪ من المبالغ المتحصلة مكافأة لهم على قيامهم بذلك العمل كما أمر بأن يكون التحصيل دائماً بعد الفراغ من الحصاد حتى يتبين للقائمين بالأمر مدى نجاح الزراعة .

وبالرغم من هذه القواعد الانسانية التي وضعها سعيد الا ان تنفيذها كان سيئاً بسبب ما كان من اطماع المسؤولين الذين أرادوا أن يثروا على حساب دافع الضرائب .

ثم التفت سعيد الى الجيش فوجد أن الجنود أضحوا غير نظاميين ، وضعف الضبط والربط بسبب انشغالهم بجمع الضرائب، لذلك فانه اعادهم الى النظام والتدريب، وأفسح المجال للمبرزين منهم للترقي الى رتب الضباط فأصبح عدد من السودانيين يشغلون تلك الرتب، وجلب الخيل من كردفان لزيادة فرق السواري وجعل عمل الجيش الرئيسي هو المحافظة على أمن البلاد والدفاع عنها . وكانت المباني الحكومية الرئيسية ومخازن السلاح والذخيرة ، وخزائن الدوله المالية تقع تحت حراسة مشددة من الجنود، وبذلك انتظم الجيش وروعيت تقاليد الجندية.

تجارة الرقيق :

تأثر سعيد باشا كثيراً بالآراء الغربية التي كانت تنادي بتحريم تجارة الرقيق، وكان من بين الأوامر التي أصدرها في السودان سنة ١٨٥٧ منع تجارة الرقيق . لكن منع هذه التجارة لم يكن بالسهولة التي توقعها سعيد لأنها كانت في اغلب الاحيان في أيدي التجار الاوروبيين واللفانتيين. وكانوا يتمتعون بحصانات دولهم ويستحيل تنفيذ القانون عليهم . وبالاضافة الى ذلك فان اولئك التجار الأجانب كانوا قد جعلوا من المناطق الجنوبية في السودان مناطق نفوذ لهم يصعب الوصول اليها .

واشتهر عدد غير قليل من هؤلاء في تجارتهم غير المشروعة فهناك دي بونو وامبيلي وكلاهما مالطيان تجنسا بالجنسية الانجليزية ووجد الاول منهما سنداً قوياً من بريطانيا حين اتهم بالتجارة في الرقيق فلم يقدم للمحاكمة . ومن بين النخاسين ايضاً الفرنسي مالزاك وقد كانت له اقطاعيات واسعة على بحر الغزال وجعل من رمبيك مركزاً هاماً لتجارته . وهناك ايضاً الفرنسيان بانليمي ولا فارج والنمساوي فرانز بايندر . ومع هؤلاء ظهرت أسماء كثيرة اخرى مثل احمد وموسى العقاد والبصيلي وابو عموري وكلهم غير سودانيين وكانوا يشتركون في اقامة تلك التجارة على اوسع نطاق .

لم يكن من الممكن لهؤلاء التجار الاستغناء عن جلب الرقيق لأنهم كانوا يتجرون في العاج الابيض ولكن لما كان حمله الى الخرطوم يكلفهم مبالغ طائلة فانهم عمدوا الى اصطياد الزنوج لحمل هذا العاج دون مقابل حتى الخرطوم حيث يبدأ تصديرهم مع العاج سواء بسواء. ومما يجدر ذكره أن القبائل الجنوبية كانت تشترك مع هؤلاء التجار في اقتناص الافراد فتهجم القبائل بعضها على بعض ثم يبيعون الاسرى للتجار أو احياناً يشتركون معهم في حملات الهجوم ضد القرى.

وتعقدت مسألة اصطياد الرقيق لأن قناصل الدول الاوروبية كانت تعمل في الخرطوم جاهدة لعرقلة كل قانون يحرم على رعاياها الاتجار فيما يريدون . ومن بين هذه القناصل جون بيتريك الانجليزي ، وقنصل النمسا البارون مولر وخلفه الدكتور هوجلين ثن ناتيرر . وعينت فرنسا تيبو قنصلاً لها ، وكان فوديه قنصل ساردينيا ، أما إيران فعينت قبطياً هو جرجس بولص ليرعى مصالح رعاياها في السودان . ومن الغريب ان معظم هؤلاء القناصـــل وغيرهم كانوا يتاجرون في الرقيق بغرض حمل العاج ، وعند وصول القوافل يباع الحامل والمحمول وبذلك تزداد ارباحهم .

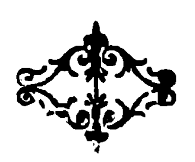
كان أمر تحريم الرقيق الذي أصدره سعيد في يناير ١٨٥٧ غير مجد لأن الحكومة لم تكن لديها الوسائل الفعالة لقمع النخاسة ، كما ان سعيداً نفسه كان مسؤولاً عن فشل هذا الأمر لأنه في سنة ١٨٥٩ أقام عقداً مع شركة العقاد التي تتجر بالرقيق وطلب منها أن تورد له اعداداً كبيرة ليقيم منهم حرساً خاصاً يضمن اخلاصهم له . فاشترك التجار الآخرون ايضاً في القيام بهذه التجارة . ولم تفد محطـــات التفتيش التي اقيمت في المناطق الجنوبية من البلاد وخاصة على نهر سوباط بسبب اتفاق الحرس مع التجار . وبالاضافة الى ذلك فان المديرين تآمروا على قانون التحريم لرغبتهم في الحصول على اموال من التجار نظير السماح لهم بمزاولتهـا ، فأصبحت التجارة مستمرة بالرغم من القوانين الصارمة لتحريمها .

نهاية ادارة سعيد :

أخفقت اللامركزية في السودان بسبب رغبة المديرين في استغلال نفوذهم ، كما ان العلاقات بين كل مدير والآخر ساءت ، ولم يعملوا بسياسة منسقة بل كان كل منهم يصر على استقلاله وعدم الرغبة في مسايرة الآخرين ان كان هناك امر يوجب التعاون . وكان هذا الاحتكاك يشتد في بعض الاحيان مما جعـــل

اللامركزية ذات أثر سيء على ادارة البـــلاد وأخفقت في ان تحل مشكلات السودانيين الذين اخذوا يبعثون بالشكوى تلو الشكوى للقاهرة طالبين الانصاف ولكن لا مجيب اذ كانت القاهرة في ذلك الوقت مصابة بالضغط الاجنبي عليها .

ووجد سعيد ان افضل طريقة لحل تلك المشكلة هو اعادة الحكمدارية الى سابق عهدها وهذا ما فعله في اوائل سنة ١٨٦٢ م .





صورة للحياة في السودان في احد المنازل المقامة من الخوص بدنقلا
« عن هوسكنز ١٨٣٥ »

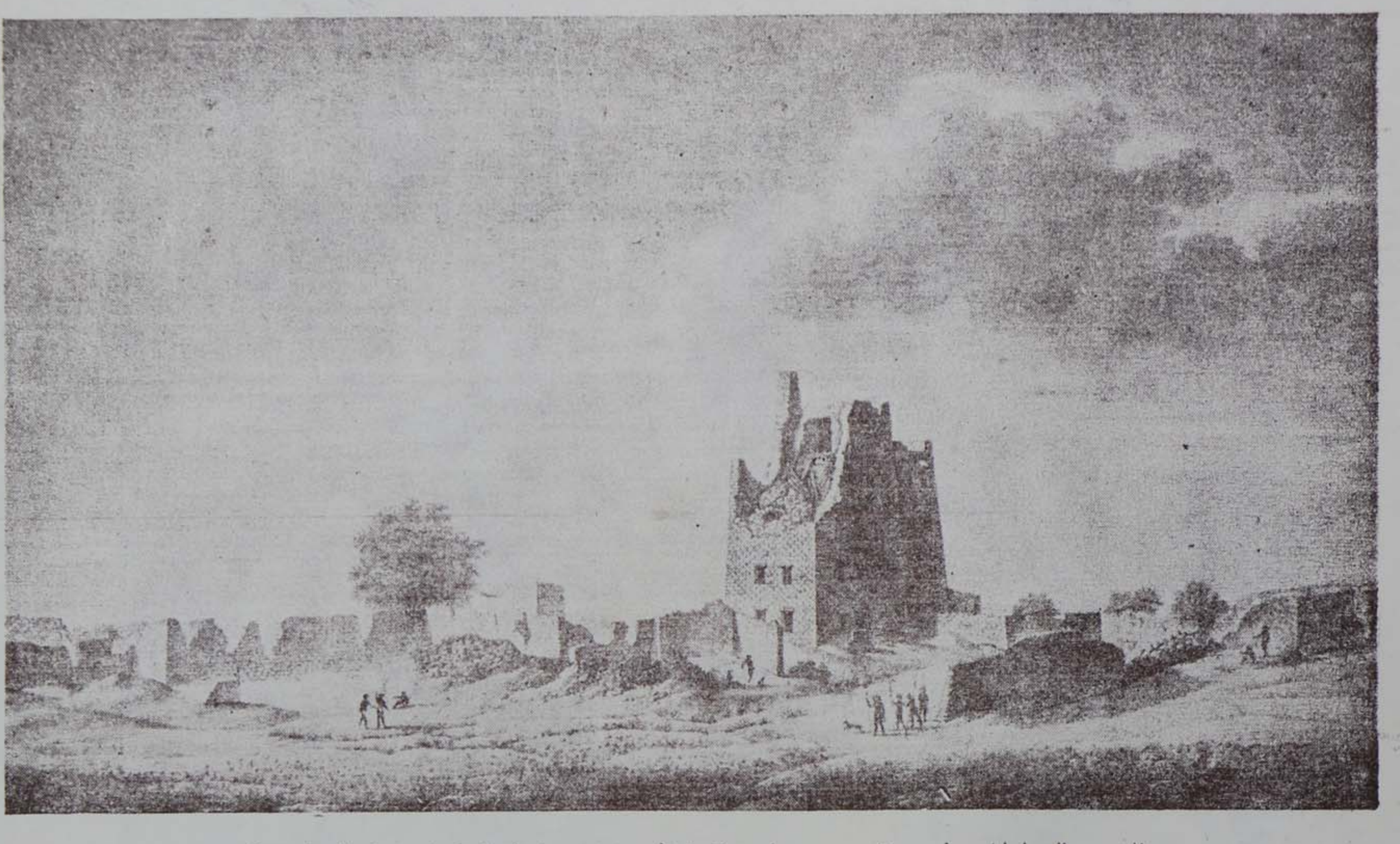
الحياة في دنقــلا . « عن هوسكنز ١٨٣٥ »



بعض اكواخ مدينـــة سنـــار في سنة ١٨٢١
« عن كايو »



مناظر لبعض احياء سنار عام ١٨٢١ .
« عن كايو »



القصر السلطاني في سنار وقد تداعى كما ظهر عند دخول اسماعيــل العاصمة السودانية سنة ١٨٢١ .

« عن كايو »



احد الشبان السودانيين من مدينة بربر .
« عن هوسكنز ١٨٣٥ »



احدى سيدات بربر بملابسها وزينتها في عام ١٨٣٥م.
« عن هوسكنز »



اثنان من رجال الشايقية بأسلحتهما .
« عن هوسكنز ١٨٣٥ »



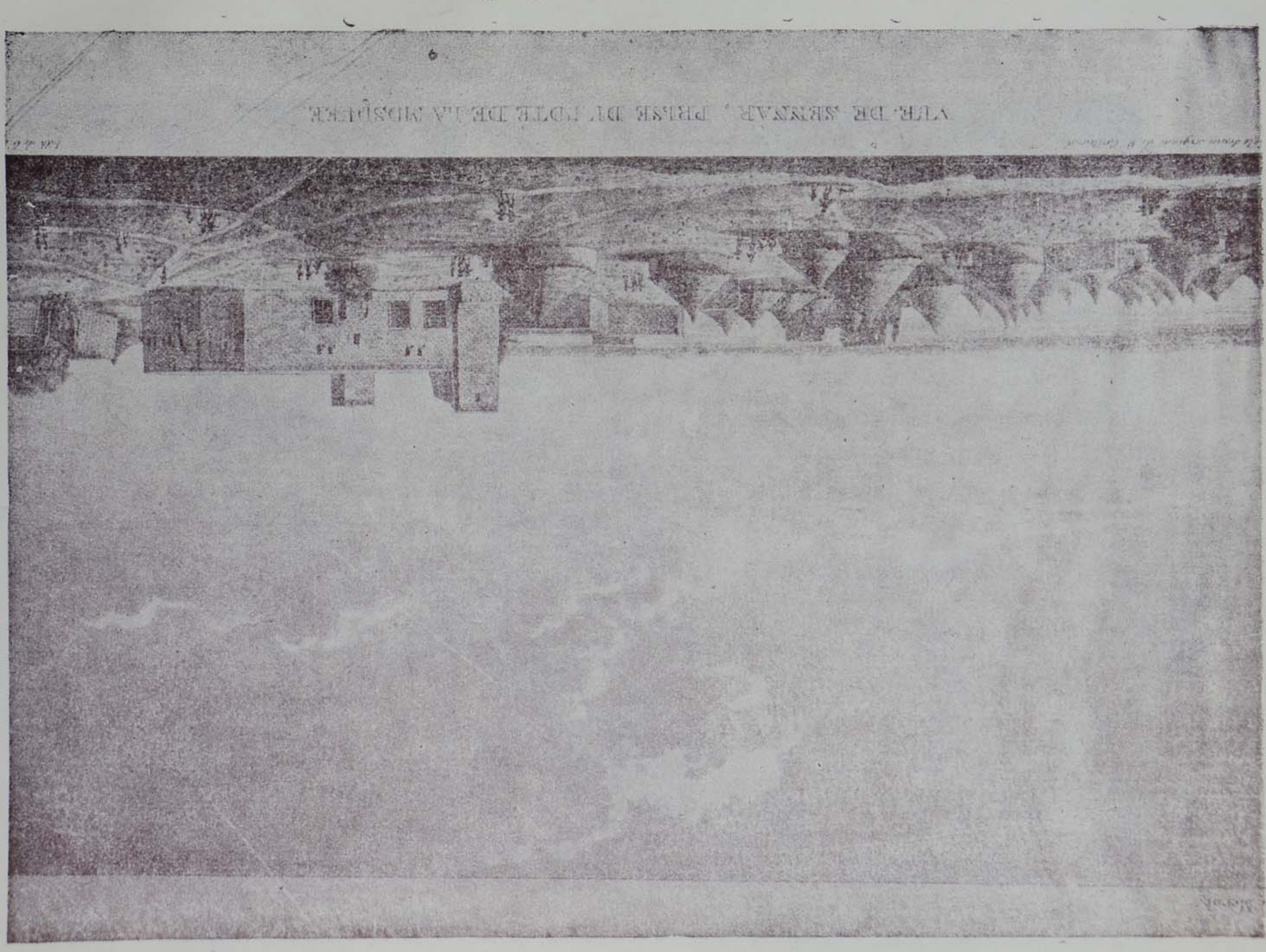
جيش الامير اسماعيل بن محمد علي امام جبل البركل في طريقه لفتح سنار
« عن كايو ١٨٢٠ »



جيش الامير اسماعيل يعسكر في سنار عام ١٨٢١
« عن كايو »



مدافع الامير اسماعيل عند احتلال السودان
« عن كايو »



سنار كما وجدها اسماعيل عام ١٨٢١
« عن كايو »



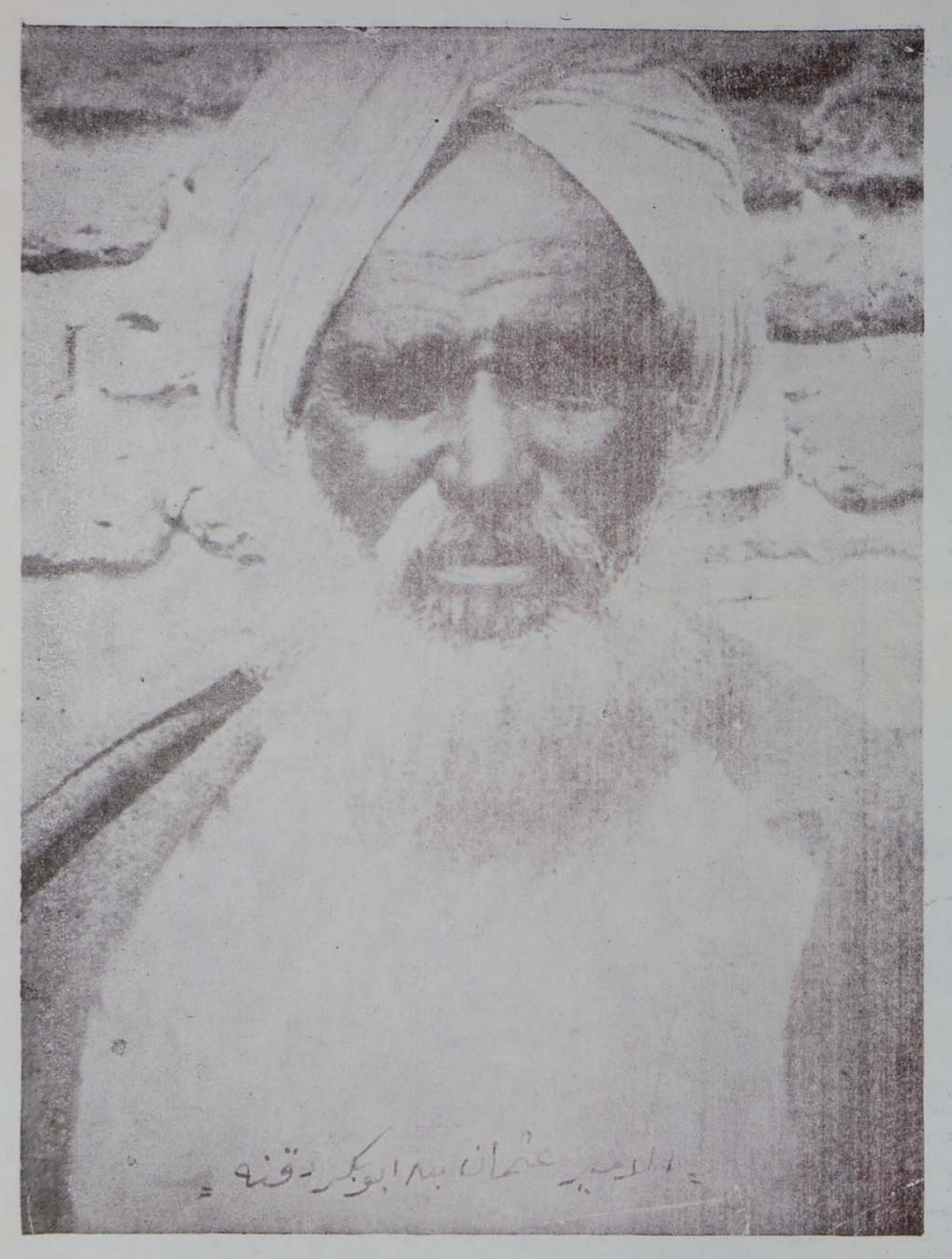
محمد احمد المهدي قائد الثورة المهدية في الســـودان

الملك نصر الدين الذي اصبح ملكا على شندى بعد هجرة الملك نمر الى حدود الحبشة .

« عن هوسكنز ١٨٣٥ »

الشيخ بشير ود عقيد الذي اتصل بمحمد علي باشا في مصر .

« عن هوسكنز ١٨٣٥ »



أمير الامراء عثمان دقنـــه الذي دوخ القوات البريطـــانية المحاربـــة في شرق السـودان بين سنة ١٨٨٣ و ١٨٩٨

الخليفة عبدالله والجيش السوداني من خلفه يشدون العزائم للجهاد .
نقلا عن سلاطين .

معركة ابي طليح بين القوات السودانية والقوات البريطانية في ١٧ يناير ١٨٨٥



موقعة توفريك بين الامير عثمان دقنة والسير ماكنيل في ٢٢ مارس ١٨٨٥ .
رسم الفنان يوسف بلال حسب وصف المعركة في كتاب « سواكن ٨٣ ــ ٨٥ »

الجيوش الاسترالية تصل الى شرق السودان في محاولة لفتح الطريق بين سواكن وبربر وانقاذ غردون ، ولكن تلك المحاولة باءت بالفشل بفضل قيادة عثمان دقنه الرشيدة .

« عن آرشر »

الجيش البريطاني بعد معركة ابي طليح يرتوي من المياه .

« عن آرشر »

٤

عهد إسماعيل باشا «١٨٦٣ - ١٨٧٩»

اتخذ اسماعيل في السودان سياسة ذات ثلاثة مظاهر رئيسية . فهو كان يرمي الى توسيع رقعة الامبراطورية المصرية في السودان ومنابع النيل وسواحل البحر الاحمر ودارفور . وبالنظر الى هذه الخطة فانها من جميع الوجوه تعتبر تنفيذاً لمشاريع وآمال محمد علي السياسية ، وإن اسماعيل إنما أراد أن يضعها موضع التنفيذ ، وأن يحقق السيطرة على وادي النيل من منبعه الى مصبه ، وربط السودان بالعالم الخارجي عن طريق موانىء البحر الأحمر والمحيط الهندي ، والاستيلاء على مناطق غرب السودان حتى تكون التجارة السودانية جميعها في قبضته .

أما في الصعيد الاداري فقد كانت الأحوال التي وصلت اليها الادارة المصرية التركية في السودان تستدعي تغييراً جذرياً نتيجة للاخطاء المتكررة التي مارستها منذ ان وقع السودان في يد محمد علي . وبالرغم من التجارب الكثيرة في الحقل الاداري التي حدثت في عهود الخديويين السابقين الا أن السودان لم يستطع ان يتمتع مطلقاً بالحكم الانساني الذي يتفق ورغبات السكان وطبيعتهم ، لذلك كانت من أهم الظواهر التي حدثت في ايام اسماعيل التغيير المستمر في نوع الادارة والاداريين مما كان بمثابة ثورة بعد ثورة في مدى فترة حكمه . وقد كان لذلك

التغيير آثار بعيدة على السودانيين اذ كان عليهم ان يتمشوا مع التطورات المختلفة السريعة ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير عليهم .

ظهر كذلك نشاط منقطع النظير في مسح تجارة الرقيق وذلك بسبب الضغط الاوروبي على اسماعيل. وكانت اكثر الدول تطرفاً في محاولاتها لمنع تجارة الرقيق في الظاهر هي بريطانيا التي جعلت اسطولها الحربي رابضاً في مياه البحر الاحمر يفتش المراكب التي تبحر من السودان ، ويعاقب التجار ثم يتصرف في الرقيق بطرقه الخاصة دون اعادتهم الى اوطانهم . وبريطانيا هي اعرق الدول في تجارة الرقيق وكانت أهم تجارة لها مع امريكا الاسبانية اذ أنها بعد عقد معاهدة يوترخت سنة ١٧١٣ احتفظت لنفسها بالحق في ان تحتكر تجارة الرقيق للممتلكات الاسبانية في امريكا ، وأجبرت فرنسا واسبانيا على اعطائها احتكار تلك التجارة التي اعطتها الحق في تصدير ٤٨٠٠ زنجي في السنة وذلك لفترة ثلاثين سنة . وكان جملة ما صدرت الشركات الانجليزية من رقيق في الفترة بين سنة ١٦٨٠ و١٧٨٦ ما يبلغ ٢,١٣٠,٠٠٠ زنجي ، واستمرت الأعداد في تصاعد بعد ذلك . لكن في القرن التاسع عشر لم تعد بريطانيا بحاجة الى ممارسة تجارة الرقيق نسبة الى أنها اصبحت اولى الدول الصناعية في العالم ، واكتفت بتصدير المصنوعات بدلاً من تجارة الرقيق . ولكن في السودان كانت بريطانيا تقف موقفاً متصلباً من هذه التجارة لتجد لنفسها ذريعة التدخل في ممتلكات الخديوي الافريقية اذ كانت مصالحها الحيوية في سبيل وجود اسواق لها تقتضي التوسع على حساب الدول الضعيفة . وتحت هذا القناع انسلت بريطانيا الى وادي النيل حتى تم لها استعماره في نهاية القرن التاسع عشر .

التوسع نحو الجنوب

السير صمويل بيكر باشا وغردون باشا :

اصبح حوض النيل الجنوبي بعيداً عن متناول الخديوية المصرية إذ كان إما مستقلاً بقبائله الافريقية ، او واقعاً تحت نفوذ تجـار الرقيق من الاوروبيين . وكان واضحاً لاسماعيل ان هناك تسابقاً بينه وبين الافراد الاوروبين للسيطرة على النيل في منابعه . لذلك قرر اسماعيـل ان يسرع في ضم تلك المناطق الى أملاكه قبل ان يرفرف عليها علم اوروبي .

طفق اسماعيل يبحث عن مغامر ليقوم له بهذه المهمة ، ووجد ان اكثر من يعرف تلك المناطق هو الرحالة الانجليزي صمويل بيكر وذلك لأنه وصل حتى منابع النيل في اكتشافاته . وكان اسماعيل يأمل ان ينجح بيكر في تلك المهمة حتى يؤمن لمصر كل مجرى النيل . وتمت الاجراءات بين الباشا وبيكر في عـام ١٨٦٩ اذ وضع بيكر شروط الخدمة مطالباً بمرتب سنوي قدره عشرة آلاف جنيه مصري وان تمتد خدمته لمدة سنتين . وبالرغم من ان المرتب الذي طلبه بيكر كان كبيراً جداً الا ان اسماعيل رضي بدفعه لبيكر نظير تنفيذ مشاريعه في خط الاستواء .

طلب اسماعيل من بيكر ان يقوم بكل ما يجعل انضمام حوض النيل حتى منابعه الى مصر حقيقة واقعية وذلك بأن يخضع القبائل الجنوبية المنتشرة هناك ويتبعها الى العلم المصري ولو أدى ذلك الى محاربتهم . وبعد ان يـتم اخضاعهم يجب على بيكر ان يبني محطات عسكرية لكي تمكن القوات العسكرية المصرية

السودانية من السير الى اي عصيان لاخضاعه ، وكان عليه ايضاً ان يبذل أقصى جهد للحد من نشاط تجار الرقيق ، والعمل على إبطال تجارتهم وتقليص نفوذهم في تلك المناطق .

نجح بيكر في الاستيلاء على أراضٍ واسعة امتدت الى حدود يوغندا وبذلك جعل الجزء الاكبر من حوض النيل تحت حكومة الخديوي، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان خاض معارك جمة مع القبائل الساكنة في تلك المنطقة . ولكي يحصل على غذاء جنوده أغار على تلك القبائل واستولى على أبقارها بالقوة ، كما ألزمها بامداده بما يحتاج اليه من لحم وأغذية . وكانت ادارته خالية من التروي والحكمة وكثيراً ما كان يستعمل يديه وعضلاته في اقناع زعماء القبائل . ولم يستبشر تجار الرقيق خيراً بقدومه ولذلك فانهم كانوا يبتعدون عن مناطق نفوذه مستمرين في تجارتهم بالرغم من المحطـــات العسكرية الثلاث التي نجح في اقامتها في كل من غندكرو وفانيكو ونويرا . ولذلك فان من الواضح ان نجاح بيكر كان ضئيلاً جداً خاصة اذا قيس بالتكاليف الباهظـــة التي دفعت له نظير مرتبه السنوي والبواخر التي اعطيت له لتكون تحت تصرفه دون ان يستطيع الوصول بقواته الى البحيرات الاستوائية ، ثم عاد بعد ذلك الى وطنه مخلفاً وراءه استياء عامــاً من المواطنين بسبب سياسته .

لم يشأ اسماعيل ان يترك الخطوات التي قطعها بيكر دون ان تكتمل لذلك استمر في البحث عن رجل مناسب ليخلف بيكر على العمل في خط الاستواء ، وكان انعثر على مغامر انجليزي هو شارلس جورج غردون احد الضباط الانجليز ، فعرض اسماعيل على غردون ادارة مديرية خط الاستواء موضحاً انــه سيطلق يده في حكمها . ولذلك فقد قبل غردون العرض ، وفي سنة ١٨٧٤ وصل الى الخرطوم في طريقه الى الجنوب . ولم يطلب غردون مرتباً من الخديوي سوى

ألفي جنيه في السنة ، ووصل الى غندكرو التي كانت عاصمة الجنوب ولكنه انتقل منها الى لادو وجعلها عاصمته الجديدة .

أراد غردون ان يتجنب الاخطاء التي وقع فيها بيكر وخاصة في علاقته مع قبائل الباري التي كان يهاجمها بيكر ، واستطاع غردون بمعاونة موظفيه من المان وامريكان وغيرهم ان يسوس تلك القبائل بسياسة فيها الكثير من اللطف والرغبة في مساعدتهم ، وكان هدفه ان يجعل التقارب بين مصر وممتلكاتها في الجنوب أقرب ما يكون مشجعاً عوامل الوحدة لكي تنمو بين الجانبين . لذلك نجده عندما فتح يوغندا نصح ملكها متيسا باعتناق الدين الاسلامي ، كما أظهر له مدى قوة المصريين في تلك المناطق . غير ان الرحالة الانجليزي ستانلي عندما وصل إلى يوغندا في محاولته لاكتشاف منابع النيل والبحيرات الاستوائية أوضح للملك متيسا ان الانجليز هم اقوى دول العالم ، وان الدين المسيحي هو الذي يسيطر على كل الدول،فما كان من متيسا الا انه غير الدين الاسلامي وأعلن نصرانيته وبدأ في تضييق الخناق على بعض الحاميات المصرية ، وساعد في ذلك حصوله على الاسلحة النارية والذخيرة التي كانت مصر تقدمها له هدية ثمناً لولائه لها . ولما رأى غردون عدم اخلاص متيسا للخديوي سحب الحامية المصرية من بلاده دون استشارة الخديوي الذي لم يوافق على ذلك غير انه لم يكن في الامكان عمل شيء بعد ذلك إذ أن غردون نفسه كان قد انهى مدة العقد وعاد الى بلاده في سنة ١٨٧٦ .

بلغ نجاح غردون في مهمته حداً أبعد من بيكر لأن غردون استطاع ان يكسب مودة بعض القبائل وذلك بمعاونة الاداريين الذين اختارهم من الاوروبيين. كما انه اقام حوالي عشر محطات عسكرية في تلك المناطق ساعدت كثيراً على تثبيت الامن ومطاردة تجار الرقيق. وجعل الاتصال بين الشمال والجنوب أمراً مأموناً لا تحفه المخاطر مما جعل من الممكن للتجارة المشروعة بين الشمال والجنوب ان تسير بنجاح ان لم يعرقل رجال الحكومة سبيلها . ولكن مما لا شك فيه ان

غردون تسبب في ضياع يوغندا التي كانت تنظر شمالاً في ارتباطها بالعالم الخارجي ، ومنذ استقلال متيسا أضحت يوغندا تتجه شرقاً نحو كينيا وشرق افريقيا ، وانقطع اتصالها بمجرى النيل .

نحو الغرب : الزبير رحمة

كانت سلطنة دارفور من الاحلام التي تمنى محمد علي باشا تحقيقها فأرسل الدفتردار اليها ولكنه لم يستطع التقدم نحوها واكتفى بالاستيلاء على كردفان في شرقها . وبالرغم من مرور أكثر من أربعين سنة على سقوط الابيض الا ان مصر لم تستطع الوصول الى فتح دارفور والاستيلاء عليها ، ولم يتم لها ذلك الا على يد احد المغامرين السودانيين الذين كانوا يؤمنون ايماناً قاطعاً بوجوب الوحدة في الأمة الاسلامية ، والذي كان بحكم ثقافته الدينية في ذلك العصر ينظر الى مصر على انها مركز للوحدة الاسلامية ، وللخديوية على أنها تمثل سلطان المسلمين في مصر والسودان .

كان ذلك الرجل المغامر هو الزبير رحمة من قبيلة الجعليين رحل من قريته في الجيلي ليعيد ابن عمه من التجارة في الجنوب فاذا به يجد نفسه مضطراً لأن يشارك التجار فيما يتجرون فيه هناك . ووجد الزبير نفسه يسير من نجاح الى آخر في توسيع تجارته بفضل ذكائه وشخصيته وحبه للمغامرة . وطرق أراضي جديدة في جنوب السودان لم يطرقها غيره ، وصاهر قبائل الجنوب وخاصة ملوكها حتى أصبح سيداً مهاباً بفضل قواته العسكرية الخاصة والتي كانت تتكون من السود الذين أصبحوا مسلمين على يده وحملوا السلاح دفاعاً عنه .

دخل الزبير بحر الغزال ودارت بينه وبين ملوك قبائلها عدة مناوشات انتهت بانتصاره عليهم ، وتأسيس حكومة هو رئيسها تحكم المنطقة حكماً اسلامياً بعد ان كوّن لنفسه مجلساً للشورى من بعض العلماء لإقرار احكامه في تلك المناطق .

ومن الجدير بالملاحظة ان حكومة الزبير هي أول حكومة اسلامية تقام في بحر الغزال . وفتح للتجـــار الشماليين أبواب تلك المنطقة التي كانت حكمه تنعم بالهدوء والامن .

لكن هذا الاستقرار لم يطل ببحر الغزال لأن الخديوي اسماعيل كان في هذا الوقت يفكر جديـــاً في ضمها الى املاكه ، ولذلك فقد عين محمد البلالي احد المغامرين لكي يكون مديراً عليها ، وأمده ببعض جند الجهادية والبنادق. ووصل البلالي الى بحر الغزال سنة ١٨٧٢ وابتدأ في معارضة التجار هناك كما أخذ يمنعهم من التجارة وخاصة في الرقيق . ولم يكن الزبير في هذا الوقت تاجراً بل كان يسمي نفسه ملكاً على تلك الجهات ولذلك فقد تحدى سلطان البلالي ودخل معه في معركة حربية انتهت بانتصار الزبير ومقتل البلالي وبذلك أضحى السيد المطاع في مديرية بحر الغزال .

لم يكن في استطاعة حكمدارية الخرطوم عمل شيء إزاء الزبير في تلـــك الاصقاع ، كما أن الزبير لم يكن يريد أن يقيم عداوة مع الخرطوم وذلك لأن كل التجارة الجنوبية تسير عن تلك الطريق . هذا الموقف جعل كلا من الحكومة والزبير يقبل مبدأ المفاوضات لفض النزاع ، وكان حسين بك خليفة العبـــادي مدير بربر هو الواسطة بين الطرفين ، وانتهى النزاع بـــأن عين الخديوي الزبير مديراً على بحر الغزال ووهبه لقب البكوية ، فتم احتلال مصر لبحر الغزال كما ترك الزبير حاكماً عليها ، ولكن لم يصله الامر الرسمي الا في ديسمبر ١٨٧٣ ، وكان في هذا الوقت قد شغل نفسه بمغامرة جديدة وسلسلة من حروب التوسع السريعة .

اصبح الزبير بعد احتلاله لبحر الغزال مضطراً الى اتخاذ خطوات توسعيـة اخرى لأن طرق التجارة بين هذه المنطقة وبقية أجزاء السودان تضطره الى عبور أراضي قبائل الرزيقات التي لم تكن خاضعة للحكومة المصرية. وراقب الرزيقات

نجاح الزبير بعين فيها الكثير من عدم الاطمئنان ، كما انهم هاجموا القوافل التي كانت تسير من بحر الغزال عبر بلادهم . فرأى الزبير ان تأمين التجارة لا يمكن ان يتم الا بالاستيلاء على أراضي هذه القبائل . وأخفقت المفاوضات السلمية بين الجانبين ، واستعدا لقتـــال مرير انتهى بانتصـــار حاسم للزبير في سنة ١٨٧٣ واستولى على شكا عاصمة الرزيقات .

أثار الزبير على نفسه عداوة سلطان الفور الذي كانت له السيادة الاسمية على قبائل الرزيقات ، وشعر سلطان دارفور السلطان ابراهيم بأن الزبير كان ينوي الإطاحة بحكمه لأنه في خطاباته كان يصر عليه بأن يسلم اليه شيخين من شيوخ الرزيقات وصلا لاجئين اليه . وأتم الزبير استعداداته الحربية لمجابهة الفور كما انه كتب للحكمدار اسماعيل باشا ايوب في الخرطوم ليرسل له المدد والسلاح إذ انه على أبواب محـــاربة سلطان الفور . ورأى اسماعيل أيوب ألا يترك الزبير يقوم وحده باحتلال دارفور لذلك نصحه بالتريث ذاكراً له انه في طريقه لمساعدتـه بعد ان أرسل اليه عدداً قليـلاً من البنادق . وكان الحكمدار يخشى من نفوذ الزبير الذي تطور سريعاً .

دارت عدة معارك بين الفور والزبير كانت آخرها واقعـة « منواشي » في اكتوبر ١٨٧٤ وانتهت بانتصار الزبير انتصاراً حاسماً حيث سقطت الفـــاشر عاصمة السلطنة في يده في٢ نوفمبر ١٨٧٤ . اما الحكمدار اسماعيل ايوب فقد كان يسير بتحفظ شديد فلما اقترب من الفاشر علم ان الزبير قد استولى عليها قبـل خمسة ايام من وصوله . فأبلغ الحكمدار القاهرة بالفتح الذي تم على يد الزبير بعد ان أثنى على نفسه خير الثناء وأوضح المجهود الذي بذله . ونتيجة لذلك فقد أمر الخديوي بترقيته الى درجة فريق ، ومنح الزبير لقب الباشوية فأضحى منذ ذلك الحين الزبير باشا .

أخذ الحكمدار ينظم المناطق الجديدة المفتوحة ، وكان اول ما قام به هو

تحديد الضرائب على السكان ، وكانت حسب رأي الزبير عالية لا يستطيع الأهالي دفعها . وهنا تدخل طالباً من الباشا تخفيضها ، وعرف الحكمدار ان الزبير يريد ان يحكم بعد ان فتح ولذلك كان عليه ان يتخلص منه بأسرع ما يمكن قبل ان يقوى مركزه ويصبح خطراً على الحكومة . وكان الزبير يعتقد بأنه سيترك حاكماً على كل المناطق التي فتحها بماله ورجاله ، ولكن الحكمدار كان يخبىء له الغدر .

لما رأى الزبير ان الحكمدار غير راضٍ عن اقتراحاته الرامية الى وضع البلاد تحت ادارته ، وتخفيض الضرائب ، طلب من الحكمدار ان يسمح له بالسفر الى القاهرة لتوضيح الامر للخديوي . وكتم الحكمدار سروره ، وسافر الزبير باشا الى القاهرة حيث أبقاه الخديوي هناك أسيراً طليقاً ، ولم يسمح له بالعودة الى السودان .

كان الصراع بين الزبير والحكمدار رمزاً للصراع بين العقلية السودانية الاسلامية والعقلية المصرية التركية . فالزبير يريد تخفيف الضريبة والاكتفاء بالزكاة التي يفرضها الشرع ، والحكمدار يريد ان يعصر البقرة التي كانت حلوباً ثم جف ثديها . ولو بقي الزبير في السودان لاضطره هذا الاختلاف الى الثورة في وجه الحكومة التركية السابقة ، ولكنه أبعد عن مسرح الحوادث في الوقت المناسب قبل ان يستفحل امره ، ويصبح زعيماً قومياً .

نحو الشرق :

سبق ان استأجر محمد علي باشا ميناء مصوع وسواكن من السلطان العثماني وقد كانت كلتاهما تابعة لوالي جدة . فلما تربع اسماعيل على الاريكة الخديوية رأى أن هذه الموانىء جزء متمم لامبراطوريته الافريقية خاصة وأنه كان ينوي

تعقب تجار الرقيق الذين كانوا يرسلون بضاعتهم من تلك الموانىء. ولذلك فانه فاوض السلطان العثماني واتفق معه على ضمها نهائياً الى الاملاك المصرية نظير مبلغ مقداره ٣٧٥٠٠ جنيه وذلك في سنة ١٨٦٥ . وتحت هذا الستار بدأت قوات الخديوي في الزحف والاستيلاء على بعض الشواطىء الصومالية حتى بلغت رأس غودفري، وكانت تزمع ان تستولي على أجزاء من الساحل الشرقي لافريقيا تجاه زنزبار ، لكن المصالح المصرية ارتطمت هناك بالمصالح البريطانية فتراجعت من ذلك وركزت اعمالها في ارض الحماسين .

كان من جراء هذا التوسع المصري على حساب الحدود الحبشية أن بدأ النزاع المصري الحبشي،فقد كانت مصر تريد ان تسيطر على كل مناطق الحماسين وإمارة هرر واقليم بوغوص بين مصوع وكسلا ، بينما كانت الحبشة تريد ان تستولي على كل المنافذ البحرية . واستعان الخديوي ببعض الضباط الامريكان الذين كانوا في خدمته كما عين موزنجر السويسري مديراً على مصوع ، ثم حاكماً على السودان الشرقي في فبراير ١٨٧٣ — من سواكن في الشمال الى رهيطة في الجنوب — وقد ضمت اليه أقاليم بوغوص والتاكا . واستنزف هذا الصراع كثيراً من القوات المصرية اذ ارسل اسماعيل في سنة ١٨٧٥ (خمسة عشر الف) جندي مصري لمقابلة الهجوم الحبشي والزحف الى الداخل ، ولكن الجيش المصري أصيب بخسائر فادحة كما أصيب الاحباش بمثلها . ولم يستطع أي من الفريقين ان يخوض معركة فاصلة . ثم كانت سنة ١٨٧٦ حين جدد المصريون هجومهم بقيادة القائد الامريكي لونج واشتبكوا مع الأحباش في معركة دموية ثانية كان من أثرها ان لم يستطع المصريون تجديد محاولتهم للتوغل في الحبشة كما أن الاحباش لم يتمكنوا من طرد المصريين من السواحل ، وبقي الجو متوتراً بين الفريقين .

نتائج التوسع :

أصبحت لمصر امبراطورية افريقية كبيرة تزيد مساحتها على المليون ميل مربع ، ولكن هذه الامبراطورية كلفت الخزينـــة المصرية كثيراً من الاموال والرجال خاصة في افريقيا الشرقية على السواحل الحبشية في البحر الإرتري ، كما أنها كادت ان تحدث احتكاكاً بالمصالح البريطانية في تلك المناطق ، ولولا يقظة الخديوي لتورط في حرب سافرة مع البريطانيين الذين كانوا يعدون العـــدة للتدخل في شؤون هذه الامبراطورية باسم تجارة الرقيق ومحاربتهـا . وكانت الحملة التي قام بها بيكر في جنوب السودان ثم من بعـده غردون هي الاخرى باهظة التكاليف غير أنها بلا شك وضمت الجزء الاكبر من حوض النيل تحت سلطان الخديوي .

أما التوسع الأكبر فهو الذي قام به الزبير باشا والذي دفع تكاليفه من ماله الخاص وبجيش البازنقر إلذي كان يملكه ، ولذلك فقد كان طيلة حياته يطالب بأن تعوضه الحكومة المصرية عن كل ما دفع في تلك الحروب التوسعية ، ولكن طلبه لم يجد أذناً صاغية مطلقاً ، بل وقع ضحية السياسة التي انتهجها المصريون في السودان . وأنهى الزبير سلطنة الفور التي كانت قائمة لمدة ثلاثة قرون والتي امتنعت على محمد علي باشا .

أدى هذا التوسع بطبيعة الحال الى تفاقم المشكلات في هـذه الإمبراطورية المختلفة في كثير من الوجوه، ولم يربط بينها الا كراهية الحكم الاجنبي والضرائب الفادحة . أما التذمر من إبطال تجارة الرقيق فانه حتى عام ١٨٧٧ لم يكن له أثر على السكان لأن المكافحة لم تأخذ شكلا جدياً .

وقبل ان يستتب الأمر للخديوي فيالسودان بدأت المتاعب تطفو الى السطح

فنجد ان دارفور تثور على الحكم الجديد ، وسليمان بن الزبير باشا يرفع راية العصيان في البلاد، وزميله رابح فضل الله يناوىء الحكومة ويؤسس دولة مجاورة للسودان ، والاحباش يتربصون بالجيوش المصرية المجاورة لهم ، وهكذا وجد غردون باشا الأحوال عندما عين حكمداراً عاماً على جميع الاراضي السودانية .

الجنرال غردون باشا حكمداراً على السودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩)

عندما تخلى غردون عن منصبه كحاكم على المديرية الاستوائية قرر ألا يعود للعمل في السودان مرة ثانية، ولذلك فانه رحل الى بلاده ليبحث عن عمل آخر. غير أن الخديوي اسماعيل اتصل به ثانية واقترح عليه بأن يقبل منصباً جديداً هو منصب الحكمدار العام على عموم السودان . ولكي يقبل غردون المنصب فان الخديوي وعده بأن يعطيه السلطات المطلقة ليتصرف كيف شاء في سبيل تحقيق الأغراض التي كان يرمي الخديوي اليها . وكان السودان الذي وضع تحت حكم غردون يتكون من المديريات التي فتحت منذ عهد محمد علي وما أضيف اليها أخيراً مثل دارفور وبحر الغزال ومديرية خط الاستواء ، وارتريا في الشرق والموانىء التي على البحر الأحمر . وكان الخديوي يثق في مقدرة غردون باشا ويتوقع أن تسفر ادارته عن النجاح المنشود . ولما رأى غردون أنه سيكون مطلق التصرف في السودان قبل المنصب الجديد .

أما واجبات غردون في منصبه الجديد فقد كانت تنحصر في أنه عليه أن يكافح تجارة الرقيق في طريقة فعالة ترضي الدول الاوروبية وخاصة انجلترا . وأراد اسماعيل ان يوقف النقد الانجليزي لادارته بتعيين أحد أبنائهم حتى إذا أخفق لم يهاجم الخديوي . وبالاضافة الى ذلك فقد طلب من غردون أن يضع أسساً انسانية للادارة في السودان وانعاش الحالة الاقتصادية التي كان يعاني منها السودانيون وذلك بايجاد بضائع للتجارة . وتحسين المواصلات النيلية وايصالها

الى أبعد الحدود . كذلك كانت هناك مشكلة الموظفين الذين لم يستلموا مرتباتهم لمدة ثلاث سنوات مما دفعهم الى العيش على استغـلال دافع الضرائب . وكانت الميزانية تواجه عجزاً كبيراً بالرغم من أن الحكمدار موسى حمدي باشا رفع مجموع الضرائب في سنة ١٨٦٣ من مائة الف الى ثلاثمائة الف جنيه ، وبلغ هـذا العجز مائة وخمسين الف جنيه ، وكان من العسير أن يجمع هـذا من الوطنيين الذين اضطروا إلى دفع ثلاثة أضعاف ما كانوا يدفعون . وكان على غردون ايضاً ان يجعل الأداة الحكومية نظيفة فعالة ، ومعنى هذا أن يحـدث في نظامها ثورة عظيمة حتى تتحقق العدالة ، وأن يعقد صلحاً مع ملك الحبشة ويتوصل الى حل لمشكلة الحدود بين الجانبين.ومما لا شك فيه ان واجبات غردون كانت متشعبة ويزيد في تعقيدها المسافات الشاسعة التي يمتد فيها السودان .

المسألة الحبشية :

غادر غردون مصر متوجهاً الى إرتريا للاتصال بملك الحبشة ومحاولة ايجـاد حل لقضية النزاع بين الاحباش والمصريين . وكان يوحنا ملك الحبشة يريـد الاستيلاء على بعض الموانيء ويطالب الحكومة المصرية بالتنازل عنها، بينما كان الانجليز يرون ان يتنازل الخديوي عن العوائد الجمركية في تلـك الموانيء . ولم يمكث غردون طويلاً هناك إذ بلغته الاخبار بأن دارفور تغلي بالثورة ضد الحكم المصري ، فرأى ان يترك المفاوضات مع الحبشة وأن يسير إلى الخرطوم لاعداد العدة لاخماد ثورة الفور بقيادة سلطانها الحديث هارون . وبذلك نامت الحلول للنزاع المصري الحبشي واستمر كل من الجانبين محافظاً على حـدوده دون ان يخسر شيئاً .

الثورة في دارفور ، السلطان هرون

كان الزبير باشاهو أول من تنبه إلى الاخطاء التي ارتكبها الحكمدار اسماعيل ايوب باشا في دارفور حين وضع ضرائب ثقيلة على الاهالي ، وكانت دارفور حتى ذلك الوقت ملجأ لكثير من اللاجئين السودانيين الذين فروا من أوطانهم التي على النيل بسبب الضرائب المجحفة التي كانت عليهم . أما الآن فقد لحقهم الحكم المصري التركي ولم يجدوا سبيلا الى الفرار منه .

وقد عز على رجال الفور ان يفقدوا ملكهم العريق فجمعوا شملهم في محاولة لاستعادة تراثهم التاريخي وطرد جنود الباشبوزق المرتزقة والجهادية والاتراك المصريين ، والتخلص من الضرائب الفادحة التي وضعت عليهم ، وإعادة الحكم الاسلامي في بلادهم. وتحت قيادة السلطان هارون الرشيد ابن الأمير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل ثار الفور وهاجموا الفاشر مقر الحكومة المصرية وضربوا عليها الحصار ، كما حاصروا دارة وكلكل في أوائل سنة ١٨٧٧ . وكان مدير الفاشر آنذاك حسن باشا حلمي الجويسر ، فطلب من الخرطوم ان ترسل اليه مدداً من الجنود ، فأرسل اليه عبد الرازق أبشا بعدد كبير من الجنود ، وبانضمامهم الى القوات الحكومية استطاعوا ان يتغلبوا على المحاصرين وأجبروهم على التقهقر حتى وصلوا مرتفعات جبل مرة ومعهم السلطان هارون .

رأى غردون أن دارفور شاسعة في مساحتها وأنه من الصعب إدارتها دون ان تقسم الى عدة مديريات حتى لا تضطر الحاميات إلى السير مسافات بعيدة من الفاشر لاخماد الثوار ، ولذلك فانه لم يفكر في مطاردة السلطان هارون حتى يتمم خطته بخصوص التقسيم الاداري لتلك المديرية .

ولم ينتظر هارون طويلا فانه خرج في أوائل سنة ١٨٧٩ بجيوشه من جبل

مرة متقدماً لمهاجمة قوات الحكومة في معاقلها . وهنا فكر غردون في ان يعين سلطاناً من العائلة المالكة في دارفور ليناوىء به هارون ، وبالفعل طلب ارسال احد الأسرى من أبناء السلطان المقتول من مصر وكان قد بعث بهم الحكمدار اسماعيل الى القاهرة ، غير ان هذا الامير لم يلبث ان مات في طريقه من القاهرة الى الخرطوم ، وبموته تنكر غردون للفكرة ، وبدأ في خطة جديدة .

بقي هارون في مناوأته للحكومة عن بعد حتى مارس سنة ١٨٨٠ حين التحم الحكومة التي كان يقودها سلاطين النمسوي الذي كان من الاوروبيين الذين عينهم غردون مديرين في السودان . واستطاع سلاطين آخر الامر ان يقضي على ثورة الفور كما قتل السلطان هارون ، وبذلك أخمدت تلك الثورة .

سليمان الزبير :

منذ أن بارح الزبير باشا السودان الى مصر بعد فتحه لدارفور وبحر الغزال شعر بأن لا حكومة الخديوي في مصر ولا الحكمدار في السودان يقدران ما قام به في سبيل مصر . وكان ابنه سليمان الزبير يقوم بأعباء والده التجارية كما كان مديراً على بحر الغزال طيلة السنين التي كان ابوه فيها بمصر .

وعندما تسلم غردون امر الحكمدارية أظهر حقداً مسبقاً ضد الزبير وابنه سليمان وذلك لانه كان يتأثر بأقوال من حوله ممن يحملون عداوات للزبير ولذلك اتسمت علاقاته بالزبير وابنه سليمان بالتضارب الذي لا يستند على قواعد من الحقيقة .

طلب غردون من سليمان ان يسير من بحر الغزال بقواته الى دارفور لمجابهة الثورة التي شنها السلطان هارون الرشيد على الحكم المصري . وبينما كان سليمان يستعد لنجدة الحاميات المصرية في دارة وكلكل تواترت أنباء متضاربة لغردون

تنبئه فيها ان سليمان يريـد ان يعصى أوامره ، فقرر رأي غردون على ان يلقي القبض على سليمان وان يقرب الى الحكومة ادريس أبتر الذي كان يعمل مساعداً للزبير في تجارته ببحر الغزال كما انه كان يرمي من ذلك ان يوقع الفتنة بـين قبيلة الجعليين الذين يمثلهم الزبير وبين قبيلة الدناقلة الذين كان منهم ادريس أبتر. وكان ادريس طموحاً يريد ان يستولي على كل ما كان للزبير وابنه من وظائف وألقاب، ولذلك فقد كان يبلغ غردون كثيراً من الوشايات ضد سليمان ووالده .

ووصل الى بلدة دارة كل من غردون وسليمان الزبير ، وهناك أمر غردون سليمان ان يعمل تحت إمرة ادريس أبتر كما عين ادريس مديراً على بحر الغزال ، ولم يستجب لاحتجاج سليمان،وقصد من ذلك إذلاله إذ جعله تحت ادارة ادريس. ولم يقبل سليمان هذه المذلة ولكنه صبر نفسه عليهـا . وكان من بين الذين وشوا بالزبير وولده السعيد حسين وهو أحد سناجق الجيش ، وكانت مكافأته على تلك الوشاية أن عينه غردون مديراً على شكا ، وكان ذلك في أغسطس ١٨٧٧م.

بعد شهر من ذلـك بدأ غردون يغير شعوره نحو سليمان وإذا به يعطيه البكوية من الدرجة الثانية على أن يستمر مرؤوساً لادريس . واختلف سليمان وادريس في بحر الغزال وهاجم عثمان أبتر سليمان وجنوده ، ولكنه هزم وقتل، وسار ادريس أبتر إلى الخرطوم ليعلن لغردون بـأن سليمان ثار على الحكومة بإيعاز من والده .

وكانت الوشايات قد بلغت غردون أن الزبير أرسل خطاباً الى ولده سليمان ليثور على الحكومة[1] ، وتحت تأثير هذه الوشايات اعتبر غردون تباطؤ سليمان

---

(١) لم يستطع غردون ان يثبت ذلك فيما بعد حين تقابل مع الزبير عند اللورد كرومر سنة ١٨٨٤ . وأمر فيما بعد بدفع تعويض قيمته خمسة آلاف جنيـه ورد بعض بضائعه . (انظر آرشر ص ١٠٩) .

مؤامرة ضده وثورة عليه . ولذلك فقد أقام محكمة لمحاكمة الزبير وابنه غيابياً كما القى القبض على أقارب الزبير . وكان حكم المحكمة عبارة عن الاعدام لكل من الزبير وابنه ومصادرة أموالهما من نقود ومراكب وعقارات ، وحبس كل أفراد العائلة من رجال ونساء وأطفال. ثم أرسل نسخة من هذا الحكم للخديوي حتى يقوم باعدام الزبير هناك في القاهرة، بعد أن قام هو بتنفيذ الحكم في اقارب الزبير وممتلكاته .

عجب الخديوي من تصرف غردون في آل الزبير ، وأعلمه بانه لا يعتقد بان الأب مذنب ، كما أنه ليس هناك ما يبرر حبس النساء والأطفال دون جريرة ، وأبدى غردون اسباباً لاعماله تلك وجعل لنفسه عدداً من المبررات غير المستساغة . وأرسل جسي الايطالي احد الاداريين الاوروبيين الذين عينهم في السودان لكي يلحق بسليمان وله مكافأة مقدارها ١٠٠٠ جنيه إن هو قتل سليمان. وبعد مناوشات طويلة لم يستطع جسي القضاء على سليمان كما أن الزبير كتب لابنه من مصر يطلب فيه عدم عصيان الحكومة ، والتسليم اليها . وبناء على هذا النصح سلم سليمان لجسي ومعه اثنا عشر رجلاً من اقاربه ، فقيّدهم جسي ثم انه امر بقتلهم جميعاً فقتلوا . وكانت هذه من اكبر الخيانات التي عرفت في تاريخ البلاد فقد كان غردون يخشى أنه إن سجن سليمان استطاع الزبير بنفوذه في القاهرة ان يطلق سراحه ولذلك فقد كان متفقاً مع جسي على هذه المؤامرة بقتل سليمان دون تقديمه للمحاكمة وذلك في ١٤ يوليو ١٨٧٩ .

بمقتل سليمان انتهت الثورة في بحر الغزال كما انتهت بعدها بقليل الثورة في دارفور التي قادها السلطان هارون وبذلك هدأت الأحوال في غربي السودان ، لكن النتائج التي ترتبت على القضاء على هذه الثورة كانت متعددة فقد أصبحت قبيلة الجعليين وحلفاؤها من أبناء النيل معادية للحكومة مرة ثانية كما كانت في سنة ١٨٢٢ . وفقد الأهالي الثقة في الحكومة التي عطلت القوانين والمحاكم وبدأت سياسة البطش والخيانة بإشراف غردون وأعوانه الاوروبيين المسيحيين. وعرف

كل ثائر أن استسلامه بعد الآن معناه الغدر به وذلك ما كان يتوقعه رابح[1] فضل الله المشهور برابح الزبير . وكان رابح من أعوان الزبير والمخلصين له ، وكان يتوجس خيفة من غدر جسي ولذلك لم يسلم نفسه مع سليمان بل عبر الحدود الغربية لدارفور حيث أقام سلطنة واسعة الأطراف غرب حدود السودان ، وهناك قامت بينه وبين الفرنسيين فيما بعد عدة مواقع حتى قضوا على سلطانه . وكان من الممكن أن تصبح تلك المناطق جزءاً من السودان وذلك بجهاد رجال الزبير .

وقد أخطأ غردون ايضاً حين اشتط في العقوبات التي وقعها على النساء والأطفال من اهل الزبير دون جريرة ، وعلى العموم فقد اتى بحكم بربري في وقت جاء فيه لينهي الأحكام البربرية وذلك في علاقته بالزبير وابنه سليمان في هذه الفترة . وكانت آراؤه عنهم صدى لأقوال الواشين ولم يتحقق من صدق ما قيل . ومع أن غردون نجح في عدم تمكين سليمان من الاتحاد مع هارون كما كان يتوقع إلا أنه بطريق غير مباشر جمع بين رغبة أعوانهما في القضاء على الحكم القائم في البلاد ، وترك قبائل غرب السودان وأبناء الجلابة الذين نزحوا من النيل بغرض التجارة هناك متفقين على كراهية الحكومة والسعي لاسقاطها متى توافرت لهم الوسائل وتهيأت الأسباب .

التقلبات الادارية :

كان غردون مثلا حياً للاضطراب الفكري والتغير السريع ، لذلك فان تصرفاته حين أصبح حكمداراً للسودان أحدثت اضطرابات في الاداة الحكومية مرة بعد مرة بدرجة لم تعهد أي بلاد مثيلا لها . وكان غردون عظيم الثقة في نفسه

---

(١) محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء .

لكن كان يصعب عليه ان يستمر واثقاً من الآخرين . ومع هذا الاضطراب كان لا يعرف التعب في سبيل زيارة مناطق القطر المترامية ، وتفقد مشكلاتـــه الضخمة . ولم يشهد السودان رجلاً طاف في أنحائه كما طاف غردون فقد هيأ نفسه لذلك مستمعاً للشكاوى الكثيرة التي تقدم بها الأهالي .

وصل غردون الى السودان عن طريق مصوع فوجد حكمدارها محمد رؤوف باشا، وكان يعرفه من قبل عندما كان في مديرية خط الاستواء فطرده من وظيفته في الحال بحجة عدم كفاءته لذلك المنصب. ثم بلغ السودان ورأى انه لا يستطيع ان يثق في الاتراك المصريين الذين كانوا يديرون البلاد لانهم انغمسوا في الرشوة والفساد فبدأ حملة تغيير شاملة استغنى بها عن الكثيرين منهم وبدأ في تعيين عدد من السودانيين في أماكنهم : فهو قد عين الياس باشا أم برير صهر الزبـــير باشا مديراً على كردفان في نفس الوقت الذي أذل فيه سليمان الزبير ، ثم عين محمد الخبير بك على دارفور الغربية ، وأخاه حمزة الخبير مديراً على الفاشر ، ومحمـد خالد زقل وكيلاً لمديرية دارة ، وإدريس أبتر على بحر الغزال ، والنور عنقرة وكيلاً على شكا وأظهر هؤلاء الاداريون السودانيون بالرغم من قلة خبرتهم حنكة ونزاهة، وتشددوا في تنفيذ أوامر غردون لمحاربة تجارة الرقيق، وضيقوا الخناق على النخاسين ، وصادروا أموالهم ، وقطعوا أرزاقهم ، ومنعوهم منعاً باتاً من الاستمرار في تلك التجارة [١] .

وبالرغم من تلك الحملات التي قام بها الاداريون السودانيون فان عملهم ذلك لم يثر استياء عظيماً بين الأهالي ولكن غردون لم يلبث ان غير موقفـــه من هؤلاء السودانيين وظهرت عليه دلائل عدم الثقة فيهم ، ولذلك فقد بدأ تخطيطاً جديداً لسياسته اساسه الاستعانة بأكبر عدد من الأوروبيين الذين عرفهم في

(١) كتاب الكافي لميخائيل شاروبيم .

رحلاته او وصلوا في زيارات للسودان، فمين شارل ريجوليه الفرنسي ، وسلاطين النمساوي، وجسي واميلياني وميسيداليا من الايطاليين، وجيقلر الألماني وكذلك الدكتور شنيترر الألماني وهو الذي اعتنق الاسلام وسمى نفسه الدكتور أمين . وبلغ عدد الأوروبيين الذين عملوا مع غردون اربعة عشر اشتركوا معــه في الضرب بعنف على تجار الرقيق حسب أوامر غردون .

باستخدام هؤلاء الاوروبيين دخل السودان مرحلة حرجة لان هؤلاء الاداريين كانوا من المسيحيين الذين كانوا يهدفون الى ابتلاع كل البلاد الاسلامية منذ الحروب الصليبية . وشعر السودانيون ان الدول المسيحية قــد تألبت عليهم وأرسلت هؤلاء الاداريين لطمن إسلامهم . وكان لصرامة الاجراءات التي اتخذت ضدهم ما جعلهم يحقدون على الاتراك المصريين الذين جلبوا لهم الكفر الاوروبي . ولم يكن لهؤلاء الاوروبيين ما يميزهم عن غيرهم من السودانيين او المصريين او الاتراك ، بل كان بعضهم من الشباب المندفع مثل سلاطين الذي كان في الخامسة والعشرين من عمره عندما عينه غردون مراقباً عاماً على الضرائب ثم بعد ذلك مديراً على دارفور ، وجسي الذي تآمر مع غردون على حياة سليمان وغدر به وقتله .

محاربة تجارة الرقيق :

ذكر السير آرشر[1] « أن غردون عندما كان يعجز عن معاقبة تجار الرقيق بالقتل رمياً بالرصاص فانه كان يضربهم بالسياط ، ويصادر جميع ممتلكاتهم ، وينزع عنهم ملابسهم حتى يسيروا كما كان آدم يمشي عريان لا يستره شيء » .

كانت تجارة الرقيق هي الشغل الشاغل لغردون اثناء حكمداريتــه في

---

(١) آرشر : الحرب في السودان ومصر .

السودان ، وانتهز فرصة توقيع الخديوي اسماعيل على اتفاقية مكافحة تجـــارة الرقيق مع انجلترا في عام ١٨٧٧ لينزل بتلك التجارة الضربة القاضية . وكانت تلك الاتفاقية تنص على ان يبطل الرق في السودان بعد ١٢ سنة من توقيع تلك الاتفاقية .

لم يحاول غردون ان يجعل إبطال الرق على مراحل بل أراد ان يقضي عليه في اقصر وقت ممكن ، واستطاع في شهرين ان يقبض على اثنتي عشرة قافـلة . لكنه وجد ان الارقـــاء الذين هم في منازل اصحابهم لا يريدون الخروج على مالكيهم إذ كانوا جزءاً من العائلةفي المنزل،لذلك اخذ يسجل اسماءهم وأوصافهم تفادياً لما قد يحدث من خداع واحتفظ للحكومة بالحق للتدخل في شؤونهم اذا دعت الاحوال . واعطى لذويهم ايصالات تثبت أن الحكومة على علم بامتلاكهم ولكن سوف تمنح الحرية الكاملة لهؤلاء بعد ١٢ سنة كما نصت الاتفاقية بذلك . وأخذت هذه الترتيبات جهداً كبيراً توقفت معه كل شؤون الادارة في البلاد .

نتائج ادارة غردون :

عندما عين غردون حكمداراً على السودان لم تكن البـــلاد في حاجة إلى إداريين ليضربوا بيد من حديد . بل كانت في حاجة ماسة إلى من يفهم الموقف ويعمل على إزالة المظالم التي رفعت لغردون في كل مكان اثناء زياراته وطوافه في طول البلاد وعرضها. ولكن غردون لم يتخذ لها حلا مطلقاً . فهو عندما ذهب إلى مديريتي بربر ودنقلا رفع الاهالي اليـه كثيراً من المظالم ، وعند وصوله إلى الخرطوم عرف الحالة التي عليها السودانيون ، ولما بلغ دارفور لاخماد الثورة شعر بعبء الضرائب على الاهلين ، وفي كل مكان وجد ان موظفي الدولة لم يستلموا مرتباتهم لعدة سنوات بسبب الضائقة الماليةوالعجز الذي كانت تعانيه الخزينة.

كل هذه مشكلات كانت تواجه غردون فنسي كل شيء عنها وجعل اكبر همه ان يبطش بتجارة الرقيق بطرق ليست أقل بشاعة من التجارة نفسها .

كان يمكن لغردون أن يتساءل من أين يعيش الموظفون الذين لم يستلموا مرتباتهم طيلة تلك الشهور ؟إن الاجابة على ذلك هي بلا شك مضاعفة الضرائب غير المشروعة على الاهلين لكي يحصلوا منهم على ما يخص الحكومة وما يملأ جيوبهم. وكان يمكنه محاولة الاستجابة الى تلك الظلامات التي تقدم بها الشعب في كل مكان ، ولكنه نسيها تماماً وهو يخوض غمار حرب وهمية مع النخاسة في وقت كان كل من المالك والمملوك لا يشعر بمضايقة الآخر مثلما يشعران سوياً بثقل الادارةالتي فرضتها التركية السابقة وتصرفات غردون الصارمة .فقد كان جنود تجار الرقيق من المملوكين ويعتبرون سيدهم أباً لهم ، وهو يعتبرهم أبناءه كذلك كانت القبائل الزنجية تعيش من وراء هذه التجارة كما مر بنا من قبل . وكان اسوأ ما يفعل غردون هوانه بعد مصادرة قوافل الرقيق يتخذ من الرجال جنوداً ، أما النساء والاطفال فكان لا يعرف ما يصنع بهم وكان يهدي بعض الصبيان لبعض الرحالة الاوروبيين . وكان يضطر احياناً لبيع الاطفال والنساء خارج البلاد فاشترك هو نفسه في التجارة المحرمة[1] .

اخطأ غردون خطأ عظيما حين جعل تجارة العاج الابيض احتكاراً حكومياً، وقد كان يرمي من وراء ذلك أن يمنع تجار الرقيق من مطاردة الرقيق الذين كانوا يتذرعون بالتجارة في سن الفيل . لكنه بهذا المنع ضيق فرص التجارة على الاهالي وأصبحت أعمالهم على أبواب الانهيار الاقتصادي . وكان العاج هو البديل المناسب للرقيق لانه هو المحصول النقدي ، وباحتكاره أضحت سياسة غردون سياسة هدامة لا ترمي إلى بناء مجتمع اقتصادي سليم وتنمية التجارة في البلاد

(١) شكري : مصر والسودان .

والعمل على ازدهارها. ولم يجد السودانيون نفس المعاملة التي عومل بها الاوروبيون حين وافقوا على بيع زرائبهم لتجـــارة الرقيق الى الحكومة ، وحصلوا على تعويضات حسنة بلغ مجموعها مائة الف جنيه . وأعطت الحكومة هذه الزرائب لتجار مصريين مثل أبو عموري والعقاد لإدارتها ، اما التجار السودانيون فقـد خسروا كل شيء . وبالاضافة الى تلك الوسائل فان الحكومـــة أدخلت نظام ضرائب جديدة سميت « الويركو » وكان من شأنها ان يدفع بحارة سفن التجار الذين على النيل ضرائب لانهم يعملون ملاحين في النيل . هذه الاخطاء أشعرت الاهلين بأن الحكومة تؤثر الاجانب على الوطنيين .

اما في المجال الاداري فان الوطنيين كانوا يحملون عداء للنظم التي اتبعها غردون حين استبدل المصريين بالسودانيين ثم هؤلاء بالاوروبيين ، فجعل ثقته في اولئك الذين اعتبرهم الوطنيون كفرة ، وبذلك وضع غردون بذرة التعصب الديني في البلاد بعمله ذلك مقرباً اليه المسيحيين الاوروبيين ليخضع بهم السودانيين المسلمين ، وكانت هذه التفرقة الدينية التي خلقها غردون ذات أثر بعيد في نفوس الوطنيين لانهم اعتبروها حرباً صليبية عليهم الوقوف امامها بالجهاد في سبيل الله ، واصبحت المشاعر القومية والدينية منصهرة ممزوجة لا يمكن ان يفرق بينها ، كما ان الكفر والتركية اصبحا صنوين في أعين السودانيين اذ اقترن كل منهما بالآخر اشد اقتران وصعب التمييز بينهما .

حاول غردون ان ينظم مشكلة الضرائب فعين سلاطين باشا مراقبـاً عاماً عليها وليست له اية خبرة في هذا المضمار ، فكان من نتائج ذلك ان أخفق في وضع حلول لها واستقال من منصبه ، واصبح غردون نفسه حائراً فهو يريد ان يسد العجز الذي تعانيه الحكومة كما انه يريد ان يخفف الضرائب الفادحة التي

شكا منها الاهالي ، ولكنه لم ينجح في الامرين ، واستمرت الازمة الضريبية متفاقمة .

ولما رأى ما عليه المالية من نقصان أمر بإيقاف الخط الحديدي الذي أراد الخديوي اسماعيل ان يمده من حلفا الى الخرطوم ، وكان الخط قد امتد مسافة ٥٠ ميلاً وكان من المؤمل ان يزيد ارتباط مصر بالسودان كما انه من الناحية الحربية كان مفيداً لمصر . ولولا وقوع الخديوي فريسة للديون الاجنبية لتم قيام ذلك الخط واصبحت تجارة السودان عن طريقه .

وبتوقف بناء هـذا الخط فقدت التجارة السودانية احسن الفرص لتصدير حاصلات البلاد إلى مصر وخاصة الثروة الحيوانية ، وبتوقفه أضاع غردون على السودان فرصة الالتقاء السريع بالمدنية الغربية ، وهـذه صورة اخرى واضحة لسياسة غردون السلبية في معالجته للمشكلات المالية والادارية. ولو نمت التجارة المشروعة بفضل تقدم المواصلات لخفت تلقائياً النخاسة وانصرف الناس عنها . ولكنه أحسن التصرف حين لاحظ آنذاك أن الدول الاوروبية التي بدأت تطالب الخديوي بتسديد الديون التي عليه أخذت تنظر الى السودان على أمل أن تدفع من ميزانيته أقساط تلك الديون . ولذلك فانه عمد إلى فصل المالية السودانية من المالية المصرية وذلك لكي يجنب السودان أية مضايقات مالية تعقد الموقف .

وهكذا يظهر جلياً أن ادارة غردون ضاعفت المشكلات ، وتركتها بدون حل ، وأضافت اليها مشكلات جديدة . وكانت ادارته قد جعلت من البـلاد أخصب مرتع لثورة جامحة اضطر أن يقوم بها شعب أعزل من السلاح .

الاصلاحات في عهد اسماعيل

(١٨٦٣ – ١٨٧٩)

الحكمداريون في عهد اسماعيل :

موسى باشا حمدي	١٨٦٢ – ١٨٦٥
جعفر باشا صادق	١٨٦٥ – ١٨٦٥
جعفر باشا مظهر	١٨٦٥ – ١٨٧١
ممتاز باشا	١٨٧١ – ١٨٧٣
أسماعيل باشا ايوب	١٨٧٣ – ١٨٧٧
غردون باشا	١٨٧٧ – ١٨٧٩

التعليم :

اظهر الخديوي اسماعيل اهتماماً عظيماً بامبراطوريته في افريقيا وخاصة السودان ولم يترك جانباً يمكن للاصلاح ان يطرقه الا فعل . واهتم بوجه خاص بالتعليم فأمر بفتح عدة مدارس ابتدائية في المدن الرئيسية مثل الخرطوم والأبيّض وبربر ودنقلا و كسلا وذلك ليتلقى فيها ابناء الموظفين المصريين العلوم ، وقد كانت مفتوحة لمن يريد من السودانيين الذين تلقوا تعليمهم فيها ثم اصبحوا من موظفي الدولة والتحقوا بسلك الكتبة والمحاسبين والعاملين على التلغراف .

وكانت الكتاتيب (الخلاوي) منتشرة في السودان حيث يدرس القرآن

وبعض العلوم الدينية ، وكانت هذه الكتاتيب تتفاوت في اهميتها حسب شهرة الفقهاء الذين يمارسون التدريس فيها . واتخذ اسماعيل سياسة مساعدة هذه الكتاتيب بدفع مرتبات شهرية للفقهاء الذين كانوا مسؤولين عنها ، وشجع ذلك رجال التعليم الديني لكي يمضوا قدماً في ابقاء الخلاوي حية . وكان من الواضح ان السودانيين لا يثقون في علوم غير الفقه والدين واستهوتهم هذه العلوم ولذلك رغبوا في تعلمها دون غيرها . وكان اثر هذه الخلاوي كبيراً وظاهراً على السودانيين ، كما انها ساعدت على جعل الكثيرين منهم يكتبون ويقرؤن وذلك لأداء صلواتهم فكان لا بد لهم من حفظ القرآن . واستمسك السودانيون باصول الدين الاسلامي وقبلوا دروسه وتشربوا بتعاليمه وأصبحوا يميزون بين الحكم الاسلامي كما ينص عليه الشرع والحكم التركي المصري الذي احاط بهم في البلاد ، وهنا تكمن أهمية هذه الخلاوي لأن نفوذها على الروح السوداني كان عظيماً وعميقاً .

الزراعة :

بلغ اهتمام بعض الحكام المصريين في السودان بالزراعة مبلغاً يضارع اهتمام محمد علي باشا فقد كان ممتاز باشا محافظ سواكن من الذين اهتموا بزراعة القطن في دلتا خور بركة بطوكر ، ونجحت التجارب التي اجراها لزراعته حوالي سنة ١٨٦٥ م ، ومنذ ذلك الوقت اصبحت طوكر من اهم الاراضي التي يزرع فيها القطن بالسودان . وبدأت التجارب في زراعته ايضاً في خور القاش ، ثم جلب محالج الى سواكن لترحيلها الى كسلا لحلج قطن القاش ، ولكن ترحيل تلك الآلات اصبح من الصعوبة بمكان ولذلك لم ينجح المشروع .

وشارك ممتاز باشا في اهتمامه بالزراعة الاداري السوداني حسين بك خليفة الذي كان مديراً على بربر فانه عمد الى تشجيع الاهالي على زراعة كل الأراضي

التي هجرها اهلها فراراً من الضرائب،وشجعهم على الري بالقنوات على الطريقة المصرية ولكن جهوده لم تكن مثمرة بقدر ما بذل من جهد وتشجيع .

المواصلات :

اهتم اسماعيل بالمواصلات على انواعها فهو أراد ان يقوم ببناء خط للسكة الحديدية من حلفا الى السودان ولكن هذا الخط الحديدي توقف بسبب الأحوال المالية التي كانت عليها مصر والسودان . أما في مجال المواصلات التلغرافية فان شبكة طولها ٨٠٠٠٤ ميل من الأسلاك قد ربطت بين عدد كبير من اجزاء السودان وامتدت هذه الشبكة فربطت بين مصر والخرطوم ايضاً سنة ١٨٦٩ .

ووصلت الى الخرطوم بعض البواخر النيلية وكان بعضها يبحر في جنوب السودان منذ ان كان صمويل بيكر حاكماً هناك ، وبعضها كان في الخرطوم ويجوب النيل شمالاً والنيل الأزرق والأبيض جنوباً . وبلغ عدد السفن النيلية حوالي العشرين منها بوردين ، والصافية ، والاسماعيلية ، والفاشر ، ومحمد علي والمسلمية ، والتوفيقية ، وقد استولى الانصار عليها وهي في حالة سليمة ، واضافوا اليها الباخرة الزبير التي اسماها المهدي الطاهرة . وكانت هناك بعض البواخر الاخرى وهي تل حوين والمنصورة وعباس والحسينية وشبين . وكانت أقصى سرعة لهذه البواخر ثمانية أميال في الساعة وأبطأ سرعة ستة أميال . ثم طور الترسانة في الخرطوم وذلك لاصلاح الأضرار التي تصيب تلك البواخر وبذلك جعل من الممكن ان تنتظم الملاحة الحكومية في البلاد .

لكن هذه الاصلاحات لم تكن واسعة الأثر في البلاد ولم يجد الأهلون فيها ما يفيدهم مباشرة ، وانشغلوا عنها بالمظاهر السيئة للحكم المصري .

وفي سنة ١٨٧٩ اضطر الخديوي اسماعيل الى اعتزال الحكم في مصر بسبب الضغط البريطاني الفرنسي عليه وذلك لانه أغرق مصر في الديون من الدوا

الاجنبية ولم يستطـــع تسديد تلك الديون . وباعتزاله الحكم رأى غردون ان موقفه في السودان سيصبح ضعيفاً اذ أن يده لن تطلق في ادارته حسبما يريد كما سمح له اسماعيل ولذلك فانه استقال ايضاً في نهاية سنة ١٨٧٩ ، وحل مكانــه محمد رؤوف باشا الذي عزله غردون من محافظة سواكن ، وأصبح رؤوف باشا حكمداراً على السودان ولكن قيده الخديوي في تصرفاته ، وأمره بان يرجع الى النظارات (الوزارات) المصرية المختصة في القاهرة في كل شأن .

لكن رؤوف وجد أن الاحوال في السودان قد وصلت حــداً من السوء لا يمكن لمثله معالجته ، وكانت البلاد تنتظر المنقذ الذي يخلصها من استعباد ستــين عاماً ، وكان الشعور العام مهيئاً ولكنه يحتاج الى القائد الثوري الذي يستطيـع ان يوحد القبائل المتنافرة ، ويؤجج الشعور القومي ، ويهيـج العقيدة الاسلامية، ويقلب الضعف قوة والسكون هجوماً ، والهزيمة نصراً .

كانت البلاد في حاجة الى من يهديها الى طريق الاستقلال والحرية والشرف.



٥

الثورة المهدية وحروب الاستقلال

« ... انني اعتقد بأنه في الأعوام المقبلة عندما يعم الرخاء مكان السودان ، وينتشر العلم والسعادة فان اول مؤرخ عربي عندما يبحث في زوايا التاريخ القديم للامة السودانية الفتية لن ينسى ان يكتب في طليعة أبطـــال الشعب العربي اسم محمد احمد » .

تشيرشل : حرب النهر

في « لبب » إحدى جزر النيل الواقعة بالقرب من مدينة دنقـــلا في شمال السودان ولد محمد احمد بن السيد عبد الله في سنة ١٨٤٤. وكان أبوه يعمل في بناء المراكب النيلية يساعده في ذلك أبناؤه الكبار ، إلا أن محمد احمد هوي العـــلم منذ ان كان يافعاً،ورغب في الارتشاف من مناهله مريداً من ذلك أن يفقه نفسه في الدين. وكانت رغبته هذه تتزايد كل يوم فأخذ يلج المدارس القرآنية فيالبلاد من مكان الى مكان، فرحل مع والده الى كررى بالقرب من أم درمان حين انتقل اليها أبوه لبناء المراكب ، ودخل هو كتاب القرية، ثم انتقل الى أحد « خلاوي» الخرطوم. ولكنه وجد العاصمة لها ضجيج وبريق لا يهيئان الجو للنسك والعبادة فآثر أن يرحل الى احدى قرى الجزيرة ليتلقى العلم على أحد الاساتذة هناك .

ولم يمكث هناك طويلاً إذ سمع باحدى خلاوي الشمال حيث كان علماء الغُبُش يلقون دروسهم في مدرستهم العتيقة التي كان يعلم فيها الشيخ محمد الخير .

ولزم محمد احمد استاذه الجديد حقبة من الزمن وهو يحاول ان يسلك طريق الرشاد في سره وعلانيته ، متمسكاً بأهداب الدين ومثله العليا . وفي مدرسة الغبش اشترط التلميذ على استاذه بعض الشروط ، فقد أخبر الشيخ محمد الخير بأنه لا يستطيع ان يسمح لنفسه ان يقدم له شيخه طعامـاً اشتراه من المرتب الذي يتقاضاه الشيخ من الحكومة نظير تدريسه في تلك الخلوة . ولما استفسر الشيخ عن السبب افضى اليه تلميذه بأنه يعتقد بأن ذلك المرتب قد دفع للشيخ من اموال دافعي الضرائب من السودانيين الذين جارت عليهم الحكومة وظلمتهم ، وانـه ليس هناك وجه حق شرعي في جمع تلك الضرائب من المسلمين. وعجب الشيخ من حديث تلميذه محمد احمد ولم ينكره عليه ، واتفقا على ان يأكـل التلميذ من حصاد ارض استاذه وكان يسهم في زرعها وحصدها .

وكان محمد احمد على حداثة سنه آنذاك يتجنب كل ما اشتبه فيه حتى اذا ضاقت نفسه في مأكلها خرج الى النيل يصطاد . ولكنه كان يحاسب نفسه في كل صغيرة وكبيرة حتى انه كان يرمي سنارته الى الماء دون ان يضع فيها الطعم واذا قيل له بأن يضع الطعم رفض ذلك رفضاً شديداً وقال انه لا يستطيع ان يغش السمك لان الغش ليس من شيمة المسلم ، ويتمثل بالحديث « مَن غشنا فليس منا » .

هكذا وضع محمد احمد لنفسه أسساً للحياة منذ حداثته ، ولم يشأ بأن يحيد عنها حتى اذا بلغ سن الشباب تاقت نفسه للتصوف ، والانقطاع للعبادة ، وكان شأنه في ذلك ان يتلقى التصوف على يد احد قادة الصوفية ومشايخهم المشهورين في البلاد . لذلك التحق بالشيخ محمد شريف نور الدائم احد مشايخ الطريقـة السمانية سنة ١٨٦١ ومكث في حلقة هذا الشيخ يدرس مبادىء الصوفية ، ويعي

تعاليمها . ولكن ذلك لم يكن ينسيه واجبه في الحياة من ان يكسب من عمله حين يتلقى دراسته . وكما كان يحمل النبي (ص) الحطب لاصحابه في احدى أسفاره ، ويحمل اللبنات عند البناء كذلك اتخذ محمد احمد هذه السيرة نبراساً له في حياته ،فقد كان وهو فيمدرسة الشيخ محمد شريف يحتطب ، وينظف ويعمل كل ما يأنف غيره ان يقوم بعمله. وكان كل من شيخه وزملائه يعجبون من ذلك الفتى الذي انفرد بخصال غريبة . وكانوا يرونه يكثر من التهجد والعبادة فاذا رأ القرآن اخضلت عيناه بالدموع ، واذا قام الليل عرته نوبات من البكاء تثير الخشوع في نفسه وفي غيره . وفي مدرسة الشيخ محمد شريف كان محمد احمد شاباً امتلأ قلبه ايماناً وورعاً ونسكاً ، ورضي عنه شيخه فمنحه الاستاذية بعد دراسة امتدت الى سبع سنوات .وسافر منه محمد احمد وقد ودعا بعضهما أحر التوديع، وخرج محمد الفتى يضرب في الارض علّه يجد شيئاً من رزق الله. فاشتغل حطاباً، وجمع الحطب يريد ان يبيعه في السوق ، وجاءته امرأة تشتري منه ، فوجدته لا يطلب مالاً كثيراً لحطبه ، وقبلت ان تشتريه ، فسألها عما تريد ان تفعل به كله، فأجابت بأنها تريد ان توقد به ناراً تقطر عليها خمراً . فهاله الامر ، ورفض البيع ، وهجر تجارة الحطب من وقته ذلك ، فما كان لمثله ان يساعد على تقطير أم الكبائر .

ثم خرج مع احد أقربائه يتاجران في الذرة ، واشتريا شيئاً منها ، وأراد شريكه ان ينتظرا ارتفاع الاسعار حتى يجدا ربحاً وفيراً ، ولكن محمد احمد لا يريد عرض الدنيا وربحها الوفير ، ولا يطيق ان يكسب الا القليل ، فاختلف مع شريكه ، وانفضت شراكتهما وباع محمد احمد ما يخصه من ذرة في الحال . ورأى ان التجارة والمال فتنة ، وحري به أن يبتعد عن تلك الفتنة ، فترك التجارة ، وهو يبحث لنفسه عن الطمأنينة ، ويفتش عن الهداية حتى بلغ جزيرة «أبا» فوجد فيها غاراً فالتجأ اليه يذكر الله في سره وعلانيته، ويحاسب نفسه في

كل صغيرة وكبيرة ، ويفكر في خلق السماوات والارض طالباً الرحمة له وللمسلمين ، والهداية للعالمين .

وعملاً بالحديث « خيركم من تعلم العلم وعلمه » فقد رأى انه يجب عليه ان يبدأ في تعليم غيره كما تعلم. وفي جزيرة أبا سنة ١٨٦٨ أخذ نصيبه من الخلود الى الخلوة والعبادة ، وما كان له من وقت جعله لتعليم غيره من الناس . وسار ذكر ذلك الشاب المتعبد مع المراكب النيلية التي كانت تذرع النيل الابيض شمالاً وجنوباً ، فطار صيته كعابد متبتل ، وزاهد منقطع ، وحمل الناس الهدايا الى مدرسته لينفق منها على تلاميذه ، كما تبركوا بزيارته ، وسكنت نفوسهم برؤيته لصلاحه وتقواه .

فرح محمد احمد لما لقيت مدرسته من نجاح ، وما وجدت طريقته من رواج ، فكتب الى شيخه الشيخ محمد شريف ليرحل الى النيل الابيض ويقيم في احدى قراه لان اهالي تلك المناطق كانوا يتوقون إلى تعليم الطريقة واصول الدين ، وهي منطقة لم تكثر فيها الخلاوي مثل الجزيرة . وسمع الشيخ نصيحة تلميذه فجاء الى العرديب احدى قرى النيل الابيض ثم ما لبث ان وجد صيت تلميذه محمد احمد قد ملأ البوادي في تلك المنطقة وانه ليس له مجال في تلك البقاع بالرغم من ترحيب تلميذه به ، واحترامه ، حسن استقباله له ، فعاد الى مقرة في قرية بشمال الخرطوم تاركاً احد اتباعه في تلك المنطقة التي دله عليها محمد احمد .

لم يشأ محمد احمد ان تنقطع الاسباب بينه وبين شيخه ولذلك فقد كان يزوره في قريته كل آونة واخرى . وكان الشاب محمد احمد قد بدأ ينضج فكرياً وعاطفياً ، فهو غيور على الاسلام والشريعة ، وهو ناقد دارس لاصول الدين ، وهو مع هذا وذاك يؤثر رضا الله على سخط العباد . وفي احدى زياراته لاستاذه رآه يسمح للنساء بتقبيل يده ، فهاله الامر ، وأفصح عما في ضميره لاستاذه طالباً

منه ان يعترض على تلك العادة . ثم مـــا لبث ان رأى استاذه يسمح بالرقص والطبل والغناء في احتفال كبير لختان انجاله ، واعترض ايضاً على ذلك .

رأى محمد شريف ان تلميذه الشيخ محمد احمد قد اشتط عليه كثيراً ، وشعر بأن انتقاده له قد سبب له حرجاً كبيراً ، فاستشاط غضباً على تلميذه ، وطرده من مجلسه ، وأعلن قطعه لكل صلة به . وهنا طلب التلميذ من شيخـــه العفو والصفح فهو ما كان يريد ان يجلب لنفسه عداوة استاذه ، ولكنه كان يريد الحق ويلتزم به . ولم تفد توسلاته ، ولم تفعل شيئـــاً أعذاره ، فخرج من عند أستاذه وعاد الى الغار في جزيرة «أبا» وهو يطلب من الله أن يجعل الصواب طريقه ، والهداية سبيله .

أراد محمد احمد ان يكون له شأن في إعادة الاسلام الى سيرته الاولى ، وعرف أن طريق القيادة لذلك لا يأتي الا اذا احتل مركزاً دينياً مرموقاً ، وكان يشعر بأنه حتى ذلك الحين لم يصل بعد الى الطور الذي يصبو اليه ، ورأى أن في اختلافه مع استاذه ما يجعل الطريق الى القيادة غير معبد تماماً ، لذلك لجأ الى الشيخ القرشي وهو الخليفة الاصلي للطريقة السمانية ، وذهب اليه في قريته قرب المسلمية وجدد العهد عليه . فرحب به القرشي إذ كان صيت محمد احمد ونسكه وخلافه مع محمد شريف قد بلغ كل مكان ، وكان عهداً جديداً بين الرجلين ، وأكد القرشي مشيخة محمد احمد في الطريقة السمانية . ثم رجع الشيخ محمد احمد الى جزيرة أبا وبدأ خطة جديدة يعبد بها الطريق للمستقبل ، فقام برحلات طويلة بين جزيرة أبا ودنقلا في شمال البلاد . وكان طيلة الطريق يقوي صلاته الروحية والفكرية برجال الدين والعلماء والفقهاء الذين كانوا منتشرين في كل مكان . وبعد أن أتم رحلته الى الشمال توجه الى الغرب فسار الى كردفان ، ونزل بعاصمتها الابيّض ، واتصل بكبار السودانيين هناك ولمس شعورهم نحو الحكومة ، ولمس ضجر الأهلين عامة من الحيف الذي كانوا يلاقونه . وكانت اتصالاته تلك اشبه ما تكون باتصالات النبي (ص) بأهل يثرب ، ومناجاته لهم قبل ان يهاجر اليهم .

وكان من الواضح ان محمد احمد يسير على خطة مدروسة وأنه كان يتأثر النبي (ص) في جهاده ضد القرشيين وكفار الجزيرة العربية . وكان الناس يلقونه بالحفـاوة والاكبار فقد عرفوا فيه التقوى والورع . وكانوا يجلون أمثاله من العلماء المتقين. وكان من بين من اتصل بهم في الابيّض الياس أم برير مدير كردفان السابق الذي عينه غردون ثم فصله من الادارة ، واجتمع به آخرون من أعيان الابيض ، ولم يعد منها إلا بعد أن ترك فيها أثراً طيباً ، وأحباباً ومريدين .

وما لبث الشيخ القرشي قليلاً حتى مات ، واشترك تلاميذه ومن بينهم محمد احمد في بناء ضريحه ، وأقاموا عليه قبة كما جرت العادة في البلاد عندما يموت مشايخ الصوفية ، وكبار علماء الدين. وهناك في أثناء بناء الضريح التقى محمد احمد برجل يدعى عبد الله التعايشي . وكانا يعملان جنبا الى جنب في حمـل الطوب وبنائه ، واتصلت الاسباب بينهما ، وربطتهما صداقة متينة . وكان عبد الله مأخوذاً بشخصية محمد احمد وورعه وتقواه وعلمه . وكان محمد احمد معجبـاً بذكاء عبد الله بالرغم من علمه القليل ، وبصبره وجلده إذ جاء من أقصى الغرب بالسودان الى الجزيرة للالتقاء بمحمد احمد وهو يسير بلا زاد ولا مال . وكان محمد احمد معجباً ايضاً باخلاص عبد الله فيما يقوم به من عمل في البناء ، وجمـع الله بينهما في تخليد ذكرى القرشي والتزما بالتعاون مع بعضهما بعضاً منذ ذلك اللقاء حتى عادا سوياً الى جزيرة أبا حيث أخذ عبد الله يتلقى العلم على يـد صديقه وأستاذه محمد احمد . وهناك أسر محمد احمد لصديقه وتلميـذه عبد الله التعايشي بأنه اصبح يرى النبي (ص) وهو يقظان ، وان النبي أخبره بأنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الارض عدلاً بعد ان مُلئت جوراً وظلماً ، كما انه أسر لخاصة تلاميذه بذلك .

كان ذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ هـ (مارس ١٨٨١) وكان القرن الثالث عشر للهجرة قد شارف النهاية ، وكانت السير تقول بأنـه في رأس كل قرن سيجيء مصلح بعيد للاسلام حسن سيرتـه . وكان السودانيون خاصة

والمسلمون عامة يتوقعون ظهور المهدي لأن العالم قد ملئ جوراً وظلماً ، فلا بد ان يظهر المهدي ليملأ العالم عدلاً وانصافاً . هكذا كان الشعور في السودان ، وهكذا كان السودانيون ينتظرون الفرج القريب .

وكما كان النبي يفعل حين جاءته النبوة وذلك بتبليغها لخاصته ، وأصحابه وآل بيته كذلك فعل محمد احمد فقد أسر لتلامذته الذين يدرسون في خلوتـه بأنه المهدي ، وانه اختص بقيادة المسلمين وابعاد الظلم ، وجعل العدل مكانه . وبايعـــه تلاميذه وخاصته على نصرة المهدية ، ومنذ ذلك الوقت سمي كل من ناصره بالأنصار كما سمى النبي اهل يثرب بالأنصار ، وسمى نفسه محمد المهدي .

رأى المهدي أن يجدد العهد بزيارة كردفان فقد كان يرى فيهـــا خير مكان لنشاط الثورة التي يزمع إثارتها ، ولذلك فقد خرج للمرة الثانية ومعه بعض تلامذته وقد لبسوا الملابس المرقعة الالوان وهي التي عرفت فيما بعـــد بجبب الانصار ، وكان الغرض من ترقيعها إظهار الزهد في الحياة الفانية والاستعداد للحياة الباقية . وفي كردفان اتصل برجال الدين وأسر اليهم انه المهدي المنتظر إلا انساعة ظهوره لم يحن وقتها بعد. ثم اخذ يعظهم، ويذكرهم بالله وبمسؤوليتهم نحو الدين ، ولم يرحل عنهم إلا وقد خلف صدى طيباً في نفوس الاهلين ، وأصبحوا ينتظرون الفرج القريب .

عرج بعد ذلك على جبال النوبة ، وهناك التقى بالملك آدم أم دبالو ملك جبال تـَقَلي ووعده الملك آدم بالمساعدة والوقوف معه ضد قوات الحكومة . وكان المهدي طيلة تلك الرحلة يراقب البلاد ويتخير الأماكن الحصينة حتى اذا اضطر الى التقهقر ذهب اليها . وكان في رحلاته هذه قد أمن لنفسه كثيراً من الاراضي التي سوف تمكنه من الوقوف في وجه الحكومة اطول وقت . وعمل حساب الزمن بحيث كلما طال كان في صالحه بقدر ما هو مضر للحكومة .

اما الدعوة الى المهدية فقد زادت في اواخر يونيو ١٨٨١ (شعبان ١٢٩٨) إذ بدأ المهدي في إثارة حرب فكرية ضد الحكومة لأنه في ذلك التاريخ بدأ يكتب الكتب الى كل من عرف من الفقهاء والقضاة والاعيان ومشايخ الطرق وزعماء القبائل طالباً منهم الانضواء تحت رايته ، ومبايعته بالمهدية ، والهجرة اليه في جزيرة ابا والنهوض الى الجهاد تحت بنوده عند حلول شهر رمضان . فكان مما قاله :

« ... فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى أحبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه . اما بعد فلا يخفى تغير الزمن ، وترك السنن ، ولا يرضى بذلك ذو الايمان والفطن ، بل أحق ان يترك لذلك الاوطار والوطن لاقامة الدين والسنن ، ولا يتوانى عن ذلك عاقل لان غيرة الاسلام للمؤمن تجبره ... قال تعالى « واتبع سبيل من أناب إلي ... » فاذا فهمتم ذلك فقد أمرنا جميع المكلفين بالهجرة الينا لاجل الجهاد في سبيل الله او الى اقرب بلاد منكم لقوله تعالى : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » ... فاذا فهمتم ذلك فهلموا للجهاد في سبيله ولا تخافوا من احد غير الله لان خوف المخلوق من غير الله يعدم الايمان بالله والعياذ بالله . قال تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشوني ... » وقد وعد الله في كتابه العزيز بنصر من ينصر دينه ، قال تعالى : « ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت اقدامكم ... »

هكذا بدأ المهدي جهاده بكتابة المنشورات والكتب ، وكان الذين يستلمون الكتب يسكتون عليها ولا يبلغون امرها الى الحكمدارية حتى كتب المهدي وهو في أبا للحكمدار رؤوف باشا[1] ينصحه فيها بمبايعته على انه المهدي المنتظر ويدعوه الى الحق ، كما نصحه محمد شريف بأن يقضي على المهدي في الحال قبل ان

---

(١) كتابه لفردون – منشورات المهدي ص ١٠٩ .

يتفاقم امره ، لكن الحكمدار محمد رؤوف باشا لم يتخذ خطوة حاسمة لانـــه كان يعتقد بأن محمد شريف يريد ان يوقع بتلميــذه السابق بسبب ما بينهما من خلاف ، كما انه لما احضرت اليه المنشورات لم يصدق ان الشيخ الورع محمد احمد الرجل الصالح قد كتبها ، لذلك كتب اليه يستفسر عن الامر . فكان مما رد به المهدي على الحكمدار قوله :

« ... من عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله الى الحكمدار بالخرطوم . وبعـد فعلى مقتضى المكاتبـــة فالامر المطلوب كشفه ان دعائي الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية أمر من سيد الوجود (ص) ، والإعلام بأني المهدي المنتظر من سيد الوجود (ص) . فمن تبع صار من المقربين والفائزين ، ومن خالف خذله الله في الدارين ، وصده بقوته التي يعجز عن معارضتها جميع العالمين ... والسلام » .

رأى الحكمدار أن الامر اصبح يستحق اهتماماً اكثر ، وبعـد التداول في الرأي مع مستشاريه أقر الرأي بأن يذهب احد معاوني الحكمدار وهو محمد ابو السعود لينصح الشيخ احمد محمد عـله يثوب الى رشده . ووصل ابو السعود الى جزيرة أبا في ٧ اغسطس ١٨٨١ (١١ رمضان ١٢٩٨) ، وهناك حاول إثنـاء محمد احمد عن نشاطه ، ولكن جهوده لم تثمر بشيء لأن محمد احمد أصر على أنـه ولي الامر وعلى الحكمدار وغيره ان يبايعوه ويطيعوه . فهدده ابو السعود بقوة الحكومة ، ولكن محمد احمد لم يكترث ولم يخف . فرجع ابو السعود الى الخرطوم ليخبر الحكمدار بما دار .

الواقعة الاولى : أبا – ١٢ اغسطس ١٨٨١

لما رأى رؤوف ما يرمي اليه المهدي عمد الى تجهيز الجنود لقتـال المهدي في

أبا ، فارسل ٢٠٠ من الجنود وبعض الضباط تحت إشراف ابي السعود وخرجوا الى ابا لاستئصال شأفة المهدي وتلامذته ، وإخماد أنفاسهم الى الابد .

أما المهدي فقد كان يتوقع صداماً حربياً مع جيوش الحكومة فكلم تلاميذه ومريديه فبايعوه على الوقوف معه مهما كانت النتائج. وأصبح معه حوالي المائتين من الرجال تسلح بعضهم بالعصي والرماح والسيوف والحجارة ، واستعدوا لمجابهة الموت والاستشهاد في سبيل الله أو النصر على أعدائهم.

ونزل الجنود الى الجزيرة في شيء كثير من عدم الاكتراث فقد كانوا يحسبون أن مجرد ظهورهم في الجزيرة سيثير الرعب في المهدي واصحابه . ولكن ساء ما توهموا إذ سرعان ما انقض عليهم المهدي ورجاله في أجمة كثيرة الاشجار والوحل، وهجموا عليهم بأسلحتهم البدائية . ولم يمض وقت طويل حتى كان اكثرهم قد لقوا حتفهم بينما هرب قليل منهم الى الباخرة التي كانت تنتظرهم في الشاطيء لحمل المهدي الى الخرطوم . وبدلاً من أن يحملوا المهدي أسيراً هربوا بها ليحملوا للحكمدار نبأ اول هزيمة منيت بها الحكومة التركية المصرية منذ ان فتح اسماعيل السودان قبل ستين عاماً . وكانت واقعة أبا في مساء ١٦ – ١٧ رمضان ١٣٩٨ وذلك يوافق تاريخ انتصار النبي (ص) على قريش في واقعة بدر الكبرى في ١٧ رمضان سنة ٢ هـ .

وكانت تلك اول هزيمة يوقعها السودانيون بالحكم التركي المصري منذ ان فتح محمد علي السودان ، ورأى السودانيون كيف استطاع ابناء وطنهم ان يتغلبوا بالرماح والسيوف والعصي على البنادق والرصاص ، وأيقنوا أنه لولا تأييد الله لما حدثت تلك المعجزة .

أسباب الثورة المهدية :

ومن الواضح ان قائد الثورة كان رجلا دينيـــاً وهب نفسه لنصرة الدين وتعاليمه ، وكان ظهوره في وقت نشطت فيه الطرق الصوفية في البلاد، وتعددت فيه المدارس القرآنية والدينية في بلد كان يؤمن بان سلطان الدين يعلو فوق كل شيء . وكان السودانيون على اختلاف قبائلهم يرون ان الزمان يسير من سيء الى اسوأ . وأن الدين لم يعد في صفائه ونقائه . وكانت نفوسهم تتوق الى ايام الاسلام الاولى حيث لا عسف ولا جور . وكان محمد احمد يهدف اساساً الى جعل الدين الاسلامي هو المتمكن في الارض ، ولا يتأتى ذلك اذا كانت الحدود والشرائع معطلة كما كانت الحال عليه آنذاك ، بل كان يهدف الى اقامة حكومة اسلامية تحكم بالشرع ، وتجلو الظلم ، وتنهي الجور والفساد .

بحث محمد احمد عن انصاره بين تلاميذه من الذين يدرسون الدين عليـــه ، وطلب من رجال الدين في كل انحاء القطر ان يشدّوا ازره ، ويعينوه في الجهاد في سبيل الله ، ولذلك فان من الجلي ان المهدي كان يرمي من وراء ثورته تلـــك الى اقامة دولة اسلامية دستورها القرآن وقانونها الشرع . فالحركة اساساً إصلاح ديني . وكان السودانيون يتوقون الى اقامة مثل تلك الدولة لأنها سوف تحـــكم بالعدل . وشغف السودانيون شغفاً شديداً بالدين حتى إنهم لما تولى اراكيل بك الأرمني مديرية الخرطوم ثاروا عليه لأنه مسيحي ولم يقبلوا ان يطيعوه. وشغفهم بالدين ودولة الاسلام الموحدة هو الذي جعل الزبير باشا يسلم فتوحاته كلهـــا للخديوي اسماعيل على اساس انـــه يطيع اولى الامر من المسلمين تلك النزعة الدينية هي التي اخضعت البلاد لسلطان محمد علي ، ولم يكن في البلاد مفكر ديني يهاجم ذلك الوضع او يحاول تغييره . وكان المهدي اول من قـــال ذلك اذا استثنينا المهدي الاول الذي ظهر في عام ١٨٢٤ ثم انهارت مهديته لأن محمد احمد المهدي قارع الحجة بالحجة واجاب ابا السعود حين طلب منه ان يعمـــل بقوله

تعالى « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » بانه هو ولي الامر وان الواجب على كل المسلمين في كل انحاء العالم ان يبايعوه ويطيعوه . وهكذا قلب المهدي الفكر العتيق ، واحدث هذه الثورة الفكرية والحربية كما رأينا في واقعة « أبا ».

لم تكن الطاعة للمهدي هي كل اسباب الثورة بل إن محمد احمد المهدي كان منذ فجر حياته ثائراً على الضرائب التي وضعتها الحكومة ، وانتقدها منذ ان كان مع محمد الخير تلميذاً ، وكان يشعر بأن تلك الضرائب مثلها كمثل الجزية في الاسلام ، ويجب الا تؤخذ من المسلمين ، كما يجب ان تكتفي الدولة بالزكاة فقط ومن هنا كانت ثورته المالية الدينية على حكومة التركية السابقة . ومما لا شك فيه ان كل السودانيين كانوا ناقمين على تلك الضرائب المجحفة وانها كانت تمسهم جميعاً بشرها ولذلك فهي قد وحدت بينهم حين فرقتهم القبلية .

ولم تكن فداحة الضرائب فحسب من أهم اسباب الثورة بل كانت هناك مساوىء اخرى وخاصة الطريقة التي كانت تتبعها الحكومة في جمع الضرائب لأنها كانت من اسوأ الطرق وأعنفها ، ويكفي ما قاله محمد شريف استاذ المهدي في قصيدة يناوىء بها المهدي بإيعاز من الحكمدار عبدالقادر باشا ويحاول ان يذمه ويبطل دعواه للمهدية .

وما أبت السودان حكم حكومة	الى أن أتى ضعف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمير وحده	وللشيخ والنظار أضعافه فادرِ
بضرب شديد ثم كف مؤلم	ومن بعده الإلقاء في الشمس والحر
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم	وأشنع من ذا كله عمل الهر

فان الشيخ محمد شريف وقد كان من الموالين للحكم المصري يظهر أن المسألة بالاضافة الى الضرائب المضاعفة بسبب مطالب مصر والحكومة والشيخ والناظر

فان هنالك الضرب وحبس القطط في سراويل الرجل لإجباره على الدفع. وكان الشتم بأقذع الألفاظ يصحب هذه الاعمال حتى ان المهدي "عندما استقل بالسودان منع الشتم بتلك الالفاظ وهي ع . ص ، وذكر هوسكنز بأن لفظة ع . ص كانت كثيراً ما تلوكها ألسن الجنود حين يجمعون الضرائب بالعنف من الأهلين وكان هذا اللفظ يثير كثيراً من الامتعاض في النفوس . وفي كل الامبراطورية العثمانية كانت الضرائب وطريقة تحصيلها من أهم دوافع الثورات .

وكان الجنود الذين يجمعون الضرائب من جنود الاتراك والمصريين والشايقية . وكان الأواخر من أعمدة الحكم التركي المصري في البلاد، وشعر بقية الاهلين بأنهم طبقة خاصة منحتها الحكومة كثيراً من الامتيازات منها السيادة على بقية القبائل الاخرى بسبب مناصرتهم للحكام . وكان الشايقية على كثير من عدم الوفاق مع عدد من القبائل منها الدناقلة والجعليين والعبدلاب. وذلك قبل دخول اسماعيل فاتحاً للسودان ، فلما فتحت البلاد علت سطوة الشايقية على الآخرين اكثر ولذلك فان الشايقية والتركية السابقة كانا حليفين رأى الثائرون النهوض ضدهم .

وكما كانت طبقة الأغنياء النبلاء في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية هي من اكثر الطبقات حظاً وذلك لاستطاعتها التهرب من دفع كثير من الضرائب بسبب نفوذها فكذلك كان الحال في السودان مع الاغنياء الأجانب فان الضرائب عليهم كانت قليلة جداً متى قيست بأرباحهم وثرواتهم وذلك لانهم كانوا قادرين على دفع أية رشوة للحكام والمديرين الذين كانوا يتغاضون عن تلك الطبقة الغنية الاجنبية .

ويذكر بعض المؤرخين لهذه الحقبة سبباً آخر للثورة هو ابطال تجارة الرقيق التي وضع اساسها غردون غير ان هذا السبب لم يكن قوياً في حد ذاته لأن الفترة التي قضاها غردون في محاربة الرق كانت قصيرة وحديثة ولم تزد على بضع قوافل

تم الاستيلاء عليها ، اما الرقيق المملوك في البيوت فلم يتغير وضعه مطلقاً ولذلك فليس هذا من الاسباب التي أثارت المهدية. ولكن ربما كانت معاملة غردون للنخاسين وتجار الرقيق ذات اثر على بعض التجار كما ان تدخل بريطانيا في قطع المواصلات بين السودان والحجاز بحجة منع تجارة الرقيق اثرت على اقتصاديات البـلاد فأثارت قلة منهم . وقد كان المهدي من ألد أعداء الرق وحاربه محاربـة جدية دينية فقد كتب للناس في أحد منشوراته يوضح لهم ان امتلاك الرقيق من أقوى الأسباب التي تمنع المسلم من التقرب الى البارىء ، وهو يقول : « سأذكر البعض من الواقعات التي وردت في الغنائم وغيرها : فبعد ان وردت الواردات في كيفية الغنائم وضررها بالأبيض حكيت للاخوة حضرة حصلت فوق السماوات. وكان النبي (ص) يطلب الاصحاب فلا يصل الى ذلك المحل إلا الاصفياء الزهاد الخالصين من العلاقات الدنيوية ، وتعطل منها بعض الاخوان لأجـل علاقاتهم فلم يطيقوا الصعود اليها من علاقاتهم فأعلمت بذلك من انقطع بسبب علاقاتـه الدنيوية من الرقيق والاموال . فتجرد من ذلك وصعد الى الحضرة المذكورة » .

وكان أهم عضد للمهدي في ثورته هم الفقهاء في كل مكان في الشمال وفي الشرق وفي الغرب وفي الوسط ، وهم الذين أثاروا الحماس للجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمته ومهديته ومحاربة « الترك » الذين كفروا بالمهدية .

وبنظرة عامة فانه من المتوقع أن شعباً تعداده عدة ملايين في ذلك الوقت لا يمكن أن يكون قد ضمتهم اسباب موحـــدة في الثوره ولا بد ان يكون من بينهم من ثار لابطال الرق أو لطلب مغنم ، او على كرامته الشخصية ، ولكن قائد الثورة كانت اهدافه دينية ، الغرض منها اقامة دولة اسلامية .

٦

انتصارات المهدي

أنزل المهدي بالحكومة هزيمة منكرة لم تذق مثلها مطلقاً. وسمع السودانيون في كل مكان بخبر انتصار المهدي وعجبوا كيف استطاع المهدي ان يهزم بتلاميذه جنود الحكومة ببنادقهم . وعرف المهدي بأن الحكومة لن تسكت على هذه الهزيمة ، وأنها سوف تلاحقه لتحطيم ثورته ، فكان لا بد له من البحث عن خطة تنجيه وتلاميذه من قبضة الحكومة .

أعلن المهدي إذ ذاك لتلاميذه ومن وصل اليه من المريدين بأنه أُمر بالهجرة الى جبل ماسة بالقرب من جبل قدير في جبال النوبة بكردفان. وسار في عدد من انصاره وهم يقطعون ما يقارب الخمسمائة ميل للوصول الى قدير . وفي ذلك الطريق الطويل رآه الناس، وسمعوا بجهاده، وعلموا بانتصاره فتبعوه وقد بايعوه على الجهاد في سبيل الله . وما زالوا حتى وصلوا الى الملك آدم دبالو ملك تقلي الذي سبق للمهدي ان عقد معه محالفة عند زيارته للأبيض قبل ثورته . ومكث المهدي حول جبل قدير يترقب الحوادث وهجرة أعداد كبيرة من الانصار .

سمع مدير مديرية كردفان محمد سعيد بأن المهدي قد عسكر في قدير فرأى أن يهاجمه ويقضي عليه قبل استفحال امره . ووصل قريباً من جبل قدير بجنوده وقد أتعبهم السير فناموا . وفي الليل أفزعتهم أصوات الطلقات النارية التي كان

يطلقها اصحاب الملك آدم ، فخاف محمد سعيد من الهزيمة فآثر الرجوع الى الابيض سالماً فعاد مسرعاً . وكان لتراجعه اثره الكبير في الحرب السيكولوجية بين الحكومة والمهدي لأن الاهلين اعتبروا ذلك نصراً للمهدي وإعجازاً إذ هربت منه جنود الحكومة . وتقاطر عليه لذلك انصار من كل مكان .

النصر الحربي الثاني : واقعة راشد

(١٦ المحرم ١٢٩٩ – ٩ ديسمبر ١٨٨١)

كان راشد بك أيمن المدير على فاشودة [١] وكانت جبال النوبة التي لجأ اليها المهدي جزءاً من مديريته التي يحكمها . فأراد ان يظهر مقدرته الحربية والادارية وذلك بالقضاء على المهدي على ان تكون المفاجأة أهم عناصر خطته . فخرج من فاشودة ومعه ٤٢٠ من الجنود يعاونه الف من رجال القبائل ، وأخفى خبر تقدمه السريع عن المهدي حتى اقترب من قدير وهناك رأته رابحة الكنانية وكانت من اللائي تأثرن بالمهدي ، فجرت طيلة النهار والليل حتى وصلت الى المهدي في معسكره وأخبرته بجيش راشد . فكمن المهدي لاعدائه ، وبدلاً من ان يفاجئوه فاجأهم بعد ان صلى الصبح بأصحابه ثم هجم عليهم ولم ينقض وقت طويل حتى كان راشد بك أيمن جثة هامدة وحوله معظم جثث الجيش ، ولم تكتب النجاة الا لافراد قلائل استطاعوا الوصول الى مقرهم وأبرقوا للحكمدار في الخرطوم بالنكبة التي حاقت براشد مدير فاشودة .

أما أهم نتائج هذا الانتصار الذي احرزه المهدي فقد كان قبول كثير من

---

(١) آرشر ص ٢٢١ .

السودانيين لهذا النصر على أنه معجزة أيد الله بها المهدي ولذلك فقد عززت هذه العقيدة موقفه وكثر عدد المهاجرين اليه في جبل قدير. وبالاضافة الى هذا التأييد فانه استولى على عدد من البنادق والرصاص فاحتفظ به في قدير لكي يستعمل في المستقبل اذا دعت الضرورة*، أما في الوقت الحاضر فان الحكومة شعرت بأن مكانتها قد تضعضعت الى حد جعل الحكمدار يطلب القوات والمدد من مصر في وقت كان تحت إمرته في السودان ما يزيد على اربعين الف جندي ، وأكثر من مائة الف بندقية وعدد من المدافع ، ولم يكن مع المهدي غير ثمانية آلاف محارب وأقل من اربعماية بندقية لا يعرف رجاله استعمالها . وهكذا بدا الضعف في قوات الحكومة وظهر ان الروح المعنوي قد تضاءل حتى عند الحكمدار فاضطر الى طلب المدد من مصر .

ثورة عرابي باشا في مصر :

بيد أن مصر نفسها كانت تغلي في الثورة التي قام بها عرابي باشا وزملاؤه ، وكان عرابي يتوقع ان يتدخل الانجليز في مصر لذلك رأى أن ارسال اي عدد من الجنود الى السودان يضعف من حركته في مصر . وعجب العرابيون كيف يطلب الحكمدار امدادات مع أنه عنده اضعاف ما للمهدي من انصار . ونتيجة لذلك رموا رؤوف باشا بالضعف والتردد ، ورأوا ان الأصوب استدعاؤه الى مصر وارسال عبد القادر حلمي باشا ليكون حكمدارا على السودان فينظم الأداة الادارية والحربية ، ويحطم ثورة المهدي الذي لا يمكن ان يكون سوى أحد الدراويش الذين ساعدهم الحظ في انتصارات أولية .

ومضت عدة شهور دون ان تتخذ الحكومة اية خطوة ضد المهدي سوى استدعاء رؤوف في مارس ١٨٨٢ وإرسال عبد القادر خلفاً له . وكان وصول الحكمدار الجديد في مايو ١٨٨٢ . وكانت الحكومة المصرية ترى أن في قوة

شخصية عبد القادر باشا ودراسته العسكرية الاوروبية ، وخبرته في السودان ومصر ستجعل من الممكن تهدئة الاحوال في السودان . وفي هذه الفترة التي خلا فيها منصب الحكمدار تولى أمور البلاد جيقلر باشا وهو الماني كان يتولى منصب معاون الحكمدار . وقرر جيقلر اخماد ثورة المهدي بطريقة حاسمة .

واقعة الشلالي : (٣٠ مايو ١٨٨٢)

ارسل جيقلر جيشاً تعداده ٦٠٠٠ جندي بقيادة يوسف باشا الشلالي احد الموظفين المصريين الذين عرفوا السودان معرفة تامة. وخرج الجيش من الخرطوم في ١٥ مارس ١٨٨٢ . كما طلب من بعض القوات الحكومية بالابيض الاستعداد للانضمام اليه ، ولما ارادت تلك القوة الخروج من الابيض وقع حادث كان مصدر تشاؤم للجنود إذ سقط الطبل الذي كان لقائد تلك الفرقة العسكرية وهو عبدالله دفع الله ، وكان لسقوط الطبل من الجمل وطأة ثقيلة ونذير شؤوم على نفوس الجنود ، فخرجوا من الابيض وهم متوجسون خيفة من نتائج[1] الحملة بالرغم من ان عبدالله نحر بعض الضحايا لإفساد سوء الطالع .

خرج جيش الشلالي وقد انضمت اليه هذه القوة قرب الابيض وسار قاصداً جبل قدير معقل المهدي . وفي الطريق الى قدير جاء بعض رسل المهدي الى الشلالي فألقى عليهم القبض ثم امر بتقطيع اوصالهم حتى الموت ، فصبر الرجلان على تلك الميتة الشنيعة وماتا وهما يكبران الله بكل شجاعة ، وتشهدا ثم فاضت روحاهما . وكان لهذه القسوة اثرها العكسي في نفوس الجيش فقد رأى الجنود صدق عزيمة الرسولين وقوة عقيدتهما بينما شعروا بضعف اهدافهم . وكانت

---

(١) دولة المهدية : هولت .

المكاتبات دائرة بين الشلالي والمهدي فالشلالي يريد من المهدي ان يستسلم والمهدي يريد منه ان يبايع ولكن دون جدوى .

وفي فجر يوم ٣٠ مايو ١٨٨٢ وصلت جنود الشلالي الى قدير وهي منهوكة القوى ، ونامت ملء جفونها. اما المهدي فبعد ان صلى الصبح برجاله قرأ عليهم: « اللهم انت ربنا وربهم ، ونواصينا ونواصيهم بيدك وانما تقتلهم انت ». ثم كبر هو ورجاله والتحموا بالجيش وهم يعملون فيهم بالسيوف والرماح والعصي . وكانت موقعة شديدة على المهدي وانصاره لأن عدد الجيش المعادي كبير كما ان اسلحته فتاكة. واستمرت المعركة بعض الوقت حتى انتهت بانتهاء جيش الشلالي ما عدا العدد القليل الذي استطاع أن ينجو ليبلغ الحكمدارية خبر الهزيمة الحربية الثالثة . واستولى المهدي على كميات كبيرة من العتاد الحربي والذخيرة ، واصبح موقفه كبطل ثائر ، وقائد ديني ، وانه هو المهدي راسخاً في نفوس انصاره وبدأ يؤثر على كثير من الوطنيين الذين شعروا لأول مرة بأن السوداني بسيفه ورمحه يستطيع ان يقف نداً قوياً للتركي المصري بأسلحته النارية . وتذكر السودانيون المجازر التي اقامها الدفتردار بعد مقتل اسماعيل ، ووجدوا أن الوقت قد حان للاخذ بثأر آبائهم الذين حصدهم الدفتردار وغيرهم .

الثورات في الجزيرة

الجزيرة هي الارض التي تقع بين النيل الازرق والنيل الابيض وتمتد شمالاً من جنوبي الخرطوم الى سنار جنوباً، وهي أرض خصبة زراعية يزرع سكانها الحبوب الغذائية وتعتبر من اهم المناطق لتغذية سكان السودان . وكان لهذا الخصب اثره

في ازدحام السكان ثم في انتشار المدارس الدينية التي يقوم بها الفقهاء وعلماء الدين، وقد كان عددهم يتزايد على توالي السنين .

وعرف فقهاء الجزيرة الشاب محمد احمد عن كثب ايام عهده مع القرشي وعرفوا عنه النسك والتقوى والورع والاستقامة والشجاعة ، ولذلك فانه لما قام بثورته التي كانت معززة بانتصارات حربية باهرة تاقت نفسهم الى الوقوف في صفه والجهاد في سبيل الله . وكان اول من وقف مع المهدي الشيخ احمد المكاشفي إذ انه هاجر الى قدير حيث بايع المهدي ولزمه. لكن هجرة احمد المكاشفي كانت نذير سوء على اخيه عامر وسائر اهله لأن الحكومة وضعته وأهله في السجون رهن التعذيب والتنكيل ، ولم يستطع ان ينجو منهم إلا بعد ان دفع كثيراً من المال للحكام .

اصبح عامر حانقاً على الحكومة وما ان تنسم عبير الحرية حتى لجأ الى عربان رفاعة الهُوي وحثهم على مبايعته والنهوض للجهاد في شأن الله وإزاحة الحيف الواقع عليهم ، وايقاف الضرائب والظلم، ووجدت دعوته صدى طيباً في نفوس اهالي تلك المنطقة الواقعة جنوبي سنار، والتفوا حول عامر الذي قادهم الى سنار التي سقطت في يده ثم عادت الى الحكومة ثم حاصرها ومنع عنها كل اتصال بالخارج حتى أسلاك التلغراف قطعها فلم تعد متصلة بالخرطوم . ولكنه أمام جيوش الحكومة ونيران بنادقها أجبر على الانسحاب موقتاً من سنار .

وبلغ الحماس في نفوس أهل الجزيرة مبلغاً عظيماً فخرج رجل من الفقهاء آخر هو الشريف أحمد طه الذي اجتمع حوله بعض الثائرين شرقي النيل الازرق وهاجموا القوات الحكومية ، وبعد مناوشات سقط الشريف صريعاً وهدأت ثورته .

وما ان أطفئت هذه الثورة حتى اندلعت ثورة اخرى يقودها محمد زين أخذت حظها من الجهاد ثم أخمدت بعد ان صرع قائدها .

واستمر عامر المكاشفي في إثارة القبائل لكن قوات الحكومة تعقبت انصاره حتى شتتتهم واضطر اخيراً الى الهجرة الى المهدي في جبل قدير .

لم تهدأ الاحوال طويلاً في الجزيرة لأنه سرعان ما وصلها ثوار متحمسون لهم اتصال مباشر بالمهدي وقد بايعوه على الجهاد ضد الذين يلونهم، وقام بعض هؤلاء وهم ود الصليحاني واحمد المكاشفي باثارة القلاقل في الجزيرة، وقطع فضل الله دكريف خطوط التلغراف بين الكوة والمسلمية وحاز على بعض الانتصارات الحربية على الحكومة أسوة بزميله احمد المكاشفي حتى اثاروا الخوف وفقدان الثقة بين جنود الحكومة .

وبقدوم عبد القادر باشا حلمي حكمداراً على السودان بدأ هؤلاء الثوار في الجزيرة يتلقون ضربات قوية منه فقد نزل عبد القادر بشخصه الى الميدان وحارب كل الثوار واستطاع ان يعترض ثورتهم قبل ان يرحل من السودان نهائياً في فبراير ١٨٨٣

كانت الحروب في الجزيرة ذات أهمية عظمى لكل من المهدي والحكومة لأن الخرطوم كانت تعيش على ما تدره هذه المنطقة من حبوب وغلال . فكان الثوار يرمون الى تجويع الخرطوم بينما يرمي الحكمدار الى الاحتفاظ بامدادات الغذاء، كذلك كان الثوار يرمون الى قطع خطوط المواصلات التلغرافية والحربية بين الخرطوم وكل من كردفان ودارفور وبحر الغزال ومحاولة عزل هذه المناطق من عاصمة الحكمدارية وبذلك ينسلخ جزء كبير من السودان عن بقية المناطق.

والجزيرة أرض خصبة لثورة دينية لأن الاثر الديني الذي كان يخيم عليها كان قوياً جداً . وكان الاهلون يتوقون الى الانتفاض من براثن الحكم التعسفي. وهنا يجب ان نلاحظ بأن اولئك الذين ساندوا المهدي ووقفوا معه في جهاده هم رجال الدين وليسوا اللصوص وقطاع الطرق كما ذكر كل من شقير وشكري ، كما انهم

ليسوا بائعي الرقيق كما يذكر هؤلاء وغيرهم . وكان السودانيون يقولون بأنهم يجاهدون « في شأن الله » بعد ان رأوا العسف والجور وهي اشياء لا يقرهـــا الاسلام لذلك أرادوا محوها واستئصالها .

وكانت الحكمدارية تعرف سيطرة رجال الدين الفكريـة على الساكنين في الجزيرة اذ ان لكل سوداني شيخاً دينياً يهديــه سواء السبيل فاذا ثار مشايخ الطرق ثار معهم العامة لأنهم بهم يهتدون ويقتدون . وقد عرف عبد القادر باشا هذا السر ولذلك فانه اوعز الى كثير من رجال الدين السودانيين وغيرهم بمهاجمة المهدي وزعزعة مكانتــه الدينية في النفوس . كما كرس جهداً عظيماً في سبيل اقتلاع نشاط الفقهاء الثوري في الجزيرة حتى اذا دحرهم وهاجروا من الجزيرة استعادت الحكومة هيبتها .

انتهت معارك الجزيرة بانهزام الموالين للمهدي ، وكان عامل الهزيمة انعــدام السلاح الناري وقرب مقر الحكومة من مسرح الحوادث وتمكنها من استخدام البواخر النيلية لنقل الجنود بسرعة ولكن هذا النجــاح الذي سجله الحكمدار كان مؤقتاً لأن المهدي في هذا الوقت الذي تقلص فيه نفوذه الحربي في الجزيرة تضخم نفوذه على بعد خمسمائة ميل من الخرطوم بدرجة لم يكن يتوقعها الحكمدار المصري ولا الحكومة العرابية في مصر .

الثورات في كردفان

رأى المهدي ان افضل وسيلة لنجاح ثورته هي إثارة الحماس الديني والجهــاد في كل بقعة من بقاع السودان ، وكان منذ بداية ثورته حريصــاً على ان يشترك اكثر السودانيين في الثورة ضد الحكومة ، وكانت كتبه لرجال الدين والفقهاء

تحرض إما على الهجرة اليه او مقاتلة جيوش الحكومة في كل مكان من البلاد وبذلك يصعب على الحكمدار ان يجمع جيشه لمصادمة جيش واحد للمهدي ، وهكذا كان يرمي الى توزيع قوات أعدائه .

وفي كردفان ثارت قبائل الحَمَر والبديرية والحوازمة والجوامعة وغيرها ، وأخذوا يهاجمون قوات الحكومة في المدن الصغيرة والقرى . وكان اكبر هجوم هو الذي قامت به القبائل البديرية والحمر على بلدة « ابو حراز » في ٢٠ ابريل ١٨٨٢ وصعب على القوات الحكومية تفريق هذه الثورات التي اصبح خطرها يتضاعف كل يوم ، وفي اغسطس من نفس السنة حوصرت بلدة « الطيارة » كما حوصرت مدينة بارة وهي ثاني مدن كردفان من حيث الاهمية .

وبينما كانت هذه القبائل تهاجم القوات الحكومية عبأ المهدي جيوشه في قدير وخرج بهم في يوليو قاصداً الابيض عاصمة مديرية كردفان وذلك للقضاء على القوات المصرية التركية هناك . وقبل ان يبدأ هجومه ارسل مبعوثين للمدير محمد سعيد باشا يطلب منه ان يسلم ليسلم . غير ان المدير امر بالقاء القبض على الرسولين ثم نصب لهما المشانق وأعدمها .

لم تكن الامور داخل مدينة الابيض تسير بحالة طبيعية فقد كان للمهدي بعض المؤيدين وعلى رأسهم مديرها السابق الياس باشا أم برير . وفي اليوم الذي شنق فيه رسل المهدي خرج الياس بأهله وأعوانه من الابيض وساروا حتى انضموا الى المهدي . وكان مع المهدي آنذاك جيش كبير يقدر بمائة الف كلهم يحملون السلاح الابيض . وقبل وصولهم الى عاصمة كردفان حفر مديرها خندقاً حول الابيض وأقام المتاريس والتحصينات استعداداً لصد اي هجوم يقوم به المهدي .

وكان الهجوم الاول على الابيض في صباح الجمعة ٨ سبتمبر ١٨٨٢ واستمر من

الفجر الى الظهر وجموع الثوار تحاول القضاء على رجـال الحكومة الذين كانت تحميهم المتاريش . ويقال بأن عدد الذين استشهدوا في هذه الواقعة كان حوالي العشرة آلاف سوداني .

عند ذلك أمر المهدي بإيقاف الهجوم والانسحاب عن مدى نيران البنادق، وبعد استشارة معاونيه قر الرأي على فرض حصار على الابيض وجلب المدافع والبنادق والذخيرة التي استولى عليها أنصار المهدي في معاركهم السابقة وكانوا قد تركوها في جبل قدير . وبوصول تلـك الاسلحة النارية اصبح الموقف اكثر سلامة إذ ان المهدي لم يكن جامداً في الفن العسكري . وما كان يحسب انـه سلاح الكفر اصبح الآن يستعمل لنصرة الدين الاسلامي . وكان هذا من اهم القرارات التي اتخذهـــا المهدي لأنه لو استمر الثوار على امتناعهم من استعمال السلاح الناري لتعرضت الثورة الى هزائم ُمرة .

أصبحت كل من بارة والأبيض محاصرة وبيد محاصريها سلاح ناري يهـــدد كيان الحاميات وقد ضاق بها الحال دون أن تجد امدادات من الخرطوم ، فقــد كان كل ما وصل اليها هي بقايا حملة مكونة من ثلاثة آلاف جندي ارسلهـــا عبد القادر باشا لكي تعين الابيض في حالة دفاعها ضد المهدي . لكن الانصار تعقبوا سير هذه الحملة من الدويم ودفنوا كل الآبار التي في الطريق حتى عثرت على ماء بالقرب من بارة فهرع الجنود ليستقوا منها ولكنهم فوجئوا بالثوار السودانيين من كل مكان يقتلونهم ولم ينج الا القليل الذي استطاع ان يلجـأ الى بارة حيث وصلوها في ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ . ومن سوء طالـع الجيش المصري ان اشتبك في مصر مع الانجليز في موقعة التل الكبير ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيوش المصرية بقيادة عرابي باشا في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ . وكانت هـــذه من اسوأ الهزائم التي منيت بها القوات المصرية في عهد عبد القادر حلمي باشا بالسودان ، وضعفت

الروح الحربية عند حامية بارة ولكنها كانت تمني نفسها بانتصار مدير الابيض على الثوار ، ولكن ما لبث ان خاب أملهم.

واستسلمت حامية بارة في ١٥ يناير ١٨٨٣ وكان المهدي قد أرسل قائده الامير عبد الرحمن النجومي لاستلامها ، وعوملت الحامية والأجانب أطيب معاملة .

علمت حامية الأبيض بما تم في بارة فقرر بعض جنود الحامية التسليم للمهدي وأخيراً رأى المدير أن موقفه صار ضعيفاً جداً من أثر الحصار وانعدام المأكل ، وانهيار القوى المعنوية في الجيش ، فآثر التسليم ، وتم ذلك في ١٩ يناير ١٨٨٣ . ودخل المهدي الابيض ثم أقام صلاة كبيرة شكراً لله على تأييده ونصره . ثم التفت الى شؤون الادارة وعامل المستسلمين في لطف وعدل . غير ان محمد سعيد باشا وبعض ضباطه أرسلوا رسالة سرية الى الحكمدار عبد القادر باشا حلمي في الخرطوم ينقلون اليه أخبار المهدي ، لكن أحد هؤلاء الأعوان خشي ان يكتشف أمرهم فأفضى للمهدي بالسر وقدم محمد سعيد الى المحاكمة فقضت باعدامه بتهمة الخيانة والتجسس .

نتائج سقوط الأَبيَض :

للأبيض مكانتها الاقتصادية العظيمة في السودان ، فهي أم مدن غرب السودان حيث كانت وسطاً تجارياً لكل حاصلات الغرب من صمغ وذرة وسمسم وفول . كما انها كانت حلقة الاتصال بين مديرية دارفور والخرطوم . وكانت المركز الذي تخرج منه البعثات التبشيرية المسيحية الى جبال النوبة فتوقف نشاطها وأسلم رجالها وراهباتها .

ووصلت أنباء سقوط الأبيض الى الخرطوم بعد شهر من دخول المهدي

منتصراً في المدينة (١٨ فبراير ١٨٨٣) وعندها شعر الحكمدار بحرج الموقف لأن بسقوطها في يد المهدي أتاح له جمع كثير من الانصار من قبائل كردفان الكثيرة العدد المستميتة في القتال ، وأصبح الآن يسيطر على منطقة شاسعة ويهدد منطقة دارفور الواسعة أيضاً . وانقطعت مديرية دارفور عن العاصمة السودانية كما أنها أصبحت تنتظر ثورات الفور التي لم تخمد ، وتتوقع هجوم المهدي بين لحظة وأخرى .

وفي الصعيد العسكري فقدت الحكومة كثيراً من قواتها العسكرية المصرية والسودانية كما فقدت الكثير من السلاح الناري الذي كان يؤمن حياتها بعض الشيء. اما الآن فقد اصبح هذا السلاح في يد المهدي وأنصاره ، وبينما ضعفت الحكومة عسكرياً قوي مركز المهدي إذ أدخل كل الجنود المصريين والسودانيين في جيشه ، ودرب أنصاره على استعمال الاسلحة النارية .

اما في الصعيد الروحي وقد كان هو الأهم فان انتصارات المهدي الباهرة المتعاقبة قلبت الاوضاع في البلاد رأساً على عقب ، ومن لم يؤمن بمهديته آمن برسالته الوطنية ، فقد كان في نظر البعض كجان دارك لفرنسا إن لم يؤمنوا بقدسيتها فقد بهرتهم قيادتها ووطنيتها وشخصيتها . وبعضهم شعر بأن السودان قد كان في حاجة لبسمارك سوداني يبعث الروح القومية فوجدوه في المهدي ، وكان العامة ينتظرون الفرج على يد المعجزات وها هم قد رأوها الآن فترجموا قدرته القيادية ، وقوته الشخصية ، واستقامته الخلقية الى معجزات وكرامات يجب الايمان بها ، ولذلك فقد آمنت به كل فئات الشعب التي كانت تنتظر الخلاص مما هي فيه لأنه وهبها كل ما تريد من حماس ديني ووطنية ثائرة .

وكانت الوزارة المصرية تعتقد بأن عبد القادر باشا حلمي هو الرجل القوي الذي يستطيع ان يخمد أنفاس الثورة المهدية ، واعتمدت كثيراً على مقدرته العسكرية والادارية . ومنذ وصول عبد القادر وهو يعمل كالنحلة في سبيل

تقويض الثورة المهدية فلجأ الى نفس سلاح المهدي الفكري وذلك بارسال المنشورات التي تثبت كذب دعوى المهدي وقد كتبها رجال الدين الذين كانت الحكومة المصرية تغمرهم بانعامها ومن بينهم استاذ المهدي محمد شريف . ولم يكتف عبد القادر بذلك بل لجأ الى سياسة الاغتيالات التي برع فيها محمد علي باشا من قبل للتخلص من أعدائه ، فعمد عبد القادر اليها وذلك عن طريق إرسال مظروف للمهدي عندما كان في قدير قد حشي بالمواد المتفجرة على أمل ان يفتحه المهدي فيتفجر البارود ويقضي عليه. ولما لم تنجح هذه المكيدة ارسل بواسطة احد أعوانه عجوة مسمومة [1] لكي يأكل منها المهدي فتقضي عليه ولكن هذه الخطة البشعة لم تثمر ، فقرر الاعتماد على اغتياله بالرصاص وأرسل مأجوراً يدعى عبدالله ابراهيم لتنفيذ المؤامرة ، والتحق هذا بالمهدي في كردفان وانخرط بين أنصاره ، ووقف بالقرب من المهدي وصوب اليه المسدس ثم ضغط على الزناد ولكن الرصاصة لم تنطلق فاعتراه الخبل واعترف بتآمره وطلب العفو ، فأصدر المهدي عفوه عنه وحسنت مبايعته للمهدي بعد ذلك .

هكذا نرى أن كل الحملات العسكرية والادارية والاعلامية والسياسية والاغتيالية التي لجأ اليها عبد القادر حين كان المهدي في كردفان لم تفد شيئاً وكان من أثر اخفاقها ان اصبحت اعمال المهدي في نظر السواد من الشعب كرامات خارقة لناموس الطبيعة فعظمت هيبته بينما تضاءلت هيبة الحكام ، وبسقوط الابيض ظهرت خطورة المهدي واصبحت الحكومة تتحدث عن احتمال الهجوم على الخرطوم ما لم تقم الحكومة المصرية باتخاذ اجراء حاسم وذلك بارسال جيش قوي ينهي الثورة المهدية .

---

(١) اعترف عبد القادر لشقير بهذه المحاولات وفشلها جميعاً .

صدى الهزائم في لندن والقاهرة والخرطوم :

منذ ان توالت الهزائم على الجيوش المصرية في السودان بدأت بريطانيا تظهر اهتمامها بالموقف عامة وذلك لأنها كانت قد احتلت مصر في سبتمبر ١٨٨٢ وبقيت فيها بعد ان سرحت الجيش المصري وأصبحت مسيطرة على الأراضي المصرية .

واقتصر اهتمامها بالسودان على ارسال الكولونيل ستيوارت يرافقه ميسيداليا الايطالي الذي كان يعمل ادارياً في السودان ايام غردون . وطفق ستيوارت يجمع الحقائق حول طبيعة الثورة المهدية ومقدرة الحكدار على اخمادها ومعرفة الحلول لتفادي اية كارثة قد تحل بالادارة المصرية في السودان .

لكن الخديوي توفيق لم يكن مطمئناً الى بعثة الكولونيل ستيوارت فقد كان يخشى ان يكون ذلك بداية التدخل البريطاني في السودان ومحاولة للسيطرة على جميع اجزائه وخاصة أن بريطانيا كانت غير مرتاحة لتوسع محمد علي باشا ثم اسماعيل باشا ذلك التوسع الذي كاد يضم يوغندة وشرق افريقيا والذي ضم الساحل الارتري والصومالي .

وأظهر ستيوارت حرصاً على معرفة القبائل والضرائب وسائر الاحوال مما أثار شكوك الحكمدار عبد القادر باشا . وكذلك حاول ستيوارت ان يظهر للاهالي اهتمام بريطانيا بالموقف ومحاولة ابراز شخصية بريطانيا الطاغية على مصر وضعف المصريين بالنسبة لدولته . ورأى عبد القادر ان يتدخل وينصح ستيوارت بالابتعاد عن مثل هذا التدخل لأنه مسيحي والثورة دينية وانــــه سوف يثير الحماس الديني اكثر بسبب ذلك التدخل .

وكان الخديوي توفيق قد امر الحكمدار بمراقبة ستيوارت خلسة اثناء اقامته

ورحلاته في السودان ، وان يعطيه كل المعلومات التي يطلبهـــا دون ان يشعر ستيوارت بأنه مراقب وغير مرغوب فيه . ولمس ستيوارت اثناء تجواله بعض الاشياء اهمهـا انحطاط الروح المعنوي في الجنود المصريين الموجودين في السودان وذلك لأنهم كانوا يشعرون بأن الانجليز قـــد استولوا على مصر وتخلصوا منهم بارسالهم الى السودان للدفـــاع عن حقوق مصر بينما وطنهم أصبح في قبضة المستعمرين. وتحدث ستيوارت كذلكعن خطورة ارسال أي جيش الى كردفان لقتال المهدي الذي اصبح يمتلك الآن اسلحة نارية وذخيرة وجيشاً كبيراً ، بل كان ستيوارت يرى ان ينسحب سلاطين بك من دارفور الى بحر الغزال لعـدم جدوى بقائه هناك .

وكان ستيوارت يرى أن هناك احتمال انتقال الثورة الى حدود مصر الجنوبية وتهديدها واحتمال سقوط دنقلة في يد الكبابيش وقطع سبل المواصلات بين مصر والخرطوم ولكنه كان يرى ان حامية الخرطوم التي كانت مكونة من بقايـــا جيش عرابي تستطيع الدفاع عن العاصمة .

ومن القاهرة ارسل الخديوي توفيق باشا ياوره الخاص احمد حمدي بـك الى السودان لكي ينظر في شؤون البلاد ويكتب له تقريراً موضحاً الموقف من وجهة النظر المصرية . وكان توفيق يخشى ان يأمره الانجليز باتخاذ سياسة في السودان لا تتفق مع رغبته في استمرار نفوذه على كل من السودان ومصر ، وكان ظاهراً أن توفيق وإن قبـــل السيطرة البريطانية في مصر الا انه كان حريصاً على ألا يتقلص نفوذه في السودان بحال من الاحوال ، ولجأ الى سياسة ترمي الى القضاء على المهدي وتقريب الادازيين المصريين اليه مثل علاء الدين باشا الذي كان حكمداراً على شرق السودان تحت ادارة عبد القادر والتفكير الجـــديفي جعله يحتل منصب عبد القادر. كما كان يخشى نفوذ عبد القادر باشافي السودان لنجاحه المبدئي ضد الثورة ، ونشاطه الجم في تقوية الحكمداريـة وللاخبار التي تنم عن

بطولته وقد وصلته، ولذلك فقد عزم على التخلص منه وإعادته الى مصر وتولية علاء الدين مكانه .

أما في الخرطوم فان عبد القادر باشا اخذ في بناء القلاع والتحصينات في العاصمة كما حفر خندقاً بين النيل الازرق والنيل الابيض وذلك للدفاع عن المدينة اذا ما هوجمت وكان يشيع بين الاهالي بأنه يحفر قناة لتسهيل الملاحة النهرية ولكن لم يكن يصدقه الكثيرون . ثم بدأ في تدريب الجنود من مصريين وسودانيين حتى يكونوا على اهبة الاستعداد متى وصلهم المهدي . وبالرغم من ان المهدي كان على بعد مائتين وثلاثين ميلاً فان الاستعداد الحربي الذي قام به الحكمدار كان له اثر عكسي في نفوس سكان العاصمة وما حولها فقد شعروا بأن المهدي مطبق عليهم لا محالة والا لما اعد الحكمدار العدة للقائه في الخرطوم بدلاً من القضاء عليه في كردفان . وكان اثر ذلك على السودانيين قوياً اذ شعروا بأن كفة المهدي هي الراجحة فلا اقل من مناصرته ولذلك فقد بدأت بذور الثورة تغرس في كل الانحاء حول الخرطوم وبقي المواطنون ينتظرون ساعة الصفر للهجوم على الخرطوم .

حملة هِكْس باشا

واقعة شيكان ٥ نوفمبر ١٨٨٣

رأى الخديوي توفيق أن لا بد له من الاحتفاظ بكل اجزاء السودان وذلك بالقضاء على المهدي . ولم يكن الجيش المصري في حالة تسمح له بالدخول في حرب لأن بعد استيلاء البريطانيين على مصر سرحوا جيش عرابي الثائر وأقاموا جيشاً تعداده ستة آلاف لم يكتمل تدريبهم بعد . لذلك لجأ الخديوي الى اعادة

تجنيد عشرة آلاف جندي من الذين سرحوا بسبب الثورة العرابية وأرسلهم الى السودان عن طريق سواكن . ولكن هؤلاء الجنود ما كانوا يريدون حرب المهدي او السفر الى السودان كما أنهم لم يكونوا يؤمنون بقضية الخديوي . وطفق بعضهم يهرب ولكن السلطات المصرية ألقت القبض عليهم وقيدتهم بالسلاسل ورحلتهم الى السودان .

واختار الخديوي ضابطاً بريطانياً لقيادة هذه الحملة هو الكولونيل ولــيم هكس على ان يكون رئيس الاركان والمستشار العسكري للقائـد المصري سليمان نيازي باشا مصطفى ، وكان السبب في تعيين نيازي قائداً أعلى هو تجنب زيادة إشعال الشعور العدائي نحو الحكم القائم بسبب وجود قادة غير مسلمين من أمثال هكس وأعوانه من الاوروبيين . واعطي هكس الحق في تعيين ضبــاط بريطانيين لمساعدته في الحملة فاختار ثمانية ضباط من الانجلــيز . وهكس من الضباط الانجليز الذين اشتغلوا في الهند والحبشة حتى تقاعد ، وكان عنده صلف وكبرياء . وحين بلغه في سواكن أن قوة المهدي ضعفت وأن الاحوال هدأت في السودان تساءل في استياء ظاهر عن سبب احضاره طالما أن الاخطار قد زالت. فأعلمه المسؤولون المصريون في السودان أن الحاجة اليه ماسة في الحرب والسلم على السواء . ومنذ تلك اللحظة ظهر عدم الانسجام بين هكس والضبــاط الاداريين المصريين .

وكانت طبيعة الاحوال في السودان الثائر تقتضي ان يكون قائد الجيش مصرياً مسلماً حتى لا يستعر الحماس الديني ، ولكن نيازي لا يستطيع البت في امر عسكري دون موافقة البريطاني هكس. وتأزم الخلاف بين القائد ومستشاره منذ بداية الحملة وانتهت الخلافات بتقديم هكس استقالته للخديوي وبدلاً من ان يقبلها أمر بنقل نيازي باشا حكمداراً لشرق السودان وترقية هكس الى مريق

وجعله القائد للحملة على ان يصحبه علاء الدين باشا الحكمدار .

وبدأت الحملة بداية طيبة من الناحية العسكرية إذ أنها صدت هجوم الثوار في الجزيرة ، وقتل عامر المكاشفي وخمسمائة آخرين من الوطنيين . وكان الوطنيون قد قاموا بهجوم شبه انتحاري على قوات هكس التي كانت ضعف عدد المهاجمين باستثناء المعدات الحربية ، ونتج عن ذلك ارتفاع الروح المعنوي بين القوات الحكومية .

وصلت القوات الى الدويم في طريقها غرباً الى الابيض ، وكان هكس يعتقد ان القوة غير كافية وطلب مزيداً من المدد العسكري ، اما علاء الدين فكان يرى أنه لا بد من الهجوم على المهدي والا فان الاحوال ستسوء اكثر . واخيراً اضطرت الحملة الى السير الى الابيض وقوامها ٨٦٠٠ من الجنود المشاة ، و ١٤٠٠ من الفرسان وكان في هذا الجيش عدد من التابعين ، ويحمل عتادهم حوالي الخمسة آلاف جمل .

اختلف القواد في الطريق الذي يسلكونه والخطة التي يتبعونها ، وانتهى الخلاف باتفاقهم على ألا يتركوا خلفهم قوات لحفظ خط المواصلات بين الدويم والابيض خوفاً من ان يفتك بها رجال المهدي ، واتفقوا على ان يسير الجيش بكامله نحو الابيض ، وكانت رحلة طويلة اشبه ما تكون بتقدم نابليون الى موسكو . وكما هجر الروس قراهم امام زحف نابليون كذلك فعل السودانيون امام جيش هكس الذي كان معتداً بقدرته حتى قيل انه قال : « لو سقطت السماء لسندتها بالسنكي ، ولو مادت الارض لثبتها بقوائم الخيل وأرجل الجيش» . ومروا بالقرى فوجدوها خالية تماماً وأثار ذلك الهلع في نفوس الجيش ، كما وجدوا اكثر الآبار قد هيل عليها التراب .

لم تغب اخبار حملة هكس عن المهدي ورجاله فقد حرص على ان يرسل أطوافاً من الثوار لإقلاق راحة الجيش كل ليلة باطلاق الرصاص عليهم دون

الدخول معهم في معركة فاصلة . وأزعجت هذه الخطة الجنود لأنهم اصبحوا يحاربون عدواً لا يرونه في طريق طويل مجهول .

وبلغ الجيش موقع شيكان على بعد ثلاثين ميلاً من الابيض وهي منطقة تكثر فيها الشجيرات ، وعسكر هناك ، ولكن جهادية جيش المهدي كانوا يطلقون النيران على الجيش المصري طيلة الليل والنهار وقد اختفوا خلف الاشجار حتى اذا عمت الفوضى أمر المهدي بالهجوم العام على الجيش وسرعان ما اختلط الثوار به وقتلوا الحكمدار علاء الدين وهكس وكبار ضباطهم وأبادوا الحملة عن آخرها ما عدا حوالي المائتي جندي وقعوا اسرى في أيدي الأنصار .

نتائج موقعة شيكان .

أدت إبادة حملة هكس في شيكان الى موقف خطير في السودان وفي علاقته بمصر وبريطانيا . ففي داخل السودان أصبح موقف الحاميات المصرية وقادتها من الاوروبيين والبريطانيين في غاية الحرج : ففي دارفور كان سلاطين النمسوي مديراً عاماً عليها ، وفي بحر الغزال كان المدير لبتون وهو شاب بريطاني ، وفي خط الاستواء كان مديرها الدكتور امين الالماني . ولكن كل هؤلاء أصبحوا في عزلة تامة عن الخرطوم ، وكانوا يأملون ان ينتهي أمر المهدي بانتصار هكس عليه ، ولكن الامور لم تسر كما كانوا يأملون .

سقوط دارفور :

ففي دارفور كان سلاطين يواجه ثورة قادها زعيم قبائل الرزيقات علي مادبو بعد ان بايع المهدي في قدير ثم رجع الى دارفور لاخضاع حامياتها بعد انتصار المهدي على الشلالي . ودارت بينه وبين سلاطين معارك متعددة لم تكن فاصلة .

واستمر الوضع مضطرباً وسلاطين يأمل ان يقضي هكس على المهدي ، ولما رأى ان الشعور العام مع المهدي أعلن للاهلين اسلامه وأسمى نفسه عبد القادر سلاطين وبذلك أنقذ موقفه من احتمال ثورة الحاميات التي جرفتها العاطفة الدينية. ولكن الامر لم يطل اذ بلغته انباء هزيمة هكس فكتب الى المهدي معلناً استعداده للتسليم ، فأرسل المهدي اليه محمد خالد زقل من أقاربه وقد كان مساعداً لسلاطين من قبل . وفي ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣ استسلم سلاطين وأرسله محمد خالد الى المهدي .

سقوط بحر الغزال :

أما في بحر الغزال فان انتصارات المهدي المتوالية في كردفان شجعت قبائل جنوب السودان وخاصة الدينكا والنوير على الانضمام الى المهدي ، فذهب زعيم الدينكا وآخرون الى المهدي في الابيض وبايعوه ثم عادوا لطرد لبتون بك والحاميات المصرية المنتشرة في بحر الغزال منذ أواخر ١٨٨١ ، واستمرت مقاومة لبتون لحركة الانصار من قبائل جنوب السودان دون نصر حاسم لأي من الطرفين حتى وصول قائد المهدي كرم الله شيخ محمد كركساوي بعدد من الجنود ، ورأى لبتون أن يدّعي اعتناق الاسلام وأسمى نفسه عبد الله وذلك لكي يطمئن الى ولاء حامياته ، ثم ما لبث ان اقتنع بعدم قدرته على المقاومة فسلم المديرية الى كرم الله في ٢٨ ابريل ١٨٨٤ وبذلك انضمت بحر الغزال ايضاً الى الثورة المهدية .

الثورة في خط الاستواء :

كانت مديرية خط الاستواء تحت ادارة الدكتور امين وقد تولى ادارتها منذ سنة ١٨٧٨ ، وبالرغم من بعدها عن بقية أجزاء السودان الثائرة الا ان وصول

الثوار المهديين الى بحر الغزال واستسلام لبتون جعل مديرية خط الاستواء قريبة المتناول وقد طلب كرم من الدكتور أمين ان يسلم ولكن هذا تمنع ، وفي ضربة خاطفة استطاع كرم الله ان يحاصر بلدة أمادي التي سقطت في يده في مارس ١٨٨٥ . وبقي موقف أمين مزعزعاً ولم ينقذه الا انشغال الانصار بأعداء متعددين بعد ذلك ولهذا فقد تركت مديرية خط الاستواء وشأنها بعض الوقت. ولجأ أمين الى الحكومة المصرية يطلب منها المعونة ولكن رئيس الوزراء المصري ارسل اليه يعلمه بانسحاب الحكومة المصرية من السودان وأمره بأن يجلي كل القوات المصرية من خط الاستواء ويعود الى مصر عن طريق زنجبار .

ولم يرق هذا القرار لأكثر ضباط الحاميات وجنودها الذين كانوا من السود ، ولذلك فقد تمردوا على أمين ورفضوا الاذعان بالاخلاء . واستمر الموقف متوتراً بين أمين والحاميات حتى وصل الرحالة البريطاني ستانلي الى مقر امين ومعه أمر من الخديوي توفيق بوجوب اخلاء كل المنطقة والرجوع الى مصر . وأصرت الحاميات على عدم تنفيذ هذا الامر والقوا القبض على الدكتور امين . وبينما هم في ثورتهم تلك إذ جاءتهم الأنباء بأن الانصار زحفوا على مديرية خط الاستواء في ثلاث بواخر وبعض المراكب النيلية بقيادة عمر صالح في اكتوبر ١٨٨٨ ، وحاولت الحاميات صد تقدم الانصار ولكنهم هزموا في واقعتين متتاليتين فخاف رجال الحامية على مصيرهم وأطاعوا الدكتور امين الذي عمل على انسحابهم نهائياً من خط الاستواء قبيل ديسمبر ١٨٨٩ ، واصبحت خط الاستواء في أيدي الانصار بعد ذلك التاريخ .

تأييد الأقطار الاسلامية :

وكانت لانتصارات المهدي الساحقة أصداء عظيمة في العالم الاسلامي الذي كان يتوق الى من يأخذ بيده من جور الحكام ، وقدم على المهدي أفراد ووفود

من مسلمي الهند ومراكش وتونس والحجاز يهنئونه على انتصاراته ويبايعونه لمهديته واصبحوا يتتبعون اخباره بكل شغف ، وكان ذلك يهدد مصالح كثير من الدول الاستعمارية مثل انجلترا التي تسيطر على الهند ، وفرنسا التي احتلت تونس .

الموقف المصري :

أما في مصر فقد كانت الهزيمة صدمة مريعة لأن ذلك قضى على كل الجيش المصري القديم واصبحت مصر في حالة لا تستطيع معها اتخاذ اي اجراء ضد المهدي في السودان عن طريق ارسال جيش مصري . وكانت انجلترا ترى أنها لن تتدخل في المسألة السودانية ولذلك فهي ابتعدت بعض الشيء عن تقديم النصح بإيقاف حملة هكس . أما الآن فقد اتخذت موقفاً جديداً وذلك بأن نصحت مصر باخلاء السودان . وأثارت نصيحة الاخلاء عاصفة عدم الرضى ولم تقبلها مصر ولكن بريطانيا أوضحت بأن نصحها انما هو امر عال يجب تنفيذه. وكانت انجلترا آنذاك محتلة مصر وجيوشها تعسكر في مصر التي كان عليها ان تدفع كل نفقات الجيش الانجليزي بها. ولم يكن لدى مصر الجيش الذي تستطيع ان تغامر به في السودان إذ كان جيشها الحديث يتكون من ٦٠٠٠ جندي بقيادة ضباط بريطانيين . ولم يكن بالكثرة التي يمكن ان يحطم قوة المهدي . ورأت مصر ان تستعين بجيش تركي ولكن بريطانيا أصرت على ان تدفع الحكومة التركية نفقات ذلك الجيش إن أرسل الى السودان . ولم يقبل رئيس الوزارة المصرية شريف باشا سياسة الاخلاء فما كان من بريطانيا الا ان أجبرت شريف على الاستقالة لعدم تعاونه معها في اخلاء السودان ، وعين الخديوي نوبار باشا رئيساً للوزارة المصرية .

قبل نوبار النصيحة البريطانية وبدأ البحث عن الرجل المناسب للقيام بعملية الاخلاء .

الموقف البريطاني :

رأت بريطانيا أن تطور الاحوال في السودان يعطيها الذريعـــة المناسبة للاستمرار في احتلال مصر بحجة الدفاع عن الحدود المصرية الجنوبية اذا ما تم الاخلاء وامتدت الثورة الى حدود مصر ، ثم انها امرت مصر بسحب حامياتها واتخاذ حدود جنوبية مناسبة بين مصر والسودان ، كما انهـــا فرضت على مصر قبول الجنرال غردون لكي يقوم بعمليات الانسحاب للحاميات المصرية واخلاء المصريين المدنيين واقامة حكومة من زعماء القبائل كما كانت الحال قبل فتح محمد علي باشا للسودان . ومن الملاحظ ان سياسة بريطانيا نحو المسألة السودانيـــة اصبحت الآن واضحة وترتكز على خروج المصريين من عسكريين ومدنيين من الأراضي السودانية وإقامة حكم قبَلي لكي يصبح السودان منقسماً على نفسه ويفقد الوحدة القومية

٧

الثورة في شرق السودان

الامير عثمان دقنة

في روابي جبال البحر الاحمر باقليم البجة ولد عثمان ابو بكر دقنة في حوالي سنة ١٨٤٠ م ، وهو ينتمي الى قبيلة الدقناب احدى بطون قبيلة الهدندوة التي عرف تاريخها بسلسلة من الحروب ضد كلٍ من حاول استعمار السودان. فهم الذين حاربوا قدماء المصريين والبطالسة والرومان والعرب والايوبيين واخيراً الفتح التركي المصري في القرن التاسع عشر . وهكذا كتبوا تاريخهم بدمائهم التي بذلوها في الدفاع عن أوطانهم منذ فجر التاريخ .

التحق عثمان في صباه بالكتّاب حيث تلقى علومه الدينية فحفظ القرآن الكريم وتفقه في الدين بقدر ما كان المستطاع في ذلك القرن وتحت تلك الظروف ، ونشأ في سواكن حيث أصبح ملماً باللغة العربية مخاطبة وكتابة بجانب لغته البجاوية ، ولما شب اشترك مع اخوانه في التجارة .

غير ان عثمان لمس الظلم الذي أصبح سياسة الحكم التركي المصري ولم يقبل به وكان ينتظر اللحظة الحاسمة حتى يثور ضد ذلك الحكم ويزيحه من البلاد . وما

ان سمع بثورة عرابي في مصر حتى حسب ان الوقت قد حان لطرد الحكم الاجنبي من السودان ، فأثار الاهلين في سواكن وهو يحثهم على توحيد الصف ومحاربة الاستعمار . ولكن هذه الحركة لم تكن وطيدة الأسس فلم يلتف حوله كل الناس وانتهت بالفشل وألقي القبض عليه حيث سجن بعض الوقت . فلما خرج من السجن انتابه شعور غريب فانقطع الى العبادة سنة كاملة وفرض على نفسه صيامها كلها وهو يمني النفس بأن اليوم الموعود لانتصار الشعب السوداني قريب .

ما ان انتهى عام صيامه حتى انجلت معركة الابيض عن استسلام المدينة للمهدي ، وعندما كانت الاحتفالات بذلك النصر على قدم وساق في عاصمة كردفان وصل عثمان دقنة الى هنالك ، وبايع المهدي على صدق مهديته والجهاد في سبيل الله . وسر المهدي بذلك سروراً عظيماً فقد لمح فيه ثورياً ممتازاً ولذلك قلده الامارة على شرق السودان وأعطاه كتاباً الى الشيخ الطاهر المجذوب في ٨ مايو سنة ١٨٨٣ . وكان الشيخ الطاهر المجذوب من أساتذة الفقه الذين يتلقى عليهم بعض رجال الهدندوة الدروس الدينية . وكان بعض تلاميذه يتولون كثيراً من مناصب القضاء والأذان وإمامة المساجد في سواكن وشرق السودان وقد أصبحوا موظفين للدولة .

بلغ عثمان مصيف أركويت والتقى هنالك بالشيخ الطاهر المجذوب ودفع اليه الكتاب ، فبايع الشيخ المجذوب عثمان دقنة بالامارة وحث الحاضرين على مبايعته والجهاد في سبيل الله والوقوف صفاً واحداً مع المهدي . ومنذ ذلك الوقت أخذ عثمان في الاتصال بقبائل البجة للثورة ضد الحكم القائم والهجرة اليه في أركويت لبدء الهجوم .

أما أول هجوم قام به عثمان دقنة فقد كان في ٥ اغسطس ١٨٨٣ حيث هاجم سنكات التي كان يحرسها المحافظ المصري محمد توفيق . وطلب عثمان من المحافظ التسليم . ودخل خلفاء طائفة الختمية بين الجانبين بغية الوصول الى

نتائج سلمية ، وتم الاتفاق على هدنة من الصباح الى الظهر ، وفي هذا الوقت كان توفيق يحصن المحافظة بالمتاريس وزكائب الرمل وعثمان يرى ذلك ولكنه بقي محافظاً على كلمته حتى اذا جاء العصر رفض توفيق الاستسلام بعد ان فرغ من تحصين موقعه ، فهاجمه عثمان برجاله وهم يحملون السيوف والرماح والخناجر ودخلوا المحافظة عنوة ولكن بعد ان فعل بهم الرصاص فعله وبعد ان جرح عثمان ثلاثة جراح خطيرة فاضطر الى الانسحاب وقد بلغت خسائر الانصار ستين قتيلاً وخسائر الحامية ٥٧ قتيلاً .

لم تهن عزيمة عثمان وأصحابه بهذا الاخفاق في الاستيلاء على سنكات ، وتوقفوا بعض الوقت لحين تضميد جراح عثمان دقنة . وعمدوا الى قطع خطوط التلغراف بين سواكن وكسلا في اكتوبر ١٨٨٣ ، كما اخذوا يراقبون الطريق بين سواكن وسنكات لمنع وصول أي مدد من سواكن أو خروج الحامية سالمة من سنكات . ثم أمر عثمان رجاله بحصار كل من سنكات وطوكر في وقت واحد . وكانت سنكات مركزاً هاماً في الطريق بين سواكن وبربر فان سقطت في يد عثمان دقنة كان معنى ذلك أنه سيطر على الطريق بين البحر الأحمر والنيل ومنع كل امدادات حكومية يمكن ان تصل الى الحكمدار في الخرطوم . أما طوكر فهي منطقة زراعية تكثر فيها الحبوب ، والاستيلاء عليها يجعل من السهل لعثمان دقنة مواصلة الجهاد ضد قوات الحكومة وبين يديه غذاء فيه الكفاية .

وتاريخ الثورة المهدية في شرق السودان كان عبارة عن سلسلة من المواقع الحربية التي خاضها أبناء البجة ضد الجنود المصريين والانجليز ، وكان غرض الحكومتين المصرية والانجليزية المحافظة على المنطقة والطريق المؤدية من سواكن الى بربر ، بينما كان يهدف عثمان الى قطع ذلك الطريق ومحاصرة سواكن والسعي

الى الاستيلاء عليها . ونتج من ذلك صراع طويل خسر فيه الجانبان الكثير من الأرواح .

وكانت الواقعة الثانيـــة بين الفريقين في مكان يسمى قباب (١١ سبتمبر ١٨٨٣) اذ هجم رجال عثمان دقنة على مدد من الجنـد كان يسير من سواكن لمساعدة سنكات . ولكن هذه القوة لم تستطع الصمود وأجبرت على الانسحاب الى سواكن .

ثم انقض الانصار مرة ثانية على تجريدة اخرى في ٢٥ اكتوبر ١٨٨٣ كانت مرسلة الى سنكات فأفنوا رجالها .

وبينما كان رجال عثمان يحاصرن طوكر اذ جهز محمود باشا طاهر قومندان السودان الشرقي جيشاً وخرج بصحبته القنصل البريطاني مونكريف لكي يقدم له النصح ، وسار محمود بذلك الجيش لنجدة حامية طوكر . وبالرغم من أن الانصار كانوا ١٥٠ بينما كان اعداؤهم ٥٥٠ الا ان الهزيمةحاقت بجيش الحكومة الذي ولى مدبراً الى سواكن ، وعرفت هذه بواقعة التيب الاولى ، وكان هلاك مونكريف في نفس اليوم الذي هلك فيه هكس باشا ، فكأنما كانت هـذه الهزيمة في شرق السودان صدى لتلك الهزيـمة الكبرى في غرب السودان في ٥ نوفمبر ١٨٨٣ .

ثم التحم الخصمان في معركة تأمـــاي الاولى في ٢ ديسمبر ١٨٨٣ ، وانتهت ايضاً بهزيمة القائد المصري كاظم والفتك بعساكره .

فلما رأت الحكومـتان المصرية والانجليزية تتابع الهزائم في شرق السودان استقر الرأي على ارسال جنود من المصريين والاتراك والاوروبيين المتطوعـين وغيرهم بقيادة قائد بريطاني محنـــك هو السير فالنتين بيكر (شقيق الرحالة

صمويل) وبلغ تعداد هذا الجيش ٣٦٥٦ مع عدد من المدافع ، وقصد بيكر أن ينقذ طوكر من رجال عثمان دقنة . ولكن ما ان اصطدم بالانصار وهم اقـــل عدداً منه في واقعة التيب الثانية حتى انهزم جيشه وقتـــل منه اكثر من ٢٠٠٠ مقاتل وفر بيكر ومن تبعه من الجيش عائــــداً الى سواكن تاركاً كثيراً من المعدات الحربية وراءه ، فاستخدمهــــا جيش عثمان دقنة في حصار طوكر التي سقطت في ٢٤ فبراير ١٨٨٤ .

أما سنكات فانها قاومت الحصار وكان على حاميتها توفيق بك ولما لم يصلهـــا مدد من سواكن خرجت تريد الوصول اليهــــا ، ولكن عثمان دقنة أمر رجاله بالقتال وانجلت المعركة عن فناء كل القوة وسقوط سنكات في ٨ فبراير ١٨٨٤ .

نتائج انتصارات عثمان دقنة : التدخل البريطاني السافر

هزت انتصارات عثمان دقنة الحكومتين الخديوية والانجليزية فالاولى اصبحت لا تستطيع القيام باي عمل حربي الآن . اما انجلترا فقد كانت مكتفية حتى ذلك الوقت بارسال القواد والضباط ، فلما رأت انخذال ضباطها قررت ان تعرض قوتها الحربية وتستعيد هيبتها التي أضاعها هكس ومونكريف وبيكر فأرسلت الجنرال جراهام لكي يحقق غرضين،الاول القضاء على عثمان دقنة والثاني مساعدة شركة لوكاس على مـــد سكة حديدية بين سواكن وبربر وذلك بعد تحطيم قوة عثمان دقنة[1] .

وفي الوقت الذي ارسلت فيه انجلترا غردون الى الخرطوم ليقوم بتنفيـــذ انسحاب الجيوش المصرية والموظفين الاجانب بدأت في إنزال قوات انجليزية على ساحل البحر الاحمر لوضع حد للنشاط الثوري الذي كان يقوم به عثمان دقنة .

---

(١) أوامر الماركيز هاوتنجتون الى السير جراهام بتاريخ ٢٠ فبراير ١٨٨٥ .

واقعة التيب الثالثة : ٢٩ فبراير ١٨٨٤

أرسلت الحكومة البريطانية جيوشها الانجليزية ومدافعها الحديثة الى ساحل البحر الاحمر قرب طوكر وكان قائد تلك الجيوش الجرارة الجنرال جراهام . وأبلى فيها السودانيون بـــلاء حسناً بالرغم من تفوق عدوهم في العَدد والعُدد . وانتهت هذه المعركة باستشهاد ما يقرب من ١٤٠٠ سوداني . ولم يستطع الجيش البريطاني ان يتقدم كثيراً اذ سرعان ما انسحب في صبيحة اليوم الثاني وقـــد خسر بعض بواخره بسبب اصطدامها بالصخور .

وفي واقعة تأماي الثانية (١٣ مارس ١٨٨٤) اصطدم فيها الجيش البريطاني بقيادة جراهام بجيش الامير عثمان والتحما بالسلاح الابيض ، وانجلت المعركة عن خسائر فادحة في الجانبين ، فاندحر جراهام الى سواكن ، وانسحب عثمان الى سفوح الجبال ليشرف على سواكن .

بعد هذه المعارك الدامية آمنت بريطانيا باستحالة فتح الطريق بين سواكن وبربر واستحالة السيطرة عليه بسبب قوة شكيمة قبائل البجة الذين يسكنون في تلك المنطقة بقيادة الامير عثمان دقنة . واخيراً استدعت الحكومة البريطانية جنرالها جراهام وجيوشه بعد اخفاقه بالرغم من تفوقه في الرجال والعتاد .

فلما فرغ عثمان دقنة من الجيش الانجليزي انصرف الى حصـــار سواكن والتضييق عليها ، ولكن كانت هناك بعض العوامل التي لم تساعده على الاستيلاء على سواكن أهمها وجود البوارج الحربية الانجليزيه بالبحر واستمرارها في اطلاق القنابل على جيش عثمان ، وكانت هذه البواخر تقوم بامداد المدينة بما تحتاج اليه من ماء مقطر من البحر وجلب للاطعمة ، كما انها كانت معقلاً من معاقل الختمية فلعب خلفاء السادة الميرغنية دوراً مهماً في تخذيل الاهلين من الانضمام الى عثمان

دقنة ، والى نشر الدعاية بتكذيب المهدية وقـــال عنهم عثمان دقنة « وفي غرة ربيـع اول حضر من مصر واحدمن مشايخ الختمية يسمى محمد سر الختم الميرغني... وبمجرد وصوله سواكن كتب الى جميع العربان يخبرهم بأن هـذا الامر ليس إلا فتنة وليس هناك مهدية ... ويزعم بأن سيد الوجود صلى الله عليـه وسلم قلده بوظيفة إطفاء هذه الحركات ... »ولم يجد عثمان امدادات من المهدي لمساعدته في مغامراته ضد البريطانيين الذين كانوا يدافعون عن سمعة الجيش البريطاني . ومما لا شك فيه ان عثمان نجح في اداء مهمته العظمى وهي ابعاد شبح غزو بريطـاني عن طريق سواكن. كما انه تفرغ بعد ذلك لمساعدة محمد الخير في ارسال المقاتلين لحصار بربر والعمل على اسقاطها. وكان غردون مهتماً جداً بأخبار حملة جراهام وذكر ابراهيم باشا فوزي بأن غردون اغتم كثيراً بسبب انتصارات عثمان دقنة المتوالية على الانجليز وعدم استطاعتهم اختراق النطـــاق الذي ضربه عثمان حول سواكن .

أما في سواكن فقد كان من نتائج ثورة عثمان دقنة ان تسلل من سواكن كل تلاميذ الشيخ المجذوب وقد كانوا يعملون أئمة في المساجد ومؤذنين وقضاة فلمـا التحقوا بعثمان دقنة عينت الحكومة مكانهم بعض مشايخ الطريقة الختميـــة من اتباع السيد الميرغني فاحتلوا المناصب وزاد نفوذها في شرق السودان .

٨

تصفية الحكم الأجنبي

غردون في السودان للمرة الأخيرة :

غادر غردون مصر في ٢٦ يناير ١٨٨٤ الى الخرطوم لكي يقوم بمهمة الاخلاء التي أوفد اليها ، وقبل سفره من مصر التقى بالزبير باشا في منزل السير افلن بيرنج (اصبح اللورد كرومر فيما بعد) ، وكان بيرنج يشغل منصب المعتمد البريطاني في مصر . وفي تلك المقابلة احتدم النقاش بين غردون والزبير حيث اتهم غردون الزبير بأنه حرض ابنه سليمان على القيام بثورته في بحر الغزال، ونفى الزبير ذلك وطلب من غردون ابراز الأدلة ، وانتهى الحديث بينهما بتأنيب للضمير أصاب غردون ، وبعد ان كان يطلب من بيرنج نفي الزبير الى قبرص طلب منه ان يسمح له باستصحابه معه الى السودان ليعاونه في الانسحاب . وأعلمه بيرنج بأنه سينظر في الامر فيما بعد .

كانت الوزارة البريطانية قد أعلنت في البرلمان ان السودانيين انما ثاروا لنيل استقلالهم وحريتهم ، وان بريطانيا لن تقف حجر عثرة في طريق شعب يريد الحرية ، وها هو غردون يسير الآن لمساعدة السودانيين على طرد الحكم المصري

من البلاد واتمام عملية الانسحاب . وكان غردون يعرف صعوبة تلك العملية ولكنه قبل تنفيذها .

وصل غردون الى بربر في ١١ فبراير ومن هناك ارسل كسوة شرف الى المهدي وأنبأه أنه عينه سلطاناً على كردفان. وكان غردون يظن انه بذلك يقنع المهدي بتلك السلطنة التي نالها بالفعل بحد السيف ولكنه كان ينبذها لأنه لم يكن راغباً في جاه او سلطان ، وذهب رسله الى المهدي في الأبيّض لابلاغه بهذه الهبة .

ثم ان غردون جمع الأعيان في بربر وحضر الاجتماع الكولونيل ستيوارت رفيق غردون ، ومدير المديرية حسين باشا خليفة وأذاع على المجتمعين أمراً من الخديوي بتنصيبه حاكماً عاماً، ومطالبته بسحب كل الحاميات المصرية والموظفين والمدنيين واخلاء السودان منهم . وكان هذا الاعلان بمثابة انذار لكل سوداني يقف في صف الحكومة آنذاك لأنها عزمت على ترك كل من كان موالياً لها . واصبح كثير من الاهلين ممن لم يكونوا قد بايعوا المهدي من قبل يشعرون بأنهم سيندمون إن لم يسارعوا بمبايعته في ذلك الوقت ، وهبط الروح المعنوي في كل من كان له أمل في استمرار الحكم المصري في السودان . وبالرغم من أن غردون أذاع بأن القوانين التي سبق ان صدرت بخصوص ابطال الرق اصبحت لاغية ، وان الناس قد أعفوا من كل متأخرات الضرائب الا أن هذه الوقائع لم تكن ذات أثر لأن المشكلة ذات الأهمية العظمى كانت في تلك اللحظة هو من صاحب السيادة في السودان ، أهو الخديوي الذي قرر الانسحاب أم المهدي الذي ينوي الاستيلاء على كل البلاد؟ وهكذا ظهر أن غردون كان في تنكره متأخراً خمس سنوات او اكثر . ومنذ ذلك التاريخ قضى الحكم المصري على نفسه بالاعدام .

دخل غردون الخرطوم في ١٨ فبراير واحتفلت الجهات الرسمية بقدومه ، أما السودانيون فقد شعروا بأن بقاءهم في صف غردون اصبح لا قيمة له وكان ذلك خاصة شعور رجال الدين الذين رأوا ان الانضمام الى المهدي أسلم وأوقع

ولذلك فقد بايع المهدي كل من الشيخ العبيد ود بدر والشيخ المضوي عبد الرحمن وكثير من تلاميذهما وأنصارهما الذين كانوا يسكنون في القرى القريبة من الخرطوم . وبانضمام هؤلاء الفقهاء تحرج موقف الخرطوم .

اصبحت المشكلة الكبرى التي تواجه غردون الآن هي إيجاد الرجل الذي تسلم اليه ازمة الحكم في السودان . واقترح غردون على المعتمد البريطاني بيرنج تعيين الزبير باشا فاتح سلطنة دارفور ليكون ملكاً على السودان. وكان غردون من وراء اقتراحه هذا يهدف الى تعويض الزبير باشا عما فقده من ملك في دارفور وبحر الغزال وعن ابنه سليمان الذي قتله جسي بإيعاز من غردون ، ومن ناحية اخرى كان يعتقد بأن الزبير هو السوداني الوحيد الذي يستطيع ان يحكم البلاد ويقاوم المهدي ، ثم انه كان يرى أن الزبير مؤمن بالوحدة بين السودان ومصر وانه سيظل أميناً لهذه العقيدة على ان تدفع له الحكومة المصرية مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لمدة سنتين وذلك على سبيل الاعانة حتى تنتظم الامور في السودان. وكان غردون يرى أن الزبير رجل كفؤ عسكرياً وادارياً وانه سينفذ القرار الخاص بمنع تجارة الرقيق . وهكذا اصبح غردون أقوى ناصر للزبير باشا بعد ان كان ألد أعدائه .

بيد ان الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح وأوضحت لبيرنج أنها لا تسمح للزبير بالحكم في السودان لعلاقته القديمة بتجارة الرقيق ونسيت أن غردون أذاع على الناس انه سمح لهم بالاستمرار في تلك التجارة .

وقد خدعت التجريدات التي كان يقودها الجنرال جراهام ضد عثمان دقنة غردون، وجعلته يؤمل في أنها ستسعى الى الوصول الى الخرطوم وتسحق المهدي ولذلك فهو لم يتخذ أية خطوة حاسمة نحو الاخلاء، وانتظر بقلق شديد ما تسفر

عنه حملة جراهام. وبينما هو يؤمل في النجدات عن طريق شرق السودان إذ قطع الانصار خط التلغراف بين الخرطوم وبربر ، وبذلك اصبح من العسير عليه الاتصال بالقاهرة مباشرة . وازداد شعوره بالتخلي عن فكرة الاخلاء عندما طلع عليه رسل المهدي في ٢٢ مارس وهم يقدمون له جبة مرقعة — مما يلبسه المهدي وأنصاره — وكتاباً ينصح المهدي فيه غردون باعتناق الاسلام والتسليم ، ويذكره بأنه ليس من طلاب الملك والسلطان ولكنه جاء هادياً للناس ، ومبطلاً للظلم والجور والكفر . وكان لهدية المهدي وكتابه أثر عظيم في غردون لأنه أخذ الصراع على أنه شخصي بينه وبين المهدي ، ومنذ تلك اللحظة أغفل التفكير في الانسحاب نهائياً وجعل يفكر في الطريقة التي يهزم بها المهدي ويقضي على حركته .

لكنه ما كان ليستطيع ان يفعل ذلك والخرطوم وأهلها قد بلغت روحهم المعنوية اسفل درك . وكان عليه ان يبعث فيهم الأمل باذاعة أنباء عن قدوم الجيش البريطاني لتأديب العصاة وسحق المهدي والانصار .

أما المهدي فقد كان يعد العدة للاستيلاء على الخرطوم ولذلك فقد كتب الى الشيخ العبيد ود بدر وغيره من الفقهاء يفرض الحصار على الخرطوم . وكاتب العبيد غردون لكي يسلم ولكن دون جدوى . ثم عزز المهدي الحصار على الخرطوم بارسال امير البرّين والبحرين الامير ابو قرجة ، فقويت به عزائم الانصار وضاق منه المحاصرون في الخرطوم . ثم أتبعه بأمير لامراء عبد الرحمن النجومي في اواخر يونيو لكي يساعد ابو قرجة في تطويق الخرطوم ، كما استعد المهدي بجيشه اللجب للزحف على العاصمة بعد نزول الامطار في الخريف (يوليو — اغسطس — سبتمبر) .

بينما كان المهدي يستعد لتطويق الخرطوم كان استاذه القديم محمد الخير قد

بايعه وعاد الى مشارف بربر وقد اصبح احد امراء المهدي ، ثم بدأ في حصار بربر منذ اواخر ابريل ١٨٨٤، وقام بهجوم قوي عليها في ١٩ مايو ١٨٨٤ فأفنى الكثير من حاميتها وأتم الاستيلاء عليها وأسر مديرها السوداني حسين باشا خليفة كما استلم الاموال التي كانت في الخزينة الحكومية وتم تسليمها للمهدي فيما بعد .

وفي الخرطوم كان غردون يجاهد في سبيل رفع الحصار عن العاصمة والحصول على الغذاء الكافي وتحصينها من كل جانب ؟ وكانت بواخره تخرج الى الارياف للحصول على الحبوب فيهجم عليها الانصار ويرمونها بالرصاص. وحاول اختراق الحصار ولكن جنوده وضباطه وقعوا في الكمائن التي نصبت لهم ولقوا حتفهم . ثم بدأ رجاله في التمرد والاتفاق مع الثوار ، فقتل بعضهم وسجن بعضاً. ثم قرر ارسال مرافقه الكولونيل ستيوارت الى مصر لتوضيح حالة الخرطوم وطلب المساعدة من الجيش البريطاني . وخرج ستيوارت حتى جاوز بلدة ابو احمد باحدى البواخر ولكنها تحطمت في الصخور بارض قبيلة المناصير التي أيدت الثورة وتمكن رجالها من القضاء على ستيوارت ومن معه في ١٨ سبتمبر ١٨٨٤ قبل وصولهم مصر . وهكذا اصبح غردون في عزلة تامة عن كل العالم ما عدا اولئك الذين حاصروه .

بريطانيا ترسل جيشاً انجليزياً لانقاذ غردون :

لكن في هذا الوقت بدأت الامور تأخذ طريقاً آخر في السياسة البريطانية ، وبالرغم من أن الحكومة البريطانية التي يكونها حزب الاحرار كانت تؤثر عدم التدخل في شؤون السودان الا انها تحت تأثير الرأي العام البريطاني قررت ارسال حملة انجليزية لانقاذ الجنرال غردون في ٢٥ يوليو ١٨٨٤ . واختيرت هذه الحملة بعناية فائقة فجمعت بينها مشاهير الضباط البريطانيين وعلى رأسهم اللورد

ولـلي والسر هربرت ستيوارت والسر تشارلس ولسن وذلـــك في ٧ اغسطس ١٨٨٤ . واختلف القـــادة بعض الوقت في اي الطريقين يأخذون – أطريق سواكن الى بربر أم طريق النيل من وادي حلفـــا ، واخيراً استقر الرأي على الزحف عن طريق النيل لصعوبة شق طريق سواكن – بربر . وكان جيش الانقاذ مكوناً من عشرة آلاف جندي بريطاني ، وتم للبريطانيين ابلاغ غردون بمسير حملة الانقاذ في ٢١ سبتمبر .

أصبح هناك سباق بين المهدي والجيش البريطاني في أي من الجانبين يستطيع الظفر بالخرطوم قبل الآخر . واستطاعت بريطانيا ان تستعين بكل مدنيتهـــا العاتية ، ومصانعها الحربية والبحرية في سبيل تحقيق الظفر وانقاذ غردون ، كما انها استعانت على تنفيذ خططهـــا الحربية بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لتسيير الحملة والانفاق على تجهيزها بالجمال والخيول . وخرج حوالي الألفي جندي من الجيش كرأس الحربة للتعجيل بالوصول الى الخرطوم وذلك عن الطريق الصحراوي بين كورتي والمتمة لكي يتفادوا الاصطدام بالسودانيين الذين كانوا على ضفاف النيل. وكان يقود هذه المقدمة الجنرال ستيوارت . وما لبثت أخبار هذا الزحف أن وصلت كلاً من المهدي واميرِ بربر محمد الخير ، فأنفذا الى ملاقاته بعض رجـال الانصار للقضاء عليه .

أسرع الامير موسى الحلو بجيشه الى ملاقاة الجيش البريطـاني في الصحراء ، وعسكر في آبار أبي طليح رامياً من ذلك منع الانجليز من ورود الماء ولم يكن جيشه كبيراً كما ان اسلحته النارية كانت قليلة، ولكنه اعتمد على الحماس والهجوم السريع للالتحام بالاعداء بالسلاح الابيض. والتحم الجيشان في قتال مرير تفوقت فيه الاسلحة الحديثة وخاصة المدافع الرشاشة[١] المحرمة على الشجاعة ، وانجلت

---

(١) كانت الدول الاوروبيـــة متفقة على تحريم المدافع الرشاشة في القرن التاسع عشر ولكن بريطانيا استعملتها عدة مرات ضد السودانيين ، سمرفيل (بين الحربين) .

المعركة عن خسارة عشرة في المائة من الجيش الانجليزي بينما اضطر السودانيون للانسحاب وملاحقة الجيش ومناوشته حتى التحموا به مرة اخرى في معركة انتهت بمقتل القائد الانجليزي ستيوارت. واستطاع خلفه السير ولسون الاستيلاء على المتمة ووجد على ضفاف النيل هناك ثلاث بواخر ارسلها غردون لملاقاة حملة الانقاذ ، فركبها السير ولسون مع قليل من الجنود ، ولكنه لم يتقدم بها خوفاً ان ينجم عن تقدمه صدام مع المهدي ربما أدى الى هزيمة منكرة لا داعي لها ، فتأخر يومين ثم انه في ٢٨ يناير ١٨٨٥ وصل ولسون بتلك البواخر ضفاف الخرطوم فوجدها تعج بالانصار من كل جانب وهم يصيحون « هلك الغردون ». واستمر ولسون مبحراً حتى بلغ القصر الذي كان يسكن فيه غردون فوجده انقاضاً ، كما لم يجد أثراً للعلم المصري فأيقن ان حملته للانقاذ جاءت متأخرة .

المهدي يتقدم الى الخرطوم :

وبينما تحركت الحملة الانجليزية من حلفا تحرك المهدي من معسكره في بلدة الرهد في ٢٢ أغسطس وسار حتى عسكر في ابي سعد بالقرب من أم درمان بعد مسيرة شهرين ، وأصبحت العاصمة مطوقة تطويقاً كاملاً كما بدأت المؤن والغذاءات تتلاشى . واستمرت المكاتبات بين المهدي وغردون إذ طلب المهدي من غردون مراراً ان يحقن الدماء ويسلم الخرطوم. وقال له غردون بأن الحكومة البريطانية على استعداد لأن تفديه وحده بعشرين الف جنيه فكتب له المهدي :

« وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته الينا أنك قلت ان الانجليز يريدون ان يفدوك وحدك بعشرين الف جنيه ، ونحن نعلم ان الناس يتقولون من البطال كلاماً كثيراً ليس فينا وذلك لصدور من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا . وأنت ان قبلت نصحنا فبها ونعمت ، وإلا ان اردت ان تجتمع على

الانجليز فبدون (خمسة فضة) [1] نرسلك اليهم والسلام »

وتضايق غردون من رسائل المهدي فطلب منه ألا يكتب اليه مرة ثانية . ولما اشتد الضيق بسكان الخرطوم أخرج غردون منهم بضعة آلاف وطلب من المهدي ان يأويهم ويطعمهم فاستقبلهم المهدي أكرم استقبال. وكانت المناوشات دائرة بين الفريقين وفي كل مرة يخسر غردون عدداً من رجاله وضباطه ، وبالرغم من سوء حالته الا انه كان يؤمل في وصول حملة الانقاذ الى الخرطوم قبل سقوطها في يد المهدي .

ولكن لما علم المهدي بتقدم الانجليز الى المتمة عقد اجتماعاً بين كبار قادته فقرروا الهجوم على الخرطوم والاستيلاء عليها قبل وصول الجيش البريطاني . ولذلك فانه في ٢٦ يناير ١٨٨٥ أمر المهدي النجومي بالهجوم العام على العاصمة ، واستبسل كل من الفريقين في القتال ولكن رجحت كفة المهدي وقضى أنصاره على كل من قاتلهم في الخرطوم، ووصل بعض رجاله الى السراي يتقدمهم رجلان من ابناء قبائل البجة فهجما على غردون الذي كان يحمل مسدساً فقتلاه . وفي الضحى أصدر المهدي امره بالكف عن القتال حقناً للدماء ، ولكن القتال لم يتوقف الا بعد ان وصل الامر لكل المجاهدين المتفرقين في المدينة .

بلغت انباء مقتل غردون المهدي فلم يكن راضياً كل الرضى اذ كان يريد ان يحقن دمه كما فعل بغيره من الاوروبيين . كان المهدي يعتقد ان غردون يتمتع بسمعة طيبة لميله للعدالة كما انه صرح لغردون بأنه على استعداد لأن يتركه يلحق بالجيش الانجليزي دون فدية ولكن الثورة والحماس لم تترك للمقاتلين تفكيراً كهذا .

---

[1] اي قرشين .

نتائج سقوط الخرطوم :

بسقوط الخرطوم جدت عدة مسائل ونتائج ، فقد كانت المدينة تعج بالقتلى من الطرفين وعمها كثير من الدمـــار والتخريب وذلك بسبب عناد غردون وإصراره على المقاومة حتى تصل حملة الانقاذ . ومما لا شك فيه ان الامل الذي ساور غردون وحامية الخرطوم كان السبب الاول في استنزاف كثير من الدماء كان يمكن ان تحقن بما في ذلك دماء غردون ، ثم انه لو قدر للجيش البريطاني ان ينتصر بعد ذلك ويستولي على الخرطوم لأنقذهم جميعاً وهم احياء ولمـا سفكت تلك الدماء من الجانبين .

وعرف المهدي ان سقوط الخرطوم لم تكن الغاية التي ينشدها لأنه اصبح الآن يواجه هجوماً بريطانياً قوياً وجيشاً لأقوى دولة غربية بأحدث اسلحتها ، وكان عليه ان يحتاط للامر ويعمل على طرد الغزاة من أرض السودان أولاً ثم وادي النيل بأ كمله . لذلك فانه ارسل قائده الامير عبد الرحمن النجومي فاتح الخرطوم لتعقب طلائع الحملة الانجليزية ومحاربتها حتى تخلي البلاد . اما البواخر التي وصلت الى الخرطوم فقد استدارت شمالاً وهي تطلبُ النجاة يتعقبها قليل من السودانيين يرمون جنودها بالرصاص . وفي الطريق تحطمت باخرتان وتعطلت ثالثـــة ثم أصلحها بحارتها وفروا بها بعيداً عن الخرطوم حتى لحقوا ببقية جيش الصحراء . وفي هذا الوقت بدأ النجومي يتعقب البريطانيين الذين كانت حالتهم قد صارت أسوأ مما بلغه جيش نابليون حين عاد من موسكو ، فقد كتب قائدهم الانجليزي بولر لرؤسائه بأن جمال جيش الصحراء قد نفقت ، وان اقدام رجاله حفيت ، وجلودهم بليت ، وانه لا قبل له بجيش الانصار . ثم اخذ يسرع في الهرب شمالاً ، ولم يكن كل شمال السودان في أيدي المهدي آنذاك ولذلك فقد استطاع جزء من الجيش البريطاني الزحف على أبي حمـد ولم تقابله الا مناوشات اشدها معركة كربكان (١٠ فبراير ١٨٨٥) وقتل فيها الجنرال البريطـاني ايرل ، وانسحبت

طلائع الثوار السودانيين جنوباً الى بربر فطلب القائد الأعلى اللورد ولسلي من قواده الهجوم على بربر ولكنهم أبلغوه استحـــالة ذلك الهجوم من النواحي العسكرية إذ ان المهدي بدأ يرسل الرجـــال لتلك المنطقة ، فقرر ولسلي الانسحاب الى كورتي حيث وصلت كل القوات اليها في مارس ١٨٨٥ . وبعث ولسلي لحكومته يبين لها اخفاقه في القضاء على المهدي بما لديه من جنود لأن كل السودانيين أصبحوا ينظرون الى المهدي على أنه قديس وانه قاهر للدول ، كما أفاض في وصف نفوذ المهدي وضعف الجيش الانجليزي الذي ليس له من يناصره في السودان وذلك بالرغم من أن الجيش البريطاني في كورتي كان اكـــثر من عشرة آلاف بأحدث الأسلحة ، وان قائـــده هو الذي انتصر على العرابيين في واقعة التل الكبير[1] .

أما الشعب البريطاني والرأي العام فيه فقد أصيب بصدمة عنيفة لفشـــل الجيش البريطاني في انقـــاذ غردون وسحق المهدي ، ولم تخف الملكة فكتوريا حسرتها حين بلغها أن الحملة وصلت « بعد فوات الأوان » . وكتب أمين سرها الخاص الى بيرنج في القاهرة . « لقد كانت الملكة في حالة سيئة بسبب سقوط الخرطوم ، وقد كان لهذا النبأ أثره في اصابتها بالمرض . وكانت تزمع الخروج حين استلمت البرقية ، فدعتني ثم ذهبت الى منزلي على بعد بضعة اميال ، فدخلت الغرفة وقد كانت شاحبة ترتجف ، ثم قالت لزوجتي الـــتي انزعجت بسبب شحوبها — « بعد فوات الأوان »[2] .

ومنذ هزيمة غردون التي انتهت بمقتله كان الشعور البريطاني مستاء من اخفاق جيشه في القضاء على المهدي ، وأخذ يلوم قائد طليعة الجيش السير ولسن لأنـــه تأخر في المهمة يومين بدلاً من الاسراع الى الخرطوم التي وصلها بعد يومين فقط

---

(١) شكري .
(٢) ثيوبولد — المهدية .

من مقتـل غردون . وذهبت تكاليف الحملة ومن قتـل منها أدراج الرياح ، كما هاجم الرأي العام البريطاني القائد الأعلى للحملة اللورد ولسلي لعدم بته السريع في الامور الحربية ولزحفه البطيء وحرصه الشديد. وهكذا نجد ان البريطانيين وقعوا في تجربة على الصحراء السودانية كانت اسوأ نتيجة من الحملات المصرية التي استماتت في القتال في كل شبر من السودان . وفي الوقت الذي كانت فيـه القوات المصرية تدافع حتى آخر جندي درج البريطانيون على الهروب من مواجهة المعارك الحامية والتراجع الى الحدود المصرية .

وخشي الانجليز ان تجرفهم الحوادث في السودان أكثر من ذلك فيلشغل جزء كبير من جيشهم في أراضيه الشاسعة وهم يواجهون صعوبات مختلفة ، كما أن قادتهم في السودان اعترفوا بخطورة الزحف دون مزيـد من الجنود والمعدات والأموال ، ولم يستطيعوا التقدم للاستيلاء على بربر في فبراير خوفاً من الهزيمة خاصة بعد هلاك الجنرال إيرل على أيـدي السودانيين ، ولذلك فقد تم تقهقر القوات البريطانية بعيداً عن متناول السودانيين الثائرين فعسكروا مرة ثانيـة في كورتي .

وبالرغم من سقوط وزارة الاحرار وتولي المحافظين الوزارة في ٢٤ يونيـو ١٨٨٥ إلا أن قرار انسحاب القوات من السودان بأجمعـه أصبح أمراً مقرراً وذلك خوفاً من حرب طويلة مكلفة أولاً ، وثانياً لأن المسألة الافغانيه[١] بدأت تطل برأسها في نزاع بين بريطانيا وروسيا . ولذلك فقـد تلقى اللورد ولسلي أوامر بسحب قواته الى شمال وادي حلفا .

وهكذا أصبح شمال السودان أيضاً جزءاً من دولة المهدي كما أضحى مقبرة لعدد من كبار الضباط البريطانيين .

---

(١) كرابايتس : الاستيلاء على السودان (لندن ١٩٣٤) ص ٢٢ . وكرومر ص ٢٧ .

بقي على المهدي بعد سقوط الخرطوم كثير من الجيوب في السودان فيها قوات مصرية محاربة فكان عليه ان يقضي عليها في كل من كسلا وسنار وخط الاستواء حتى يتم رسالته في تصفية الحكم المصري التركي والتدخل الانجليزي في البلاد .

لم يكن الشعور عند الشعب المصري بأقل حماساً من السودانيين بسبب انتصارات المهدي على الانجليز ، وكان المصريون في مصر العليا ينتظرون من قوات المهدية الزحف الى مصر لطرد المستعمرين .

بريطانيا تهاجم شرق السودان :

كان من جراء سقوط الخرطوم وإخفاق جيش الصحراء البريطاني وعدم تقدم الجيوش البريطانية الاخرى التي سارت على النيل وعسكر بعضها في كورتي ان اتخذت الحكومة البريطانية موقفاً عدائياً وهجوماً كبيراً على شرق السودان حيث كان عثمان دقنة . ففي الوقت الذي كانت القوات البريطانية تهدد شمال السودان وعاصمته بقيادة الجنرال ولسلي أرسلت الحكومة البريطانية جيشاً قوياً يصل تعداده الى ١٣٠٠٠ جندي بريطاني واسترالي وهندي تعاونهم أورطة من المشاة وبطارية ميدان أرسلتها حكومة ويلز الجنوبية الى سواكن لكسر شوكة قبائل البجة والقاء القبض على القائد السوداني عثمان دقنة وذلك بوضع مكافأة مالية كبيرة لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً ، وبناء خط حديدي من سواكن الى بربر لجعل الطريق عبر جبال البحر الاحمر مفتوحاً لاستعماله في المستقبل حينما تدعو الحاجة لفتح السودان .

كان من جراء ارسال جيش جراهام ان بدأ صراع عنيف بين الندين : فعثمان يملأ الحماس قلبه وقلب رجاله الذين يريدون الذود عن حريتهم وعقيدتهم ،

والبريطانيون يريدون ان ينقذوا شرف الامبراطورية الذي لوثته صحارى السودان في الشمال والشرق. ولم يكن لدى عثمان من الرجال ما يسمح له بالقضاء على الغزاة إذ أن عدد رجاله لم يكن يتجاوز ١٠,٠٠٠ مقاتل يحاوي بالسيوف وقليل من البنادق .

وكان الجيش البريطاني بقيادة السير ماكنيل يعد العدة ويقيم الزرائب ليتحصن بها خوفاً من هجوم الامير عثمان دقنة المباغت ، ولكن هذا القائد البريطاني فوجيء بظهور جيش الامير عثمان دقنة فجأة في توفريك[١] في يوم ٢٢ مارس ١٨٨٥ ، واشتبك الجيشان في صراع دموي بلغت فيه الخسائر البريطانية في الارواح حداً جعل البريطانيين في جزيرتهم ينتقدون صلاحية ضباطهم ومقدرتهم على الوقوف امام عثمان دقنة . وخسر الجيش البريطاني أيضاً الكثير من الحيوانات التي أعدت للحملة من جمال وخيل . وعندما أفاقوا من هول المفاجأة أرادوا أن ان يكروا على الامير عثمان دقنة في معسكره بتأماي ، ولكن عثمان ومن معه من القوات السودانية صدت ذلك الهجوم ، وأسرع جراهام عائداً الى معسكره.

أما معركة توفريك هذه فقد كانت معلماً في تحول السياسة البريطانية عن المضي في حرب عثمان دقنة في شرق السودان كما أخذ الرأي العام البريطاني يناقش جدوى الدخول في معارك غير فاصلة مع الامير عثمان دقنة في الشرق إذ ان خطة عثمان دقنة كانت ترمي الى عدم الاشتباك في معركة فاصلة مع الجيش البريطاني الذي كان كثير العدد قوي التسليح . وقد أقلقت خطط الامير السوداني كل الفنون الحربية الانجليزية . ويقول كرومر بأنه كان تحت قيادة الجنرال جراهام حوالي ١٣٠٠٠ جندي بريطاني وهندي ، بينما كان عثمان دقنة في هذه المعركة في خمسة آلاف[٢] رجل ، وقد كانت خسارة السودانيين فادحة

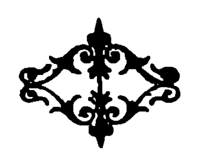
---

(١) وليم قالواي : موقعة توفريك (لندن ١٨٨٧) .
(٢) كرومر ص ٢٥ ج ٢ .

إذ بلغت ١٥٠٠ قتيل ، وبلغت الخسائر البريطانية ١٥ ضابطاً و ٢٧٨ من الجنود هذا غير التابعين للجيش البريطاني واستعمل الجيش البريطاني المدافع الرشاشة في هذه المعركة .

لما رأى عثمان تفوق اعدائه بفعل المدافع وعدد الجنود انسحب من أرض المعركة وهو ينوي ان يركز جهاده على حرب عصابات ومناوشات دون الدخول مع العدو في معركة فاصلة فينال العدو نصراً نهائياً من جرائه .

في هذا الحين أخذت الوزارة البريطانية تضيق ذرعاً بفشل الجنرال جراهام، فأمرت بوقف بناء الخط الحديدي وسحب كل القوات البريطانية من جبال البحر الاحمر . وقد بدىء فيه من شهر مايو ١٨٨٥ . وهكذا استطاع عثمان دقنة مرة ثانية أن يصد الزحف البريطاني في شرق السودان ، ووجد متنفساً لكي يعمل في ميادين أخرى بهمته المعهودة وعبقريته العسكرية الفذة .



٩

المهدي يحكم السودان

بالرغم من أن الخرطوم سقطت في أيدي قوات المهدي منذ ضحى ٢٦ يناير ١٨٨٥ الا أن ذلك الظفر لم يكن نهائياً بالنسبة للمهدي لأنه ما زالت هناك قوات بريطانية قوية زاحفة على الخرطوم ، فكان لا بد من إيقاف هذا التوغل البريطاني وعليه فقد ارسل كبير قواده الامير عبد الرحمن النجومي ليتبع آثار الحملة البريطانية التي بدأت في الانسحاب وبقي هو وأغلبية الجيش في معسكر أبي سعد بالقرب من الخرطوم في انتظار أنباء عبد الرحمن النجومي حتى تأكد من توقف الخطر الانجليزي المتوغل .

وفي ٣٠ يناير ١٨٨٥ استقل المهدي الباخرة التي كان قد بناها غردون وأطلق عليها اسم الزبير احياء لذكرى الزبير باشا ، فلما ارتقى المهدي ظهرها اسماها « الطاهرة » وعبر بها النيل الى الخرطوم لأداء فريضة الجمعة هناك . وبقي في الخرطوم حتى زوال الخطر البريطاني فرحل في أواخر فبراير ١٨٨٥ الى أمدرمان حيث بنى جامعاً يسع حوالي الف رجل . ومنذ ذلك الحين بدأ الناس يتوافدون على أمدرمان من كل انحاء السودان حتى عظم عدد سكانها وقدر بمليون نسمة .

كان المهدي في ذلك الوقت قد وضع اللبنات الاولى لحكمه منذ ان بايعه القليل

من السودانيين وصارت سياسته في الحكم ترمي الى انشاء دولة اسلامية تتخــذ الشريعة في كل احكامها . وكان منذ البداية يترسم اعمال النبي (ص) فلقب نفسه بالمهدي خليفة رسول الله، ثم جعل اربعة خلفاء له هم خليفة الصديق وهو الخليفة عبد الله التعايشي ، ثم خليفة عمر بن الخطاب وهو علي ود حلو ، ووهب لقب خليفة عثمان بن عفان للسيد السنوسي بليبيا ولكن ذلك لم يبد تجاوباً مع ثورة المهدي وتعاليمه وتجاهل كتاب المهدي له ، واما الخليفة الرابع فهو خليفة علي الكرار وكان من نصيب الخليفة شريف . تلك كانت الأسس الخلافية التي وضعها المهدي في بداية كفاحه ، وكان يرمي من وراء هذه التعيينات الى وضع دستور ظاهر للناس حتى لا يكونوا بدون خليفة يحكمهم بعد وفاته .

وقسم الجيش الى ثلاثة اقسام وجعل كل قسم منه تحت قيادة احد الخلفــاء السـودانيين الثلاثة ، كما جعل لكل من الخلفاء راية . وكانت اكبر تلك القيادات من نصيب الخليفة عبد الله التعايشي (خليفة الصديق) وكان لون رايتــه اسود (ولكن سماها السودانيون الراية الزرقاء إذ انهم كثيراً مـا يطلقون لفظ اسود على الازرق) . وكان جنود تلك الراية من ابناء قبائل غرب السودان .

ثم كانت هناك الراية الخضراء وهي تحت زعامة خليفة الخطاب وهو الخليفة علي ود حلو . ولم يكن جنودها كثيرين ولكنها ضمت ابناء قبيلتي دغيم وكنانة ومن جاورهما .

اما خليفة الكرار الخليفة شريف فقد كانت الراية الحمراء من نصيبه،وكانت راية قوية ضمت كل السـودانيين القاطنين في ارض الجزيرة والذين على ضفاف النيل حتى الحدود الشمالية للبلاد .

المالية :

اهتم المهدي منذ البداية في جهاده بتنظيم الادارة المالية على ان تطابق الشرع في جمعها وتقسيمها . وكان الدخل في اول الامر يجمع من مصدرين رئيسيين : الاول من الزكاة والثاني من الغنائم . وبدأ في جمع الزكاة والعشور (اي عشر الممتلكات) منذ ان قضى على الجنرال هكس وجيشه في نوفمبر ١٨٨٣ .

اما الغنائم فانه كان دائم التذكير للامراء في الاقاليم لكي يستلموا الغنائم ويسلموها دون تأخير . وكانت الغنائم بطبيعة الحال تجمع من المدن المفتوحة فتصادر أموال الحكومة السابقة وما كان يخبئه الاداريون المصريون من أموال في بيوتهم إذ انها جمعت عن طريق الرشاوي والظلم من الاهلين ، ومتى جمعت هذه الاموال بدأ النظر في طريقة حفظها وتقسيمها . فان كان الجيش المنتصر يتكون من جنود نظاميين في جيش المهدي ولا عمل لهم غير الجندية فان الغنائم بأكملها تودع في بيت المال كي تصرف المرتبات المنتظمة لأولئك الجند . اما إن كان الجيش يتكون من الجاهدين المتطوعين ممن لهم حرف اخرى ولكن ظروف الجهاد اضطرتهم الى الانخراط في الجيش فانهم ينالون اربعة أخماس الغنائم ويوضع الخمس الباقي في بيت المال ليكون تحت تصرف المهدي .

وتمشياً مع الاستقلال السياسي فان المهدي أمر بضرب عملة مستقلة خاصة بحكومته وذلك لمجابهة النقص في العملة الذي نجم عن اختفاء كثير من الاموال أثناء الثورة ، فأمر بضرب العملات الفضية والذهبية بعد ان استخدم في ذلك الحلي الذهبية والفضية التي استولى عليها في الابيض والخرطوم . وقد نجح في هذه الخطة فأصبح السودان مستقلاً في عملته النقدية القوية .

اما يده اليمنى في وضع الاسس المالية والاقتصادية فقد كان احمد ولد سليمان ،

وكان المهدي يأتمنه طيلة حياتـه الا ان الخليفة عبد الله التعايشي اختلف معه فيما بعد وأمر باعدامه فاعدم .

الشؤون الادارية :

منذ أن ثار المهدي في جزيرة أبا وهو يدير كل الشؤون الخاصة بأنصـاره في كل مكان ، فكان هو القائد الاعلى ورئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والمسؤول المالي الأول. لكن ما لبث ان زادت اعماله وأعباؤه باتساع فتوحاته في السودان فبدأ في تنظيم الادارة حسب ما تقضي الظروف . وكان منذ البداية ايضاً قـد اصطفى خلفاءه للمشورة وكان يدعو كبار قواده ايضاً في ذلك ويعمل بمشورتهم كما فعل حين هجم على الخرطوم .

لكن بعد فتح الخرطوم اصبح العبء الاداري عظيماً ، وتفاقمت المشكلات الادارية ولذلك فقد عدل في هيكل ادارته فنرى انه عين سبعة امناء ليكونوا بمثابة وزراء كما جعل الخليفة عبد الله التعايشي رئيساً لهم . وكان المهدي يريد ان يتفرغ لتجهيز جيش قوي لغزو مصر وضمها الى دولته الاسلامية .

أما في الاقاليم المختلفة في السودان فقد عين لها عمـالاً من بين الامراء الذين ذهبوا للجهاد في سبيل الله ضد الانجليز والمصريين في كل انحاء البلاد فكان عثمان دقنة عامله وأميره في شرق السودان ، ومحمد الخير في بربر ، ثم عين حسين بك خليفة على اهله العبابدة ، ومحمود عبد القادر في كردفان وغير هؤلاء. وكان الامير او العامل يجمع الزكاة والعشور والغنـائم المستحقة لكي تكون في بيت المال بأم درمان .

ولما كانت ثورة المهدي قامت بوحي ديني فان الشريعة الاسلامية كانت هي المعمول بها في طول البلاد وعرضها منذ ان اصبح المهدي سيد الموقف ، ولكنه

اراد ان يبسط الامور ويعيد الشريعة الى ما كانت عليه ايام النبوة ولذلك فقد أمر بتعطيل كل المذاهب ، وإبطال الطرق الصوفية ، وعدم الأخذ بآراء العلماء بل أمر بالرجوع الى الكتاب والسنة لأنها الأصل والعمل بما في منشوراته. وكان يرى أن اجتهاد العلماء على مدى العصور أثار تعقيداً في الشرع لا مبرر له ، وأن الوقت قد حان لتبرئة الاسلام من تلك الامور المعقدة وذلك بالرجوع الى الاصل النقي الصافي النبع .

كان من جراء ذلك أن توثقت عرى الوحدة في البلاد وضعفت التفرقة الطائفية والصوفية وأصبح السودان وحدة متماسكة .

الاشراف :

الأشراف هم اقارب المهدي الذين ينتمون الى القبيلة التي تحمل نفس الاسم ، وبحكم صلة القربى بالمهدي فانهم كانوا يرون أن منزلتهم يجب ان تكون كمنزلة الهاشميين او الطالبيين في العالم الاسلامي . لكن المهدي منذ توليه زمام الجهاد اقصى ابن عمه السيد محمد الخليفة شريف فجعله في مقام الامام علي بن ابي طالب أي أنه اضحى رابع الخلفاء . ولم يرض الخليفة شريف بذلك وهو الشاب الطموح الذي كان يرى أنه أحق الناس بالامر بعد ابن عمه المهدي. وشعر المهدي بذلك فأمره بألا يتصل اتصالاً مباشراً بالخليفة عبد الله وذلك حتى لا تبدأ الحزازات بين الرجلين ونصح للخليفة شريف بان يبدي آراءه لعبد الله عن طريق الخليفة الثاني علي ود حلو .

بيد أن المهدي لم يكن راضياً عن طموح الاشراف لأنهم كانوا يسيئون الى مركزهم ببعض اعمالهم التي عدها المهدي استغلالاً للنفوذ ، ولذلك فانه في يوم الجمعة الموافق ١٢ يونيو ١٨٨٥ وهي آخر جمعة في حياته خطب في المسجد قائلاً :

« ايها الناس : إنني مللت من النصح والمذاكرة لأقاربي الأشراف الذين تمادوا في الطيش والغواية ، وظنوا ان المهدية لهم وحدهم ، ثم مسك ثوبه ونفضه ثلاث مرات وقال : أنا بريء منهم فكونوا انتم شهوداً عليّ بين يدي الله تعالى » .
وهكذا كان المهدي في ادارته يريد ان يبعد المحسوبية واستغلال النفوذ بشتى الطرق وكانت لطمة قاسية على الاشراف .

تصفية الجيوب الاستعمارية والسياسة الخارجية :

كان من اهم واجبات المهدي التخلص من بقايا الحاميات المصرية في السودان، ثم اخماد ثورات بعض الطامعين في بعض جهات السودان . فأرسل عثمان دقنة الى كسلا لفتحها والاستيلاء عليها ، والدفاع عن تلك الحدود ضد اي غزو حبشي ، كما ارسل محمد عبد الكريم الى سنار للقضاء على حاميتها واخضاعها ، وكذلك فعل في مديريتي بحر الغزال والاستوائية .

وفي سياسته الخارجية كان المهدي يزمع ان يفتح مصر أولاً ثم يسير الى سوريا وتركيا والحجاز وذلك لانقاذ المسلمين من الادارة السيئة التي وقعوا فيها ، وتخليصهم من براثن الاستعمار التركي ، فهو يريد ان يشن حركة دينية تحريرية تعيد الى الاسلام وحدته وعزته ، وكان يقول بأنه سيفتح كل تلك الاقطار باذن الله .

هكذا كانت سياسة المهدي ذات اغراض توسعية ، وكان الانجليز يخشون ان تؤثر دعواه في سواد الشعب المصري متى ما استطاع عبور الحدود والتوغل في صعيد مصر . ولذلك فقد عزموا على الدفاع عن حدود مصر الجنوبية بعزم واخلاص ، وكان الشعب المصري وخاصة في الصعيد ينتظر قدوم المهدي اليهم

للانضمام في جنده والتعاون معه على طرد الانجليز من مصر مؤمنين برسالتـه ، وبانه القوة الوحيدة التي تستطيع ان تقف ضد البريطانيين وتطردهم من البلاد .

وفاتــه :

بيد أن الأيام لم تجعـل للمهدي الفرصة لتحقيق اغراضه الكبرى في اقامة دولة اسلامية موحدة تعيد للاسلام عزته ومنعته . وقبيل حلول شهر رمضـان كتب الى كل المسلمين في السودان بانه يريد الاعتكاف للعبادة في شهر رمضان وأنه لا يريد ان يفسد خلوته الدينية بامور الدنيا طيلة ذلك الشهر .

كتب يقول :

« يقول العبدلله محمد المهدي ان هذا الذي أقبل هو شهر رمضان ، زمن الاقبال على الرحمن ، وميدان الاشتياق الى عظيم الشأن ، فانزعوا ايها الاحباب فيه للديان ، ووطنوا قلوبكم على الشدائد والرضا بالبلايا والامتحان، حيث أوعد بذلك الرحمن ، لتبيين حال اهـل الصفوة والرسخان ، وبشر الصابرين بعظمة الشان ، وحسن العواقب وتولية الديان ، فتوكلوا على الله ، وفوضوا له في كل ما يفعل لحسن الظن به إذ هو حقيق بالاحسان ، وهو العالم بما لا يعلمه الأبوان ... فلا تشغلوني بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر، وخلونا للذكر والتذكار، والصلوات والدعوات فان فقد العبد نور الصبر والرضى والتفويض ، وأراد ان يرفع حاجته الى العبيد ، فها هم الخلفاء نيابة عني ، والامنـاء المنيبين والقاضي . فمن شغلني بشيء في رمضان بعد هذا فلا يلم الا نفسه والسلام » .

ولم تمض اربعة ايام على اعتكافه في شهر رمضان من عام ١٣٠٢ هـ حتى اصيب

المهدي بمرض لم يمهله طويلاً فانتقل الى جوار ربه في يوم الجمعة ٦ رمضـــان سنة ١٣٠٢ هـ الموافق ٢٦ يونيو ١٨٨٥ م .

مكانة المهدي في تاريـخ السودان :

كان المهدي شخصية سودانية فريدة سواء أكان مـــا يتعلق به من ترويض للنفس أو تأثير على غيره من النـــاس . فهو منذ حداثته وفي شبابه عكف على انتهاج حياة فكرية ثورية ، فانخرط في دور العلم والمعرفة والدين في زمن اختلط فيه الظلام بالجهل ، واتبع المثل العليا والقيم الاخلاقية في عصر بالغ الحكام فيه في التدهور الخلقي ونكران المثل العالية . ثم انه احيا دولة السيف وقتل دولة البارود وكانت هذه معجزة لا تعادلها الا معجزته الاخلاقية ، فهو من هـــذه الناحية أراد أن يعيـد الى الاسلام صفاءه ونقاءه ، وقوته ومنعته . لكن يجب ألا نذهب بعيداً في الظن بأن المهدي كان محافظاً على التراث القديم ، او رجعياً أراد العودة الى العهود السابقة وما ذلك الا لان المهدي لم يكن كذلك فهو يريد ان يعيد الى الاسلام سابق أمجاده بتطوير الاجتهاد في ترجمة عقيدته وتعاليمه ، وهو لم يقبل بما جاء به العلماء السابقون ، والفقهاء الأقدمون بل أمر بالغاء كل ما وجد من فتوى واجتهاد ، وأصدر تعاليم جديدة لتصبح مكملة للقرآن والحديث والسنة . فهو قبـِل بطبيعة اسلامه المصادر الاصلية للدين ، ولكن لم يقبل جدل الفقهاء الذي عقـّد الامور حسب رأيه ، فأراد ان يعيد البساطة الى الدين حتى يستنير به كل مسلم . وكان من رأيـــه أن أئمة الاسلام الأربعة مالك والشافعي وابن حنبل وأبو حنيفة انما قاموا بتوصيل العلم الى من بعدهم وهم يشكرون على ذلك ، ولكن عملهم قد انتهى الآن إذ أصبح مذهب المهدي هو اتباع الكتاب والسنة ثم التوكل على الله ، وليس هناك ما يدعو الى تفريق المسلمين على المذاهب الأربعة الأخرى الكثيرة المختلفة حسب اختلاف آراء المجتهدين .

كان المهدي صاحب رأي ينادي بوجوب وضع الأمور في نصابها ، فالحديث النبوي « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الايمان » هو من بين الأسس التي بنى عليها المهدي دولته ، بل انه لا يرضى من أصحابه إلا بأقوى الايمان ، وعلى ذلك فان من رأى منهم منكراً فقد لزم عليه أن يغيره بحد السيف . ومن ثم وضع مرتبة أصحابه فوق مراتب بعض أصحاب الأولياء الصالحين ايماناً منه بأن أصحابه لا يبيعون آخرتهم بدنياهم ، ولا يسكتون على المنكر بل يحاولون تغييره بيدهم وبسيفهم .

اختصر المهدي الطريق الى الله فبعد ان كانت الطرق الصوفية هي المؤدية الى الله تعالى ، وأصبح من المسلم به ان العبد لا يستطيع الوصول الى الباريء الا عن طريق أحد مشايخ الطرق أزال المهدي تلك الفكرة السائدة التي كان هو أحد المؤمنين بها في بداية حياته ، وجعل الطريق مفتوحاً بين الخالق والمخلوق ولا داعي للوساطة بينهما . وكانت مثل هذه الفكرة ذات أثر فعال في الناحية السياسية اذ ان اعتناقها قوّى من وحدة القطر الذي كانت الطرق الصوفية من بين عوامل التفرقة فيه ، وتقسيم أبناء الوطن الواحد . لذلك عمد المهدي الى الغاء الطرق الصوفية بغرض إكمال الوحدة الوطنية وليضحي ولاء المواطنين لبلادهم وليس لمشايخهم ، وليكون الدين واحداً لا تفرقة فيه ولا شيع ولا ملل .

هذه الوحدة الدينية والقومية هي من أهم التراث الذي تركه المهدي في تاريخ السودان ، فقد كانت البلاد منذ فترة طويلة في تاريخها لا تجد الأسس القوية للوحدة ، ولم يحدث في كل عصور تاريخ السودان ان توحدت البلاد بأسرها تحت زعامة وطنية كما حدث في عهد المهدي ، فهو الذي أعطى البلاد وحدة

دينية ، ووطنية ، وأزال الفوارق الطائفية الدينية ، والنعرة القبلية . ومنـــذ ذلك التاريخ برز السودان كقطر قوي أصبح قبلة انظار المسلمين في جميـع بلادهم حيث كانوا يتوقعون للاسلام شأناً جديداً تحت زعامة المهدي وانتصاراته الباهرة على القيادات الانجليزية المتتابعة .

ولئن قل الايمان بالمهدي في القرن العشرين كمهدي جـاء لنصرة الدين ، فان مكانته القومية ، وزعامته الوطنية ما زالت سامية في نفوس السودانيين جميعاً ، وتعتبر ثورته الحد الفاصل بين عهد القبلية وبزوغ عهد القومية السودانية .



١٠

عهد الخليفة عبد الله التعايشي

١٨٨٥ — ١٨٩٨

أطلق المهدي على عبدالله التعايشي « خليفة الصديق » ، ومنحه كثيراً من الصلاحيات أثناء حياته ، وأطلق يده في الأمور الادارية ، فكان بمثابة رئيس الوزراء يحكم ويدير البلاد . وكان في دستور المهدي أن الخليفة عبدالله هو الذي سيتولى الحكم في حالة وفاته بالرغم من صلة القربى بين المهدي والخليفة شريف .

وعندما توفي المهدي قام الخليفة علي ود حلو وبعض كبار فقهاء الدولة وعلمائها الذين حضروا الوفاة بمبايعة الخليفة عبد الله كما أسماه المهدي . ثم جرت مبايعة العامة له في المسجد بمدينة أمدُرمان عاصمه البلاد الجديدة . ولم يسع الخليفة شريف الا ان يبايع كما بايع زملاؤه من كبار رجال الدولة ، وبذلك اصبح الخليفة عبد الله رأس دولة المهدية في السودان .

لكن موقف الخليفة عبد الله يختلف عما كان عليه موقف المهدي الذي كانت حوله هالة من التقديس والاحترام الديني والقومي . فالمهدي كان فريداً وحيداً في مهديته لا ينازعه فيها منازع ، اما الخليفة عبد الله فهو احد خلفاء ثلاثة ينتمون الى جماعات مختلفة بعضها لا يرى أنه اهل لتولي رئاسه الدولة . وكان

الخليفة شريف واهله من الأشراف يرون أن الخلافة يجب ان تكون لهم دون غيرهم . ولما استولى الخليفة عبد الله على الحكم بدأت هذه المنازعات تشتد وتطفو الى السطح .

المشكلات الداخلية والخارجية

١ – الصراع بين الخليفة عبد الله والأشراف :

بمجرد استلام الخليفة عبد الله الحكم شعرت القبائل السودانية التي تسكن على النيل بأن السلطان خرج من أيديهم الى من هم دونهم تقدماً ومدنيـة ومالاً ، ووجدوا انفسهم يحكمهم رجل لا يكنون له احتراماً كبيراً لأنه لا يمتاز عنهم بشيء في النسب او الجاه ، بل يعتبرونه أقل منهم في كل ناحية وخاصة العلم والرقي . ومنذ ذلك الحين انقسم السودانيون الى قسمين : سكان النيل وسكان الغرب الذين يسكنون في غرب السودان . وكان زعماء سكان النيـل هم من الاشراف والدناقلة والجعليين أساساً ، اما اهل الغرب فعلى زعامتهم البقارة ثم بقية من ناصرهم من هناك .

تولى الخليفة عبد الله الحكم في وقت عصيب كثرت فيه المشكلات الداخلية والخارجية ، وكان عليه ان ينظر في حل تلك الأزمات قبل ان تتفاقم .

كانت اولى تلك الأزمات مشكلة الولاء له ، فقد عرف منذ اللحظة التي توفي فيها المهدي ان الاشراف وعلى قيادتهم الخليفة شريف غير راضين عن مبايعته ، وأنه لولا الظروف الحربية التي أحاطت بالموقف لما قبلوا بيعته . وكان الخليفـة شريف صاحب راية حربية عظيمة ، وكان تحت اشرافه عدد من اكبر قواد

المهدية منهم الامير عبد الرحمن النجومي الذي كان في المتمـــة متعقباً الجيش البريطاني المنسحب، ومحمد عبد الكريم حيث كان محاصراً لمدينة سنار ، ثم محمود عبد القادر وكان حا كماً على مديرية كردفان ، ومحمد خالد زقل بجيش لجب وهو في دارفوز ، وكرم الله كركساوي الذي ارسله المهدي الى بحر الغزال . وهكذا كان كل قواد راية الخليفة شريف خارج العاصمة ام درمان ومعهم اكثرية المحاربين من سكان النيل والجهادية السود الذين كانوا من جنود الحكم المصري السابق . ولو كانت جيوش الخليفة شريف موجودة بالعاصمة آنذاك لوقعت حرب اهلية طاحنة بين الخليفة شريف وانصاره ، وبين الخليفة عبد الله واتباعه .

أما الراية السوداء التي يسميها السودانيون بالراية الزرقاء وهي راية الخليفة عبدالله فقد كانت أقوى الرايات بالعاصمة عند وفاة المهدي ، وينضوي تحتها كل رجال الغرب ما عدا أبا عنجة وجيشه اذ كان قـــد أرسل لاخماد عصيان بلاد النوبة بالغرب .

وكانت الراية الخضراء وصاحبها الخليفة علي ود حلو تقف حائلاً ووسيطاً بين القوتين المتنافستين ، وهي راية صغيرة ولكن صاحبها كان تواقاً الى حفظ كيان الدولة ووحدتها ونظامها .

هكذا نجد ان القوة العسكرية بالعاصمة هي التي قررت لمن يكون الحكم في البلاد . ولذلك فقد كان الخليفة عبد الله منذ ذلك الوقت حريصاً على الاحتفاظ بقوته واضعاف قدرة خصمه الحربية بأسرع ما يمكن . وعلم بأن الراية الحمراء التي كانت موالية للخليفة شريف انما هي دولة داخل الدولة ولذلك فقد وجب القضاء عليها ووضع القوات المسلحة كلها في يد رئيس الدولة حتى لا ينازعـــه منازع .

أما الأشراف فقد كان عليهم اذا ارادوا ان يحققوا مطامحهم واطماعهم في

الحكم ان يسبقوا الخليفة عبدالله في تقوية مركزهم الحربي بالعاصمة ، وتجميع قواتهم العسكرية فيها قبل ان يضرب الخليفة عبد الله ضربته القاضية ويستمر تفوقه الحربي .

مع هذه الأزمة كانت هناك مشكلة ولاء سكان النيل للخليفة عبد الله ، وكان الخليفة يرى بأنه ان لم يكن من الممكن اخلاص هذه القبائل له فليس أقل من ان تهادنه وتطيعه كما كانت تطيع المهدي . اما احتقارها له ولاهله من أهل الغرب فمسألة ليس لها اعتبار طالما انها لا تثير نزاعاً حربياً او ضعفاً سياسياً .

والموقف الحربي في البلاد ما زالت تتهدده بعض المخاطر : فهناك مدينة سنار ما زالت تقاوم جيوش المهدية التي كان يقودها محمد عبد الكريم ، وهناك بحر الغزال حيث ارسل المهدي كركساوي لقتال الجنود المصريين وقادتهم الاوروبيين وإخضاع تلك المناطق للحكم المهدي ، وكسلا في شرق السودان ما زالت تقاوم جيوش الانصار ، وجبال النوبة ثارت في وجه حكم المهدي وارسل اليهم القائد لمهدوي أبا عنجة لاخماد ثورتهم . وهكذا كانت البلاد من الداخل في حالة مضطربة كثيرة النيران .

بالاضافة الى الأزمات الداخلية كان على الخليفة ان يواجه خطر الغزو الخارجي ايضاً فالقوات المصرية الحديثة باشراف الضباط البريطانيين ومساندة الجيوش الانجليزية لها تتربص بهذه الدولة على الحدود الشمالية ، وفي شرق السودان على البحر الاحمر ما زال البريطانيون يسيطرون على سواكن ويحاربون الامير عثمان دقنة بقواتهم البرية وأساطيلهم البحرية ، كما فرضوا حصاراً قوياً على الشواطيء السودانية . وفي شرقي كسلا كانت الجيوش الحبشية نشطة في اتصالاتها بالقوات المصرية ومحاولة مساعدتها ضد الانصار .

كل هذه العناصر كانت تشكل خطراً عظيماً على دولة المهدية ، وتهددها بالفناء .

رأى الخليفة عبد الله كل هذه الاخطار التي تتهدد دولته عندما استولى على الخلافة فكان عليه ان يواجه هذه الازمات بما يبقي على حكمه وعلى الاحتفاظ باستقلال السودان ووحدة اراضيه .

تصفية الموقف الداخلي : ١٨٨٥ – ١٨٩٣

نجح الخليفة عبد الله في الحصول على مبايعة الاشراف عامة والخليفة شريف خاصة في الجولة الاولى،وبقي عليه ان يحتفظ بولائهم للنهاية لا عن طريق البيعة فحسب ولكن عن طريق ضم الجيوش المنضوية تحت تلك الراية الى رايتـــه ، وتوحيد الجيش السوداني تحت قيادته .

هذه الظروف التي احاطت بالخليفة جعلته يغير نظام الحكم في البلاد تغييراً جذرياً ، ويستبدل الدستور الذي وضعه المهـــدي بآخر يتفق ومصالح العهد الجديد . وبينما كان المهدي منصرفاً عن الحكم باعطاء سلطاتــه الواسعة لخليفته عبد الله وبقية الخلفاء والامناء احتفظ الخليفة بالسلطة المطلقة في يـــده ،ولم يفوض احداً غيره بتصريف شؤون الدولة ، وسلك الطريق المؤدي الى هـــذه الغاية .

كان الخطر الاول الذي هدد الدولة السودانيـــة الفتية هو الجيش الانجليزي المرابط في الحدود ، ومنذ وفـــاة المهدي كان الخليفة عبد الله يفكر في ارسال الخليفة شريف بجيوشه لمحاربة الانجليز في نوفمبر ١٨٨٥ ، وجعله يعسكر شمالي أمدرمان بكل قواته. ثم بلغ الخليفة في شهر سبتمبر ١٨٨٥ أن الانجليز يريدون الهجوم على أمدرمان ، فأجل الخليفة الزحف ريثما يجمع بقية القوات وخاصة تلك التي بقيادة ابي عنجة . غير ان الانجليز لم تكن عندهم نية الغزو في ذلك الوقت وانسحبوا نهائياً من دنقلا في اوائل ١٨٨٦ .

اصبح جيش الخليفة شريف بعد الانسحاب الانجليزي لا لزوم له ، بل كان يثير مخاوف الخليفةعبد الله لما كان يراه من لجوء هذا الخليفة الى استعراض قوته الحربية وجنوحه الى ابراز استقلاله من سلطان خليفة المهدي .

ثم إن خطر الاشراف أطل برأسه عندما شغر منصب حاكم الابيض محمود عبد القادر . وتفاصيل ذلك أنه بعد وفاة المهدي كان محمود عاملاً على كردفان فطلب منه الخليفة ان يقدم الى أمدرمان لأخذ البيعة .ولم يبادر محمود بالشخوص الى أمدرمان مما أثار شكوك الخليفة عبد الله فيه ، ثم إنه لما اخذ البيعة طلب اليه الخليفة ان يبقى في العاصمة ، وكان الخليفة يقصد من إبقائه بعيداً عن كردفان ان يقلص نفوذ الاشراف في تلك المنطقة حيث تسكن قبائل البقارة التي ينتمي اليها الخليفة عبد الله ، ثم العمل على استمالة عشائره الى صفه بدلاً من تركهم موالين لآل المهدي وذريته .

طلب محمود من الخليفة ان يسمح له بالذهاب الى الابيض لتصفية اعماله واحضار آله فأذن له . وما أن وصل الى هناك حتى وجد ان بعض عساكر الجهادية قد ثاروا على الحكومة ، فحاول إخماد ثورتهم وتعقبهم في الجبال ولكنهم تمكنوا من قتله والتخلص من جيشه .

لما علم الاشراف بموت ممثلهم محمود عبد القادر اجتمعوا وأصدروا قراراً بتعيين احدهم في مكانه .وهنا عرف الخليفة عبد الله وأخوه يعقوب ان الاشراف يبيتون امراً ، فقال يعقوب معلقاً « إن الأشراف أيقظونا من النوم » ، وأسرع الخليفة بتعيين احد رجاله وهو عثمان آدم .

ثم إن الامور تطورت تطوراً سريعاً حين فكر الخليفة شريف وأنصاره في إحداث انقلاب واستلام السلطة الفعلية في أمدرمان ، وإزاحة الخليفة عبد الله التعايشي عن منصبه . وكان عبد الله يراقب الموقف بحذر ويقظة ولما رأى أن

الامر سيأخذ طريقاً حربياً لجأ الى الخليفـــة علي ود حلو ليتدخل في الامر ، ويفاوض الخليفة شريف على عقد صلح معه ليجنب الدولة الانهيـــار والحرب الاهلية .

كان الخليفة علي يعتقد بسلامة تولية التعايشي وصحة خلافته ، كما كان لا يقر حدوث أية فتنة داخلية في دولة المهدية ، لذلك فانه أخذ في مفاوضة الخليفة شريف والخليفة عبدالله حتى نجح في الوصول الى صلح قبل به الطرفان .

في مارس ١٨٨٦ انتهى الصلح بوضع كل القوات العسكرية والسلاح والرايات في يد الخليفة عبدالله التعايشي الذي استلم راية الخليفة شريف وراية الخليفة علي ود حلو على أساس أنه هو الخليفة والوالي الذي تجب طاعته . وجعلت للخليفة شريف مخصصات مالية من بيت المال له وللاشراف وأفراد عائلة المهدي كما ترك له حرس يتكون من خمسين رجلاً لإظهار هيبته ومكانته . وقبل الخليفة شريف هذا الصلح بينما شعر أنصاره بان الخليفة عبدالله خدع زعيمهم خدعة كبرى ، وأنهم ما كانوا ليقبلوا مثل ذلك الصلح الذي أضاع عليهم الخلافـــة . وبدأت مؤامراتهم للايقاع بالتعايشي تأخذ طريقهـا وعيون عبدالله ساهرة ترقب تلك الحركات .

أراد الخليفة بعد ذلك ان يوطد اقدامه في المديرية الشمالية حيث « أولاد البلد» — وهم سكان النيل — يكوّنون خطراً على سلطانه في شمال السودان . وكان القائد هناك هو محمد الخير استاذ المهدي الأول . وأصبحت الفرصة مؤاتية عندما انهزم عبد الماجد قائد طلائع محمـد الخير في معركة جنس ضد الانجليز في ٣٠ ديسمبر ١٨٨٥ فاتخذ الخليفة هذه الهزيمة ذريعة لعزل محمد الخير وتعيين احـد أقاربه من قبائل الغرب هو عثمان الدكيم الذي استـلم العمالة في سبتمبر ١٨٨٦ . فأصبح الشمال قليل الخطر على الخليفة الآن ، ولكنه كان في نفس الوقت يعمل

جاهداً على القضاء على قوة الاشراف في الغرب تلك القوة التي كانت تحت قيادة محمد خالد زقل .

كان محمد خالد زُقـُل من أقارب المهدي الذين خدموا في السلك الاداري منذ أيام الحكم المصري . ولما انتصر المهدي على القوات المصرية أصبح زقل حاكماً من قبل المهدي على مديرية دارفور ، وكان تحت قيادته جيش كبير يبلغ تعداده ١٠٠٠ فارس ، و ٣٠٠٠ جهادي اسلحتهم البنادق و ٣٠٠٠٠ من المشـــاة . وكانت هذه القوات مصدر ازعاج وقلق للخليفة ، ومركز أمل كبير للأشراف الذين كانوا يرون فيها القوة الضاربة لكل آمال الخليفة في السيطرة على البلاد .

بدأ الاشراف يحاولون الاتصال بمحمد خالد زقل ويحثونه على النهوض ضد الخليفة الذي خدع الخليفة شريف واستولى على البلاد . وأخذ الخليفة عبدالله يراقب رسائلهم ومبعوثيهم بحذر ولا يترك مجالاً لأي اتصال بين الجانبين . وفي نفس الوقت أخذ يعمل على تجريد محمد خالد زقل من ذلك الجيش رويداً رويداً حتى لا يثير شكوكه .

لم يكن محمد خالد زقل ينوي خلع الخليفة أو الانضمام الى أهله الأشراف أو إحداث فتنة . وكتب احمد سليمان[1] امين بيت مال المسلمين الى محمـــد خالد زقل كتاباً يخبره فيه بأنه الأمل الاخير للاشراف ، وان عبء تحريرهم من سيطرة الخليفة عبدالله يقع عليه . لكن هذا الخطاب وقع في قبضـة الخليفة ولم يحقق مع احمد سليمان وكأن الامر لم يكن حتى أوقع به فيما بعد . وعندما جاء طلب الخليفة الى زقل للانضمام الى القائد الكبير حمدان ابو عنجة – وهو من الموالين للخليفة عبدالله – رحل بجيشه الكبير من دارفور ولكن بتمهـــل وشيء من

(١) فوزي : السودان بين يدي غردون وكتشنر .

التأخير كان له الاثر الكبير في اقـلاق بال الخليفة . ووصل الجيش اخيراً الى مدينة بارة حيث كان يعسكر ابو عنجة . وبمقتضى الاوامر التي وصلتـه من الخليفة عبدالله عمد ابو عنجة الى تجريد محمد خالد زقـل من وحدات الجيش بالتدرج بعد ان أراه مبايعة الخليفة شريف للخليفة عبدالله .

سلم محمد خالد زقل كل وحدات جيشه الى ابي عنجة فلم تبق له اية سلطة . وانصياعاً لأمر الخليفة ألقى ابو عنجة القبض على زقل وكبـله بالحديد حيث أمضى بعض الوقت في السجون ثم أفرج عنه سنة ١٨٩١ وعينه الخليفة اميراً على دنقلة .

هكذا نجح الخليفة عبد الله في تثبيت قواعد حكمه في الجولة الاولى، واستولى على كل القوات العسكرية المهمة ووضعها تحت قيادة قواد من عشيرته ، ووضع القيادة العليا في يد أخيه « جراب الرأي » يعقوب . ولم يبق في القيـادات آخرون سوى عثمان دقنة في شرق السودان حيث كانت شخصيته القوية تمثل القوة المعنوية للصراع هناك ، وبقي ايضاً عبد الرحمن ود النجومي الذي أرسل بجيش صغير الى دنقلة ووضع تحت المراقبة بتعيين مساعد له من عشيرة الخليفـة ، وكر كساوي في بحر الغزال بعيداً عن مسرح الحوادث ثم أُمِرَ بالعودة الى الشمال بعد استقرار الاحوال .

في كل هذه الخطوات التي اتخذها الخليفة عمد الى سياسة عدم إراقـة الدماء وعدم توسيع الشقة باثارة الأحقاد والرغبة في الأخذ بالثارات بينه وبين خصومه ، لكنه مع احتفاظه بالقوات العسكرية الا انه كان يشعر بوجوب تقوية مركزه في العاصمة وذلك عن طريق إيجاد اكبر عدد ممكن من عشيرتـه حتى يحفظ التوازن بينه وبين اولاد البلد الذين كان يقيم بين ظهرانيهم في عاصمتهم أمدرمان. ولذلك فانه بحلول عام ١٨٨٧ ارسل الى قبائل البقارة بغرب السودان يأمرهم بالهجرة الى امدرمان لتعزيز مركزه وسلطانه ، وللالتجاء الى بأسهم اذا حدث

أن ثار عليه « اولاد البلد » كما كان يدعو سكان النيل . ومع ان هذا الاجراء كان يبدو سليماً الا انه أوقع الخليفة في خطأ كبير اذ جعل العصبية القبليـــة دعامة خلافته على دولة المهدية، وأصبح كأنه يتبارى مع زعماء القبائل الآخرين الذين بعثت فيهم نعرة القبلية، وصار الخليفة منذ ذلك التاريخ يواجه مشكلات لم يواجه المهدي مثلها .

٢- الثورات العشائرية :

بالرغم من نجاح الخليفة عبد الله في تركيز السلطة المطلقة في يده ، بمعاونـة وزيره وأخيه الامير يعقوب الا ان البلاد لم تهدأ مطلقاً ، وبدأت الثورات تأخذ طريقها ضد الحكم القائم . ولم تهدف هذه الثورات الى الإطاحة بحكم الخليفـة والاستيلاء على السلطة بدلا منه ، كما انها لم تعمد الى محاولة توحيد المقاومة ضد النظام القائم ، او تعزيز سلطة الاشراف في صراعهم ضد الخليفة ، بل كانت مجرد عدم خضوع للدولة صاحبة السيادة في البلاد . ولم يحدث اي تضامن بين الفئات الثائرة المختلفة في نزاعها ضد الخليفة لعدم وجود هدف معين موحد ، ولذلك فان مثل تلك الانتفاضات القبلية كان مكتوباً عليها الاخفاق منذ البداية ، ولعلها اشبه ما تكون بالردة وحروبها في عهد الخليفة ابي بكر الصديق . وكان جلياً ان الخليفة سينجح في اخمادها واحدة واحدة .

كان من بين المارقين على حكم الخليفة عبد الله زعيم قبيلة الـزيقات ، وهي من قبائل غرب السودان التي كانت تجنـــح الى الاستقلال عن كل حكومة في كل العهود . فلما قامت الثورة المهدية ناصرها الرزيقـات ولكن بتحفظ إذ كانوا يريدون الاحتفاظ باستقلالهم القبلي في تلك المنطقة . وكلما حاول المهدي ان يحضر زعيمهم مادبّو علي الى أم ذرمان للبيعة تجاهل هذا الزعيم الأمر حتى كان عهد الخليفة الذي شعر بأن عصيان مادبّو للدولة أمر يثير المشكلات . لذلك

أمر كرم الله كركساوي أن يعود من بحر الغزال لمجابهة قبيلة الرزيقات وزعيمهم، كما طلب من محمد خير كركساوي الذي كان حاكماً على شكا آنذاك أن يتقدم الى تأديب الرزيقات. وامام هجوم جيوش الخليفة بقيادة الكركساويين انهزمت جموع الرزيقات ووقع مادبو في قبضة يوسف ابراهيم زعيم قبائل الفور وحاكم دارفور من قبل الخليفة ، واستلمه منه في الابيض القائد حمدان ابو عنجة حيث أمر باعدامه بعد أن أدانه في فبراير ١٨٨٧ .

استمرت قبيلة الكبابيش كذلك في خروجها على المهدية ، ولم يشأ زعيمها صالح فضل الله سالم مبايعة الخليفة خاصة وان المهدي كان قد أعدم أخاه التوم في الابيض بسبب عدم مبايعته . وقبيلة الكبابيش منتشرة بين شمالي كردفان حتى الحدود المصرية عبر غرب السودان . وكانت تربطها بمصر مصالح اقتصادية تعتمد على التجارة التي تنقل من غرب السودان على إبلهم لصعيد مصر . والكبابيش هم الذين خالفوا الدفتردار عندما أرسله محمد علي باشا لفتح السودان، ولذلك فانهم كانوا عازفين عن الخضوع لدولة المهدية .

طلب الخليفة عبد الله من صالح فضل الله الحضور الى أم درمان عدة مرات لكي يبايعه ، ولكن صالح رفض وطفق يتصل بالسلطات الانجليزية في مصر لكي تمده بالسلاح والعتاد والمال حتى تشتد مقاومته للخليفة إذا ما قرر الهجوم عليه. وكان الامير عبد الرحمن النجومي مسؤولاً عن ادارة دنقلة ومراقبة الطرق بين غرب السودان ومصر. وشعر عبد الرحمن بالخطر الذي يؤجحه الكبابيش، كما كان عالماً بالصلات الودية التي كانت قائمة بينهم وبين الانجليز . واستقر رأي البريطانيين على مساعدة الكبابيش بالسلاح وغيره فأوفدوا جاسوساً المانياً مرتزقاً هو كارل نيوفلد لكي يقوم بتوصيل ٢٠٠ بندقية وشئلها من الجنيهات مع كمية من العتاد الحربي لحليفهم صالح .

لما شارفت هذه القافلة حدود دنقلة الغربية أرسل النجومي عدداً من جنوده

للقبض على افرادها والاستيلاء على ما فيها ، وهجم جنود النجومي على القافلة ، وبعد معركة قصيرة سلم رجالها للنجومي الذي ارسل الخبر الى الخليفة . ورأى الخليفة ان ولاء قبيلة الكبابيش وزعيمها امر له أهميته القصوى إذا كان يريد ان يمنع نقل أخبار الدولة الى اعدائها الانجليز ، كما ان بقاءهم دون مبايعته فيه خطر على سلامة الدولة .

اصدر الخليفة امراً الى كل عماله في غرب السودان بمنع الكبابيش من الحصول على الغذاء من الاسواق بكردفان ومطاردتهم لأنهم مخالفون للأمة ، والقبض على زعيمهم صالح الذي رفض البيعة فأصبح مارقاً على المهدية . واستطاع رجال الخليفة ان يقتلوه في مايو ١٨٨٧ بعد مطاردة استغرقت بعض الوقت ، وتم اخضاع الكبابيش الى دولة المهدية بتلك الطريقة .

وفي يوليو ١٨٨٧ كانت الاخبار قد وردت الى الخليفة بان قبائل جهينة الغرب (ويسمون رفاعة الهوى) لا تريد الخضوع لأوامر الخليفة ، كما ان زعيمها المرضي ابو روف يرفض مبايعة الخليفة . ومن ثم ارسل الخليفة قائده الزاكي طمل الى هذه القبيلة التي تم اخضاعها بعد قتل زعيمها وبعض رجالها في اكتوبر .

بينما كان الخليفة عبد الله مشغولاً بتحطيم هذه الثورات القبلية بدأت طلائع ثورة جديدة في دارفور بقيادة السلطان يوسف احد سلالة ملوك الفور . وكان يوسف عاملاً من قبل المهدية على الفاشر اذ خلف محمد خالد زقل عندما استدعاه الخليفة الى أمدرمان . ومنذ ان اصبح يوسف حاكماً على منطقة دارفور حنت نفسه الى الاستقلال بملك آبائه والخروج عن دولة المهدية . وكان يخشى وجود قائد الخليفة كركساوي في منطقته ، وحاول التخلص منه ومن جنود المهدية . فلما شعر الخليفة بخطورة الموقف في دارفور استدعى يوسف الى أمدرمان متذرعاً بمطالبته بتجديد البيعة . لكن يوسف اعتذر عن الذهاب مراراً وأخيراً اظهر عصيانه فأرسل اليه الخليفة عامله عثمان آدم يعاونه كرم الله كركساوي ،

والتقت جنود الفور بجيوش المهدية وتم النصر للطائفة الاخيرة ، ولم يلبث ان قتل الامير يوسف في يناير ١٨٨٨ ، ولكن حركة الفور الاستقلالية لم تمت ، واستمرت الدعوة سراً لأخ الامير يوسف وهو الامير ابو الخيرات .

استمر غرب السودان يغذي الحركات النازعة الى الاستقلال وتفتيت وحدة البلاد ، وظهرت حركة ظاهرها ديني يقودها رجل اطلق عليه لقب « ابو جميزة »[1] ولم يعرف احد اصله . وادعى بأنه هو خليفة السنوسي الخليفة الثالث في تعاليم المهدي ، وكتب الى السنوسي يطلب منه تعضيده ، ولكنه لم يتلق منه رداً . واجتمع عدد كبير من اهالي غرب السودان حول ابي جميزة ونشطوا في محاولتهم لتدمير دولة خليفة المهدي عبد الله . فأرسل اليهم الخليفة عبد الله الجيوش لقهرهم ولكن « ابو جميزة » انتصر على جيوش المهدية مرتين ، ثم تقدم نحو الفاشر يريد الاستيلاء عليها ولكنه مات في الطريق بالجدري في يناير ١٨٨٩ .

اصبح إساغة اخو ابو جميزة رئيساً لتلك الطائفة وتابع هجومه على الأمير عثمان آدم قائد الخليفة . وفي واقعة إساغة في ٢٢ فبراير ١٨٨٩ التحم الجيشان في معركة رهيبة انتهت بمقتل إساغة وانتصار قائد المهدية انتصاراً حاسماً .

وكانت هذه اعنف الثورات التي ظهرت في غرب السودان ، وما انتهت الا بعد ان حصدت العدد الكبير من الرجال من كلا الجانبين وخاصة لأنهم كانوا يستميتون في القتال ، وخسر السودان فيها الكثير من القوى البشرية في وقت كانت فيه جيوش الاوروبيين قد بدأت تناوشه من جميع الجهات .

---

(١) قيل انه كان يجلس تحت شجرة جميز كبيرة .

٣ – الاطماع الخارجية :

أضحى السودان آنذاك مطمعاً لعدد من الدول الاخرى التي كانت ترغب في الاستيلاء عليه وبسط نفوذها السياسي . وكانت اولى تلك المطامع قد ظهرت من فرنسا منذ سنة ١٨٨٤ عندما جاء «اوليفيه بان» [1] المراسل الصحفي الذي حاول ان يؤثر على المهدي لقبول المساعدات الفرنسية في سبيل مناهضة التدخل البريطاني. ولكن المهدي أنبأه برفضه لأية مساعدات من دولة اجنبية في صراعه مع عردون . واستمرت الأطماع الفرنسية في الأراضي السودانية حتى بلغت اوجها في عام ١٨٩٨ كما سنبين ذلك في موضعه .

أما الاطماع البريطانية فلم تكن في حاجة الى اظهار اذ جثم الانجليز في مصر حتى وصلوا وادي حلفا وهم يعدون جنودهم والجنود المصريين والسودانيين من السود في سبيل تقويض دولة المهدية . ولم يكتف البريطانيون بوجودهم في شمال السودان بل إنهم احتلوا ميناء سواكن في شرقي السودان ولم يتوقفوا عن محاربة امير الامراء عثمان دقنة وجنوده من قبائل البجة ، كما أنهم فرضوا حصاراً على الشواطىء فمنعوا الحج والصادرات والواردات ، وكان اسطولهم يمنع وصول الاسلحة النارية والمواد الغذائية من خارج البلاد ، ومع ذلك كان الامير عثمان دقنة يحاول الحصول على السلاح من الحجاز ولكن لم ينجح الا في شراء عدد قليل جداً .

في الحدود الشرقية كان الأحباش يتعاونون مع البريطانيين ويفاوضونهم منذ قيام الثورة المهدية في مساعدة اخلاء حاميتي كسلا والقلابات ، وبفضل المعونة العسكرية المصرية عن طريق البريطانيين حصل الأحباش على عدد كبير من

---

(١) سلاطين : النار والسيف .

البنادق من مصر ، كما انهم سمحوا لحامية القلابات بالانسحاب الى أراضيهم ، وفعلوا بالمثل بمدينة الجيرة ، إذ ارسل الملك يوحنا ملك الحبشة جيشاً جراراً لكل من المدينتين مهدداً بذلك جيش المهدية حتى أجبره على الانسحاب وتم للاحباش الظفر بكل ما لدى الحاميات المصرية من عتاد ومال .

بالاضافة الى هذا التدخل الحبشي لصالح كل من بريطانيا ومصر فان بعض السودانيين فروا من البلاد وأصبحوا لاجئين في الحبشة مما جعل الخليفة يشعر بأن جارته لا تضمر له غير العدوان ، واستمرت الاعتداءات الحبشية على القلابات حتى رأى الخليفة عبد الله ان ذلك الثغر أصبح عرضة للتدخل الاجنبي ، ولذلك فقد عمد الى الاستعداد لصد اي اعتداء في المستقبل .

الحرب الحبشية السودانية :

استمر القتال بين الأحباش والسودانيين حين زحف الراس عدار الى القلابات وهزم الحامية السودانية وأحرق المدينة واستولى على ما فيها من غنائم ، وعاد الى بلاده في أوائل يناير ١٨٨٧ م .

طلب الخليفة عبدالله من الملك يوحنا ان يتعهد بوقف الاعتداء على الحدود السودانية واعادة الغنائم والأسرى ، وتسليم اللاجئين المارقين ، واعتناق الاسلام والدخول في المهدية . ولم يجب يوحنا على ذلك ولكن كلاً من الخليفة ويوحنا بدأ في اعداد جيش للحرب . وأرسل الخليفة الامير يوسف الدكيم الى القلابات لمنع أي توغل حبشي . وأخذ يونس في ارسال التجريدات العسكرية لمناوشة الاحباش حتى استقر رأي الخليفة على ارسال صديقه الامير حمدان أبو عنجة الى القلابات لمواجهة العدوان الحبشي . ووصل ابو عنجة الى القلابات في ديسمبر واستلم القيادة العامة . ولما لم يقبل يونس الدكيم رئاسة ابي عنجة استدعاه الخليفة

ليكون في أم درمان وكان هو من اقرباء الخليفة ، فامتثل للامر .

خرج ابو عنجة في ٩ يناير ١٨٨٨ غازياً الحبشة واشتبك مع الاحباش في معركة عظيمة شمال غندار حيث هزم الاحباش ودخل غندار ، ولكنه عاد ادراجه الى القلابات دون أن يواصل زحفه . ثم ما لبث ان عاود الهجوم مرة ثانية دون ان يصل الى نتيجة حاسمة .

حاول الملك يوحنا ان يعقد صلحاً مع الخليفة عبدالله اذ انه كان يواجه هجوماً وغزواً ايطالياً من مصوع ، وطلب من الخليفة السوداني ان يتعاونا ضد الغزو الاوروبي . لكن الخليفة لم يكن يشعر آنذاك بوطأة الخطر الايطالي كما كان يلاحظ الخطر الحبشي ولهذا فانه رفض عقد صلح مع الملك يوحنا .

كتب الملك يوحنا الى ابي عنجة رسالة مطلعها « دجاج ابو عنجة » [١] ولم يقبل ابو عنجة لفظة دجاج فرد على يوحنا قائلاً : « فاعلم اني لست بدجاج وانما انت الدجاج لكفرك » . واستعد الفريقان لمعركة جديدة ، وجمع الملك يوحنا جيشاً كثيفاً كما أعد ابو عنجة العدة لملاقاته . ولكن اصيب ابو عنجة بألم شديد تجرع بسببه بعض الأدوية العربية ، ولكنها قضت عليه في ٢٩ يناير ١٨٨٩ بعد ان سجل العديد من الانتصارات الحربية .

أوصى ابو عنجة بأن يخلفه في القيادة أحد زملائه ومساعديه وهو الزاكي طمل ، وأقر الخليفة عبدالله هذا التعيين . فأتم الزاكي التحصينات التي بدأها سلفه ابو عنجة في القلابات . وكانت شخصية الزاكي لا تقل نفوذاً عن شخصية ابي عنجة في نفوس أفراد الجيش . وبقي طمل مستعداً لمعركة حاسمة ضد الملك

---

(١) يقصد بها قائد المقدمة وهي محرفة عن الحبشية داج أزماج ولم يفهمها ابو عنجة على ما يبدو .

يوحنا الذي جند ما لا يقل عن مائتي الف مقاتل ، وعبر الحدود السودانية واتجه نحو القلابات حيث استعرت معركة حامية الوطيس في ٩ مارس ١٨٨٩ . وبالرغم من تفوق الاحباش في العدد – اذ كان عدد السودانيين ٧٢ الفاً – الا ان المعركة انتهت باصابة الملك يوحنا بجرح مميت ، وفشل جيشه الذي تمزق وهرب ، وما لبث ان تعقبهم الجنود السودانيون حتى هزموهم هزيمة ساحقة في ١٢ مارس واستولوا على جثة الملك يوحنا وبذلك أسدل الستار على هذه الحرب .

كان الصراع دموياً في هذه الحرب ، وفقد الجانبان الكثير من الرجال بالرغم من اسلحتهم البدائية وما ذلك الا لاستماتة الفريقين في القتال . وانتهت المعارك بانسحاب السودانيين الى بلادهم دون تعزيز نصرهم بالاستيلاء على جارتهم ، ولم يتمكنوا من متابعة انتصاراتهم في المستقبل لان مجاعة شديدة اجتاحت البلاد ، وكتب الزاكي طمل الى الخليفة يقول « والحال سيدي ان الجيش بعد ما حررنا في طلوعه لارض العدو قد تزايد به الضـ ر من جهة المعايش ، وعم ذلك الكافة صغيراً وكبيراً ، مجاهداً وعائلة حتى صاروا يأكلون الجيف ، ويلتقطون الحبوب من الارض في الطرق ... لذلك فقد أخرنا السرية عن التوجه الى الحبشة لان الجيش قد اشتغل بنفسه ... » وهكذا منعت المجاعة السودانيين من تعزيز انتصاراتهم بينما انشغل زعماء الحبشة بالصراع على التاج . وهدأت الحدود السودانية الحبشية بعد ذلك وأمن الخليفة عبد الله من أي هجوم في المستقبل القريب كما انه اصبح في استطاعته الآن ان يتفرغ الى جبهات اخرى وخاصة الجبهة الشمالية حيث كان يعسكر الانجليز .

الهجوم السوداني على البريطانيين في مصر :

بانتصار السودانيين على الاحباش في مارس ١٨٨٩ تعتبر دولة المهدية قد بلغت اقصى امكانياتها من حيث وحدة الامة السودانية من الداخل ، وانتصارها على

أعدائها في الخارج. فهي من الناحية الحربية طردت كلاً من المصريين والبريطانيين وهزمت الأحبـــاش . ولكنها كانت في حاجة الى وقت يكفيها للاستجمام واسترجاع انفاسها اللاهثة بفعل النضال والحروب التي خاضتها لفترة تسع سنوات مضنية منذ ان اعلن المهدي الجهاد ضد الحكم التركي المصري . ويضاف الى هذا ان تركيز القوة في أيدي الخليفة داخلياً جعله في موقف يستطيع معه ان يتابع سياسة المهدي الخارجية لنشر المهدية في كل مكان من العالم .

كان اكبر خطأ في كيان الدولة الحديثة الحماس الذي كان مشتعلاً في صدور الشعب والشباب ، وكان السودانيون يعتقدون ان حماسهم الذي اكسبهم كل تلك الانتصارات على أعدائهم من مصريين وانجليز وأحباش سيدفعهم الى انتصارات اخرى في طريق جهـــادهم الطويل . وكان البريطانيون انفسهم قد احتشدوا جنوداً وضباطاً على الحدود المصرية السودانية وهم يعدون العدة للحماس السوداني الذي سيتجه الى الشمال وكانوا حريصين كل الحرص على ألا تصيبهم هزيمـة في اولى معاركهم مع الطلائع الثورية السودانية ولذلك فانهم قرروا أن يشترك في الدفاع عن الحدود المصرية قوات مصرية وبريطانية وسودانيـة من الرقيق الذين كانت قوافلهم ترسله ايام الحكم المصري .

هكذا كان موقف بريطانيـا ودفاعها عن مصر. أما الخليفة عبدالله فقد أعد العدة الآن للزحف على مصر . ولكن انتصـــارات المهدية الاولى على الجيوش المصرية في السودان وفرار حملة انقاذ غردون البريطانية جعلت الخليفة يعتقد ان الدولة الكبرى هي الحبشة وان بريطانيا العظمى هي الصغرى ولهذا فقد أخطأ في تكييف الحملة المرسلة لفتح مصر .

ارسل الخليفة عبد الله احد كبار أمراء المهدية وهو عبـد الرحمن النجومي ليقود الحملة العسكرية الزاحفة الى مصر . وعمد الخليفة الى حرب الدعاية أولاً فأرسل الى قبيلة العبابدة التي تسكن الحدود المصرية السودانية والى أهالي صعيد

مصر لكي يناهضوا البريطانيين ، وينضموا الى اخوانهم الانصار في حربهم ضد الكفر ، ولكن لم يستجب اي جانب منهما لهذه الدعوة .

خرج النجومي من دنقلا في اربعة آلاف مقاتل من قبائل الدناقلة والجعليين والبقارة[1] والبطاحين ومعهم ٣٠٠ بندقية فقط . وكان يصحبهم ابناؤهم ونساؤهم وعبيدهم وعددهم ٧٠٠٠ على أمل ان يقطنوا مصر بعد فتحها. و كثر حديث المؤرخين عن هذه الحملة وادعوا بأن الخليفة انما كان يريد ان يقضي على عبد الرحمن النجومي وبقية « اولاد البلد » في تلك الحملة وإلا لما أرسل هذا الجيش الهزيل لملاقاة مصر وبريطانيا بيّنما ارسل اكثر من سبعين الف محارب ضد الأحباش . لكن تجدر الاشارة الى ان في هذه الحملة عدداً من البقارة قبيلة الخليفة نفسه ولذلك فليس من الممكن ان يكون الخليفة راغباً في دفن هذا العدد في الاراضي المصرية .

زحف النجومي بالجيش في مايو ١٨٨٩ م ، واستبك مع البريطانيين بقيادة الجنرال ود هاوس في معركة أرقين قرب وادي حلفا في ٢ يوليو ١٨٨٩ . وخسر السودانيون اضعاف ما خسر الجيش الانجليزي والمصري ، ولكن عزيمتهم لم تفتر بالرغم من اصابة النجومي في فخذه بشظايا قنبلة . وارسل النجومي الى الخليفة يعلمه بأن المصريين في الصعيد أعانوا الكفرة وقطعوا النخيل ، وأضاف « ان الانصار الذين معنا قد مسهم الضرر الشديد ، وان الجوع الحالّ بهم أضناهم وأذهب قواهم ، فورّم اجسامهم ، وغيّر احوالهم ... وكثيرون منهم ماتوا جوعاً ... وكذلك الجمال والخيول والحمير ماتت من شدة المحل ... ولذلك فان خيل الكفرة تبدو وليس عندنا خيل قوية لمطاردتها ... وجزى الله الانصار خيراً ، وبارك فيهم ، فانهم ما زالوا مطمئنين على حالهم ، وثابتين على محاربة

---

(١) شقير .

عدوهم لا ينتظرون الا النصر والظفر بالأعـداء او الفوز بالشهادة » .

خاف الجنرال البريطاني ودهاوس من الدخول في معركة ثانية مع الانصـار قبل ان يتأكد من تفوقه العسكري اذ لو حدث ان انهزمت قواته لأحدثت رد فعل عظيم في الروح المعنوي للجيوش المتحالفة من مصريين وبريطانيين وسود . وكان البريطانيون لا يريدون هزيمة لجيوشهم في اول معركة حتى لا يصيبها الفشل التام فيما بعد ، ولذلك فقد طلب الامداد من القاهرة . وعرف أن النجومي قد تحرك شمالاً حتى بلغ قرية توشكي وهو الآن في ٢٨٢١ مقاتـل اضناهم الجوع والعطش وقلة السلاح ، واجتمع لودهاوس ٣٦٨٠ جندياً من مصري وسوداني وبريطاني و ٨ مدافع .

عقد النجومي مجلساً لقواده للتشاور فيما يفعلون إزاء العدو ، واقترح بعضهم التقهقر حتى تصلهم الامدادات ، ولكن النجومي اجاب بانه لن يعود لانه خرج في جهاد ، ويجب ان يتذرعوا بالصبر والثبات حتى يفوزوا بالنصر او الشهادة . هز سيفه وقد رفعه فوق رأسه مكبراً ، واندلع الحماس في رؤوس الامراء الآخرين ووقفوا في صفه ، ثم توغلوا سائرين في الاراضي المصرية .

التقى الجيش البريطاني المصري بالانصار . بعد ان صلوا الصبح في قرية توشكي ، وتغلبت الكثرة على الشجاعة في تلك المعركة في ٣ اغسطس ١٨٨٩ . واستشهد اغلبية الانصار وكذلك قائدهم عبد الرحمن النجومي وطفله ، وأسر الاطفال والنساء ووزعوا ليصبحوا رقيقاً [١] في مصر وسجن بعضهم .

انتهت حملة عبد الرحمن النجومي بالفشل ، ولم يستطع ان يفتح مصر كما تنبأ المهدي من قبـل ، ولم يهزم البريطانيين كما هزم هكس وغردون . لكن الانصار

---

(١) وزعهم البريطانيون رقيقاً في وقت جاءوا فيه لمنع الرق .

كانوا ينظرون لذلك الفشل على أنه امتحان أشبه ما يكون بواقعة أحد وعما قليل ينصرهم الله ولذلك فلم تهن عزائمهم .

أما البريطانيون فقد سرهم النصر سروراً بالغاً لأنهم استطاعوا ان يتغلبوا على حماس السودانيين ، وغطوا بهذا النصر الهزائم التي لحقتهم على يد عثمان دقنة في شرق السودان ، وارتفع الروح المعنوي لدى كل من الجندي البريطاني والمصري على السواء في نضالهم ضد المقاتل السوداني .

الامير عثمان دقنة والدفاع عن شرق السودان : ١٨٨٦– ١٨٨٩

لم يشترك شرق السودان وأميره عثمان دقنة في المؤامرات التي كانت تحاك ضد الخليفة في سائر انحاء القطر ، واستمر السودان الشرقي بولائه لدولة المهدية تحت راية اميرهم البطل عثمان دقنة وهم مؤمنون بوحدة القطر بجميع حدوده وقبائله .

كان عثمان دقنة يمتاز عن غيره من القواد السودانيين ببعد النظر ، وتغليب الرأي على الحماس ، وعدم الاصطدام في معركة حاسمة اذا كانت الخسارة ستقع عليه ، وكان من أعرف القواد الحربيين بساعة الهجوم ، ووقت التقهقر ، حتى أذهل كبار القواد البريطانيين الذين فشلوا في القضاء عليه ، وحتى ادعت كل من بريطانيا وتركيا بأنه من احفادهما نزح أباؤه الى السودان .

في الفترة بين سنة ١٨٨٦ و ١٨٨٧ كان عثمان دقنة قد نجح في وضع كل السودان الشرقي تحت راية الخليفة ، وضرب على سواكن حصاراً ضيقاً ، وجعل معسكره في منطقة هندوب القريبة من سواكن .

وفي ١٧ يناير ١٨٨٨ قرر محافظ سواكن كتشنر (اللورد كتشنر فيما بعد)

ان يهاجم معسكر عثمان دقنة ، وان يلقي القبض عليـــه في هجوم خاطف وخرج بجيشه حيث التحم بجنود عثمان دقنة الذي جمع رجاله بسرعـة وكر على كتشنر وأصابه برصاصة جرحته ، فارتد محمولاً الى سواكن وقد خسر المعركة .

أما في واقعة الجميزة في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨ بقيادة الكولونيل كوك الذي كان يقود جيشاً تعداده ٤٧٥٠ من الانجليز والمصريين فقد هاجم عثمان دقنة وهو في ١٦٠٠ مقاتل وقبل ان ينكسر جيشه انسحب من المعركة وتراجع بعيداً عن مراكز العدو ، ولم يحاول الأعداء التوغل في التلال خلفه .

استدعى الخليفة عثمان دقنة للتشاور معه في امر مساعدة عبد الرحمن النجومي في فتح مصر وذلك بارسال جيش آخر عبر الصحراء الشرقية لمهاجمة مصر تحت قيادة دقنة بينما يسير النجومي على ضفاف النيل . وبينما كان عثمان في طريقه الى أمدرمان اذ علم الخليفة بانهزام النجومي فاضطر الى صرف النظر عن بعثة عثمان دقنة الى مصر . وبقي عثمان مستولياً على طوكر التي جعلها قاعدته الكبرى بينما استمرت سيطرته على هندوب ليناوش منها البريطانيين القابعين في سواكن ، كما استمرت محاولاته في الحصول على السلاح الناري والرصاص من الحجاز ولكن بكميات قليلة جداً .

٤ – المجاعة تجتاح البلاد : ١٨٨٨ – ١٨٩٠

تضافرت الطبيعة في خلق المشكلات للدولة ورئيسها الخليفـة عبد الله التعايشي في الوقت الذي كادت تنتهي فيه الصعوبات الآدميـــة فظهرت بوادر المجاعة المشهورة في السودان « بسنة ٦ » اذ كانت في عام ١٣٠٦ بعــد خريف سنة ١٨٨٨ . وكان من اهم اسبابها أن قل هطول الأمطار فلم يتمكن الأهلون

من زراعة الحبوب . وفي العام التـــالي هجم على البلاد جراد غزير لم يترك في المزارع شيئاً .

زاد في سوء الحالة ان اكثر القوى البشرية في البلاد كانت مجندة للجهـــاد وموزعة على الجهات المختلفة ، فلم يلتفت الناس الى زراعتهم كما كانوا يفعلون من قبل ولهذا فقد نقص المحصول الغذائي اكبر نقصان .

بينما كان شبح المجاعة يطل برأسه في البلاد طلب الخليفة عبد الله من عشيرته قبائل البقارة ان يقدموا الى ام درمان ، وطلب من السكان الذين في الطريق بين غرب السودان والعاصمة ان يمدوهم بالطعام لأنهم ضيوفهم في طريقهم للجهاد . وكانت تلك الضيافة من ابغض الأشياء الى القبائل المضيفة ، وجعلتهم يعتقدون ان الخليفة انما كان يستغل منصبه لأعانة أهله .

كانت وطأة المجاعة شديدة على البلاد حتى أصابت الكثيرين وقتلتهم ، وأفنت بيوتاً بأكملها في كل مدن السودان وقراه ، وشعرت جيوش الخليفة بقيادة الزاكي طمل بمشقتها فتوقفوا عن غزو الحبشة ، وأثرت في جيش النجومي فأماتت رجاله قبل حربهم مع الانجليز في معركة توشكي . وفي شرق السودان عصفت بالبجة فلم تترك صغيراً او كبيراً ، وما أشرقت شمس سنة ١٨٩٠ الا وقد كان عثمان دقنة بدون جيش اذ أفنته المجاعة .

في ظروف قاسية كتلك كان من العسير على رأس الدولة ان يحتفظ بأي قدر من حب رعاياه ، كما ان اللوم والنقد اشتد على الخليفة وعلى سياسته . وطمع الناس فيما كان ببيت المال من مخزون الحبوب ، ولكن ذلك ما كان يكفي ليوم واحد . واضطرت حكومة الخليفة ان تجمع الحبوب من ارض الجزيرة فوجدت معارضة شديدة من أهلها . وأرسل الخليفة سرية لجمع الزكاة والعشور من جنوب السودان فامتنعت قبائـل الشلك عن تقديم اكثر من ٢٠٠٠ أردب من الذرة ،

وأظهر ملكها عُمَر رغبة في الخروج عن الدولة مما جعل الخليفة يرسل اليه الزاكي طمل من القلابات لاخضاعه وتم ذلك في عام ١٨٩٢ ، ومع ذلك فان المجاعة ما زالت شديدة الوطأة خاصة على القرى والبوادي .

بينما كانت المجاعة تفعل فعلها في حصد النفوس بدأت الأحداث الدامية تطل برأسها في داخل السودان وفي خارجه ، وكان على الخليفة ان يواجه مؤامرات داخلية وعدواناً خارجياً مع حلول عام ١٨٩١ .

الموقف الداخلي

ثورة الاشراف الثانية ٢٣ نوفمبر ١٨٩١ :

منذ أن تولى الخليفة عبد الله الحكم والاشراف غير راضين عن وضعهم . وبالرغم من الصلح الذي توصلوا اليه مع الخليفة الا أنهم لم يكونوا راضين نسبة الى ان الخليفة وأخاه يعقوب كانا يبعدانهم عن كل المناصب ذات المسؤولية في الدولة ، كما أنهم شاهدوا كيف قرب الخليفة ذوي قرابته واقصاهم من الحكم .

في ذلك الجو العكر بدأت الوشايات تجد طريقها بين الجزبين فكان بعض كتاب الخليفة يوصلون اخباراً الى الخليفة شريف وأهله تظهر رغبة عبد الله في سجن آل المهدي وزعمائهم . كما كان بعض الاشراف الموالين للخليفة عبد الله ينقلون اليه والى اخيه يعقوب مؤامرات الأشراف ضد رأس الدولة وعزمهم على الفتك به ، والاستيلاء على الحكم .

بلغت حالة التوتر بين الجانبين أقصى ما يمكن، وأخيراً اقتنع الأشراف بأنه

ما من حل للتخلص من حكم الخليفة عبد الله وأهله قبائـل البقارة الا باللجوء الى السلاح . ولهذا فانهم كتبوا لمريديهم من الدناقلة في أرض الجزيرة ومن كان مواليا لهم بعزمهم على الانقضاض على الخليفة ، وما كانوا يعلمون أن أسرار اجتماعاتهم وساعة الصفر كلها قد بلغت مسامع الخليفة ، وأنه كان مستعداً لهم اتم استعداد.

جعل الأشراف ساعة هجومهم صبيحة الثلاثاء ٢٣ نوفمبر ١٨٩١ . واجتمعوا في تلك اللحظة بأسلحتهم حول منزل الخليفة . ولكن الخليفة كان قد أعـد جنوده وهم مسلحون بالبنادق وحاصر الأشراف حصاراً تاماً ، ومنع رجاله من البدء بالقتال وأمرهم بالتريث حتى يصدر أمره . ثم طلب من الخليفة الثـاني علي ود حلو ان يتدخل في الامر ويمهد لصلح بين الفئتين . وامتنع الاشراف، ودوى الرصاص من الجانبين . وتدخل الخليفة ود حـــلو مرة ثانية ، فطلب الاشراف معرفة شروط الصلح ، فما كان من الخليفة عبد الله الا ان وهبهم الحق في فرض الشروط التي يريدونها ، وانتهت بأن يعفو الخليفة عن جميع الذين اشتركوا في تلك الثورة ، وان يجعل للخليفة شريف مقاماً خاصاً في مجلس الدولة ، وأن يسمح له بجمع المتطوعين تحت رايته بعد ان تعـــاد اليه ، ويعطى ٢٠٠٠ ريال شهرياً كما ينال آل المهدي أعطيات مناسبة من بيت المال . ثم ان الخليفة عبدالله طلب ان يسلم الاشراف اسلحتهم ورضي بذلك الاشراف ، وتم عقد الصلح بهذه الطريقة .

هكذا أضاع الاشراف الفرصة واضمحلت مطامعهم التي بدأت بمحاولـــة استخلاص حكم البلاد لهم فاذا بهم يطلبون الرواتب والأعطيات من بيت المال ، ويسلمون السلاح الناري على امل أن تعـاد اليهم الراية . وكان من الطبيعي ان من ينحدر طموحه الى اطماع يصاب بخسران اكبر ، وتكون النتيجة وخيمة عليه .

بعد مضي عشرين يوماً على تلك الاتفاقية ألقى الخليفـة عبد الله القبض على بعض زعماء الاشراف ممن اشتركوا في الفتنة ، ونفاهم الى جنوب السودان ثم ما لبث ان أمر باعدامهم ونفذ فيهم حكم الاعدام .

اصبح الخليفة شريف وحيداً لا أنصار حوله ،ولم يستطع ان يصبر على قتل ذويه وأنصاره ، فانقطع عن مجلس الخليفة كما رفض حضور الصلاة معه ، فسيق الى المحاكمة بأمر الخليفة عبدالله ، وأمر القضاة وكبار رجال الدولة في المجلس الذي كان مكوناً من ستة واربعين رجلاً باعتقال الخليفة شريف وزجه في السجن في ٢ مارس ١٨٩٢ وذلك لأنه مخالف للأمة ، وانقطع عن صلاة الجمعة والجماعة .

أثار سجن الخليفة شريف بعض القبائل التي تقطن على ضفاف النيل وهم الذين يسمون أولاد البلد تمييزاً لهم عن البقارة ، وشعر هؤلاء ان الحكم اصبح للخليفة عبدالله التعايشي وليس لهم فيه أي نصيب ، ولذلك فان كلا من قبائل الدناقلة والجعليين اخذوا يبتعدون عن تعضيد الخليفة إذ رأوه يحاول تأسيس ملك تعايشي بدلاً من الخلافة المهدية التي سادت بين جميع قبائل السودان ووحدتهم . وبالرغم من ان الخليفة عبدالله عمل على تقويض المعارضة الا انه صدع وحدة القومية السودانية بمبالغته في عقاب من نازعوه السلطان .

أصبح أعداء دولة الخليفة [illegible] داخل السودان كثيرين ، فالاشراف والجعليون [illegible] سكان المغرب والجزيرة كل هؤلاء كانوا [illegible] في وقت كانت فيه البلاد محاطة بالمستعمرين الأوروبيين الذين بسطوا نشاطهم يهدد الاطراف ، ويتحفز للهجوم على قلب السودان وظهر [illegible] من الناحية العسكرية بسبب ما نال البلاد من اضطراب وثورات ومجاعة ، كما انها من الناحية الروحية لم تكن تتمتع بالقوى المعنوية التي كانت تؤجج النفوس ضد كل مستعمر غاصب . ومع هذا فان البأس لم يدب في القلوب ولا ركن اليه السودانيون

١١

التهام الدول الاوربية لأطراف دولة المهدية

الاطماع البلجيكية في السودان :

منذ ان امتلك الملك ليوبولد الثاني البلجيكي الكونغو بدأ في توسيع رقعة ممتلكاته في اتجاه حوض النيل . وكانت أولى الخطوات التي اتخذها البلجيك هي ارسال حملة بقيادة البلجيكي ملز الذي اتصل بفضل المولى احد الضباط السودانيين الذين كانوا يعملون في الادارة المصرية السابقة ، وأوضح له بان الحكومة المصرية لن تستطيع مساعدته بعد الآن ، كما عرض عليه ان يخدم تحت سلطة ملك البلجيك . وقبل فضل المولى هذا العرض الذي عينه مديراً على خط الاستواء من قبل البلجيك في اكتوبر ١٨٩٢ .

علم الخليفة عبدالله بمطامع بلجيكا في السودان الجنوبي ، فأرسل حملة يقودها عربي دفع الله وذلك لطرد البلجيك وانهاء نفوذ فضل المولى . وتقدم دفع الله بجنوده حتى اشتبك مع فضل المولى وانتصر عليه بعد ان قتل فضل المولى في المعركة ، وغنم اربع رايات بلجيكية ، كما انه اصطدم بالحاميات البلجيكية الثانية التي توغلت في البلاد ، وأجبرها على الانسحاب نحو الكونغو في يناير ١٨٩٣ .

في سنة ١٨٩٤ توغل البلجيك نحو دارفور وبحر الغزال ايضاً ، ولكن طلب الخليفة من عامله على الغرب محمود احمد ان يصدهم ، فأرسل محمود الخاتم موسى ولكن ما لبثت التجريدة البلجيكية الصغيرة ان انسحبت قبل الدخول في معارك مع القوات السودانية .

هذا التدخل البلجيكي أثار حرص الخليفة كثيراً وبدأ يعمل للتدخل الاوروبي المسيحي ما يستحقه من حساب اذ أنه بدأ يشعر بخطره محدقاً من كل الجهات . وفي نفس الوقت (١٨٩٥– ١٨٩٦) كان الملك ليوبولد يفاوض انجلترا للتوسط بينه وبين مصر حتى تقبل الاخيرة ان تؤجر له حوض النيل من بحيرة ألبرت حتى الخرطوم ، ولكن محاولاته أخفقت لتضاربها مع السياسة البريطانية التي كانت في هذا الوقت تستعد لغزو السودان من جديد .

الغزو الايطالي على السودان الشرقي :

عندما أصرت بريطانيا على أن تخلي مصر السودان وجميع اجزاء امبراطوريتها في البحر الاحمر وسواحل إرتريا استطاع الطليان بعد ذلك أن يمتلكوا مصوع ويأخذوا في مد حدودهم نحو بقية إرتريا منذ ١٨٨٥ ، وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ ازداد نشاط الطليان التوسعي نحو الحدود السودانية حتى خشي الانجليز ان يبني الايطاليون امبراطوريتهم على حساب السودان . لذلك نرى أن الانجليز يقررون الاستيلاء على طوكر ليكونوا قريبين بعض الشيء من مسرح الحوادث . وفي سنة ١٨٩١ تمكنوا من التغلب على بقية جيش عثمان دقنة الذي فتكت به المجاعة من قبل حتى لم يبق معه الا العدد القليل من المقاتلين .

اما في نواحي كسلا فقد هجم السودانيون على الطليان الذين كانوا بالقرب من أغردت ، ولكن الطليان صدوا الهجوم السوداني الذي كان بقيادة احمد علي

فاضطر الى التقهقر نحو كسلا . وما لبث الطليان ان اتفقوا مع الانجليز على احتلال كسلا موقتاً اذ رؤي ان ذلك ضرورة حربية ضد الغزو السوداني ، وإزاء هذا الاتفاق قام الطليان بهجوم كبير على كسلا ، وباغتوا القوة السودانية حتى اضطروها الى الانسحاب في ١٧ يوليو ١٨٩٤ .

أصاب هذا الأندحار الخليفة بصدمة قوية ، وأعلنه على الملأ ، كما أبدى عزماً قوياً في أنه سيعمل على طرد الطليان من كسلا ، وركب جواده في مقدمة عسكره ، وانخرط به في مياه النيل ليظهر نيته في ان قوة الانصار لم يصبها الوهن . ولكن ما كان يأمل الخليفة في تحقيقه كان صعباً لأن خطراً اعظم من الخطر الايطالي بدأ يتهدد البلاد عامة لا الحدود الشرقية فقط ولم يكن ذلك غير الغزو البريطاني المصري .

التغلغل الفرنسي :

بدأت الاطماع الفرنسية على وادي النيل تأخذ مظهراً جدياً بعد سنة ١٨٨٢ حين استولى الانجليز على مصر واستطاعوا ان يسبقوا الفرنسيين عليها . وبدخول الانجليز الى مصر كانوا بطبيعة الحال يريدون استكمال ذلك الاستعمار بالقضاء على دولة المهدية في السودان والتهام وادي النيل . بيد ان فرنسا كانت هي الاخرى تميل الى الاستيلاء على ما تبقى من أراضي وادي النيل – تلك الأراضي التي لم تقع بعد في قبضة انجلترا – ولم تكن البلاد سوى الأراضي السودانية التي كان يحكمها المهدي ثم من بعده الخليفة عبد الله .

ازداد النشاط الفرنسي نحو التغلغل في الأراضي السودانية منذ عام ١٨٩٣ ، وكانت اولى الخطوات التي اتخذت هي تجهيز حملة استكشافية بقيادة المستكشف مونتي لكي تسير من غرب افريقيا حتى تصل أعالي النيل وتستولي على فاشودة عاصمة قبيلة الشلك السودانية . وكانت فرنسا ترى ان الاراضي السودانية ملك

مباح لا سيد عليها، كما انها كانت تهدف الى احراج موقف الانجليز بمصر بسيطرتها على اعالي النيل وفصل مصر عن منابع النيل بيوغندا التي احتلها الانجليز وذلك بانشاء مستعمرة فرنسية بجنوب السودان .

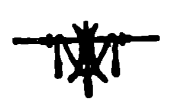
بيد ان حملة مونتي لم يكتب لها التوفيق لقلة الاستعدادات الأولية الضرورية لها فأجل الفرنسيون نشاطهم حتى سنة ١٨٩٦ . وفي هـذا الوقت استقر رأيهم على شطر جنوب السودان من نفوذ الخليفة عبد الله بواسطة حملتين احداهما تسير من غرب افريقيا عابرة جنوب غربي السودان حتى تصل الى فاشودة . أما الثانية فتسير من الحبشة شرقاً حتى تحتل كل الاراضي شرقي فاشودة . لذلك فان الفرنسيين اتفقوا مع الاحباش على مساعدة الحملة الشرقية للقيام بمهمتها . وقامت هذه الحملة بقيادة الضابط الفرنسي فافر يعاونه رجال منليك بقيادة دجـــاح تساما ، وتوغلوا في الاراضي السودانية حتى وصلوا الى منطقة فاشودة لمقابـــلة الكابتن الفرنسي مارشان .

أما الكابتن مارشان فقد قام من برازافيل بعدد من الجنود الفرنسيين في سنة ١٨٩٦ ، وتوغل في غرب افريقيا والسودان مسافة ثلاثة آلاف ميـــل حتى بلغ فاشودة في يوليو ١٨٩٨ . وعلى النيـــل الابيض التحمت قوات مارشان بقوات الخليفة عبد الله التي كانت مبحرة في البواخر وبعـــد معركة حامية خسر السودانيون اربعين من رجالهم واتجهوا الى أمدرمان لإبلاغ الخليفة بالتوغـــل الفرنسي الحديث حتى يرسل له الرجال والعتاد .

وكان مارشان يتوقع ان يجد زميله الضابط فافر والجنود الحبشية ، ولكن نظراً لتأخره فقد عادت الحملة الشرقية الى الحبشة بعد ان وصلت منطقة فاشودة في ٢٢ يونيه ١٨٩٨ دون ان تنتظر قدوم مارشان الذي احتل فاشودة بعد ثلاثة اسابيع من وصول فافر . ولم يشأ مارشان ان يعود ادراجه كما فعل فافر بـــل

رفع العلم الفرنسي في القرية ، وعقد معاهدة حماية مع ملك الشلك السلطان عبد الفاضل ، ومكث في فاشودة حتى تم انتصار كتشنر على السودانيين في واقعة كرري .

بعد واقعة كرري وصل جنود الخليفة عبد الله ببواخرهم من فاشودة ، وهناك وجدوا كتشنر يسيطر على أمدرمان بدلا من الخليفة ، فأدلوا له بما صادفهم من عدو اوروبي مهاجم في جنوب السودان . وهكذا عرف كتشنر أن الفرنسيين سبقوه في الاستيلاء على أعالي النيل .



١٢

الغزو الانجليزي المصري

دوافع الغزو :

بالرغم من ان انجلترا كانت مصرة على سياسة اخلاء السودان من الادارة المصرية وجيوشها الا انها كانت واضعة نصب أعينها استعادة الأراضي السودانية بمجرد ان تكتمل لمصر قوتها الحربية والمالية . ولم يفقد المصريون الامل طوال الفترة التي استقل فيها السودان في استرجاعه عندما تتهيأ الظروف لذلك .

[illegible] الغزو تتهيأ وتتبلور مع طلوع عام ١٨٩٦ ، وتضافرت عدة عوامل جعلت الحكومة البريطانية تتخذ الخطوات الحاسمة في سبيل تحقيق فتح السودان .

ولعل اقوى دوافع الغزو كان ذلك التسابق الاوروبي نحو استعمار القارة الافريقية ، وخاصة التنافس بين انجلترا وفرنسا ، اذ كانت الاولى تريد ان تمد نفوذها من الاسكندرية الى مدينة الكاب ، بينما كانت فرنسا تريد ان تطوق افريقيا بحزام من السنغال الى الحبشة . وكانت هذه الآمال تتصارع تصارعاً عظيماً في السودان وخاصة في بحر الغزال . وارادت كل من الدولتين ان تضم اجزاء من اعالي النيل لتحقيق اهدافها الاستعمارية في ذلك القرن .

وما لبثت الحكومة البريطانية ان وجدت نفسها مضطرة الى ان تمانع الزحف على السودان ، وخاصة للاستيلاء على المديرية الشمالية في دنقلا وذلك لمساعدة الطليان[1] الذين كانوا يحتلون كسلا ويتوقعون حرباً مع السودانيين حين محاولتهم استعادة تلك المدينة . وكان الطليان قد خسروا حربهم مع الاحباش في واقعة عدوة في اول مارس ١٨٩٦ وقتل منهم اكثر من ١٥،٠٠٠ جندي ، ولم تكن لديهم القوة المعنوية أو الحربية التي تساعدهم على ايقـــاف زحف سوداني قوي . لذلك فقد طلبوا من بريطانيا ان تفتح الجبهة الشماليـــة بغزو الاراضي السودانية حتى يضطر الخليفة عبدالله لايقاف أية محاولة لاستعادة كـسلا ، وبذلك يتم انقاذ الطليان من هزيمتين . وكان الانجليز يخشون انتصار السودانيين على دولة أوروبية كالطليان مما سيقوي عزائمهم ويضع في ايديهم اسلحة وغنائم تزيد من خطورتهم ، ولهذا فقد رأت بريطانيا ان تقوم بعمليات حربية واسعة ضـــد السودانيين .

منذ عام ١٨٩٥ طرأ تغيير جوهري على العـــلاقات بين الحبشة والسودان بسبب التدخل الايطـالي في كسلا ومحاولتهم بسط نفوذهم على الحبشة . لذلك رأى الرئيسان الافريقيان ان محالفة افريقية بينهما قد تساعدهما ضد الاوروبيين المستعمرين . ومع ان الخليفة لم يتخذ خطوات ايجابية واضحة في سبيل تحقيق مثل ذلك التحالف الطبيعي الا ان السياسة الخارجية لكل من السودان والحبشة كانت تسير نحو ذلك الهدف . وخشي الانجليز من تلك الاتصالات الودية بـــين الدولتين الافريقيتين ، وحاولوا منع تحقيقها بكل الطرق ، وخاصة بمطالبة الملك منليك امبراطور الحبشة بالامتناع عن امداد السودانيين بالأسلحة الناريـــة . وللتأكد من ان ذلك الحلف او الاتحاد بين السودان والحبشه لن يتم صمم الانجليز حسم الأمر بالهجوم .

---

(١) لورد كرومر : مصر الحديثة ص ٨٣ - الثاني .

بدأت المطامع البريطانية في وادي النيل تسيطر على السياسة البريطانية التي كانت قد أعلنت في عام ١٨٨٢ من ان احتلالها لمصر انما هو اجراء مؤقت ،وأنها سوف تخلي الأراضي المصرية عندما تسمح الظروف بذلك . لكن الاحتـــلال البريطاني لمصر أخذ طريقه الى الاستقرار بسبب العوامل الدولية المختلفة ، ورأت بريطانيا ان يدوم احتلالها. فأدى هذا الاستقرار الى الابتعاد عن سياسة الاخلاء التي نادت بها بريطانيا عام ١٨٨٣ ورأت ان السيطرة على مصر ليست بذات قيمة ان لم تعزز باحتلال وادي النيل بأجمعه .

كانت أهم اسباب النداء باخلاء السودان هي ضعف مصر من الناحية الحربية إذ لم يكن لديها جيش فتستطيـع ان تبقى به في السودان الثائر وتحطم المهدي ، ولم يكن لديها المال للانفاق على جيش او حرب بسبب افلاسها . لكن منذ سنة ١٨٨٢ اخذ البريطانيون ينظمون السياسة المالية لمصر ، كما بدأوا في إعداد جيش جديد من المصريين الفلاحين والسود السودانيين ، وكان تدريبهم على أيدي ضباط بريطانيين . واشتركت بعض أجزاء هذا الجيش الجديـد في معركة توشكي ضد عبد الرحمن النجومي حين استشهد عام ١٨٨٩ و كسبت بذلك روحاً عسكرياً عالياً . وإزاء ذلك التحسن في الموقف المالي والحربي فقد رأت بريطانيا وهي التي كانت ترى نفسها مسؤولة عن مصر ان الوقت قد حان لمحاولة استعادة بعض أجزاء السودان على الأقل .

وليس هناك فرصة اعظم من تلك التي وصلت اليها دولة المهدية من ضعف في الرجال والسلاح ، وقد تواترت الاخبار الى البريطانيين بأن التفكك قد طرأ على البلاد ، كما ان الحروب الداخلية والخارجية فتكت بالرجال ، وأفنت الجماعـة الكثيرين . من هنا اصبح واضحاً ان السودان صار لقمة سائغة لبريطانيـا متى عاونت مصر في فتح السودان .

كان الرأي العام البريطاني منقسماً في شعوره نحو الثورة المهدية ، فبينما كان

حزب الاحرار يرى عدم التدخل كان المحافظون يرون أن ذلك ربما كان ضرورة. وتبلور الرأي العام خاصة بعد هروب سلاطين وغيره ممن كانوا في سجن الخليفة وكتبوا مؤلفات مثل النار والسيف ، وأظهروا استبداد الخليفة وحكمه الذي نعتوه بالقسوة والظلم ، وأرادوا ان يثيروا عليه الرأي العـــام الانجليزي حتى تتحرك عواطفه الانسانية لينقذ السودانيين من بطشه واستبداده . وانتشرت تلك المؤلفات بشكل واسع في كل اوروبا لا في انجلترا وحدها وبذلك وجدت بريطانيا ذريعة للغزو .

ولتقوى الحجة في وجوب الفتح فقد كان العسكريون يحضرون بعض العرائض ويسلمونها الى المعتمد البريطاني اللورد كرومر بدعوى أنها من زعماء سودانيين يطلبون من الانجليز انقاذ البلاد من حكم الخليفة عبد الله التعايشي وفيها يقدمون ولاءهم . وكانت تلك العرائض من بين الذرائـــع التي لجأ اليها العسكريون البريطانيون لتعزيز رغبتهم في القضاء على دولة المهدي .

هذه هي الاسباب التي أدت الى تجهيز حملة قوية قوامها ٢٥٫٨٠٠ مقاتل اكثر من ثلثهم من البريطانيين ، والبقية من المصريين والسودانيين السود . وكان أهم سلاح في ايدي هؤلاء الجنود هو المدفع الرشاش الذي كان استعماله ممنوعاً بحسب الاتفاقـــات الدولية الاوروبية آنذاك[١] والذي كان حاسماً في المعارك ضـــد السودانيين . اما قائد الجيش فكان السير كتشنر باشا سردار الجيش المصري .

الجيش المصري البريطاني يغزو السودان :

كان الفتح المصري الانجليزي على السودان ذا مرحلتين: الاولى هي الاستيلاء

---

(١) سمرفيل – بين الحربين .

على مديرية دنقلا ، واما الثانية فهدفها الاستيلاء على كل اجزاء السودان .

وكما استعد كتشنر حربياً كذلك استعد هندسياً فسخر الصناعات لفتح السودان ، وقام ببناء خط حديدي من حلفا ليسير جنوباً كلما احتلت جنوده بعض الاراضي السودانية وذلك لكي يؤمن خطوط تموينه ومواصلاته .

احتل الجيش الغازي عكاشا التي كانت خالية من السودانيين وقرر اتخاذها مركزاً لرئاسة قواتهم حتى تتمكن من طرد طلائع جيش المهدية الذي كان في فركة جنوباً . وكان الانصار كثيراً ما يهاجمون السكة الحديدية والآبار التي ترتوي منها الفرق التي كانت تعمل في مد الطريق .

وعند فجر ٧ يونيو ١٨٩٦ أذن المؤذن للسودانيين لصلاة الصبح في بلدة فركة فاجتمعوا للصلاة يؤدونها ، وبينما هم في صلاتهم إذ اخذ كتشنر في ضربهم بقنابل مدافعه ، واخذ الانصار على حين غرة ، ولكنهم اسرعوا للقتال بالرغم من قلة عددهم إذ كانوا ١٦٠٠ بينما كانت مقدمة الجيش المعتدي اكثر من عشرة أمثالهم بقيادة كتشنر ، ولم يلبث ان سقط منهم ٨٠٠ قتلى و ٥٠٠ جرحى ووقع اكثر الباقين في الأسر[1] .

قبع جيش الفتح في معسكر كوشة ينتظر فيضان النيل حتى تتمكن البواخر النيلية الحربية المصاحبة للجيش من التقدم فوق الشلالات وخاصة قرب حلفا .

وفي اغسطس ارتفع النيل وعبرت سبع بواخر الشلال ، وسار الجيش لقتال السودانيين . وكان الخليفة قد عين محمد بشارة أميراً آنذاك لصد العدوان . ونهض بشارة من دنقلا الى منطقة الحفير لملاقاة الأعداء ، ولكنه رأى البواخر

---

(١) تشرشل - حرب النهر .

تسير جنوبي الحفير فخشي من التطويق ولذلك انسحب الى دنقلا .

استمر كتشنر في زحفه نحو دنقلا ايضاً وقبـــل ان يطوق المدينة ببواخره وجيشه انسحب الامير محمد بشارة اذ لم يكن لديه سوى ٦٠٠٠ من الرجـــال لمجابهة المهاجمين . وذهب من دنقلا عبر الصحراء الى المتمة ليكون بعيداً عن عدو يتفوق عليه عدداً وسلاحاً . ودخلت القوات الانجليزية[١] المصرية مدينة دنقلا حيث رفع العلم الخديوي وحده ، وتم استرجاع كل المديرية بعد ذلك دون ان يتكبد الجيش خسائر فادحة في الارواح أو العتاد .

هكذا استطاع كتشنر الاستيلاء على دنقلا وتحقيق هدف الحملة الاولى .

مراحل فتح السودان :

كان كتشنر يعمل على ألا تكون نفقات حملة دنقلا كبيرة ويقول شقير «وقد بالغ السردار في اقتصاد نفقات الحملة حتى كان الموظف حينئذ وهو في ساحة الحرب يتناول علاوة على مرتبه أقل جداً من العـــلاوة التي يتناولها الآن والسودان في بحبوحة السلم والامان» . وعلم كتشنر أن النفقات المالية هي من أهم أسباب اعتراض الحكومة البريطانية على حملة لاستعادة السودان ولذلـــك فقد عمد الى هذا الاقتصاد . وكان السردار كتشنر تواقاً الى فتح السودان ، وقد تطوع كثير من كبار القواد البريطانيين للعمل في جيشه ضد السودانيين .

وكانت بريطانيا قد منحت مصر ديناً قدره ثمانمائة الف جنيه للقيام بتكاليف الفتح . فلما تم احتلال دنقلا رجع كتشنر الى مصر وطلب من اللورد كرومر ان تسمح له الحكومة البريطانية باتمام الفتح . واستطاع الرجلان اقناع الحكومة

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٣ كذلك كرابايتس ص ١٣١ ، وورونالد وبحت ص ١٠٥ ، كانت الكتيبة البريطانية هي North Staffordshire Regiment .

الانجليزية بذلك ورجع كتشنر الى قيادته لتنفيذ المرحلة الثانية وهي القضاء على حكم الخليفة عبد الله والمهدية .

بينما كان كتشنر يعد العدة لموقعة حاسمة طفق الخليفة في حشد الجنود بعاصمته لملاقاة العدو والتغلب عليه. فأرسل الى عامله في الغرب الامير الشاب محمود احمد لكي يرحل بجيشه الى أمدرمان ليسير منها لوقف زحف الغزاة . ثم طلب من عامله الامير احمد فضيل ان ينتقل بجيشه من القضارف الى امدرمان ولكن ما لبث ان علم بان الطليان يريدون الزحف على عاصمة السودان من كسلا ولذلك فقد أمر احمد فضيل بالبقاء هناك . وامر الامير عثمان دقنة بالقدوم والاشتراك مع محمود احمد لصد العدوان الانجليزي المصري .

خرج الأمير محمود بجيشه من الغرب حتى وصل ام درمان . وكان الخليفة في هذا الوقت قد طلب من امير الجعليين عبدالله ود سعد ان يخلي مدينة المتمة لجيش محمود ، وان يقدم اليه المؤن والعون، وان يمتنع رجاله عن التبادل التجاري مع الغازين ، ويقطعوا اتصالهم بهم . غير ان عبدالله ود سعد كان ساخطاً على تسلط الخليفة ، فأعلن الخضوع وهو ينوي الثورة تماماً كما فعل من قبل الملك نمر. ورجع ود سعد الى المتمة واتفق ورجال قبيلته على عصيان الخليفة مهما كانت النتائج ، وبلغ بهم الحماس الجعلي اشده ، ثم اتصلوا بجيش كتشنر ليمدهم بالسلاح ولبى طلبهم .

بينما كان الجعليون يعدون المفاجأة لمحمود ود احمد وجيشه اذ هجم عليهم بجيشه الذي يزيد على العشرة آلاف . وكان الجعليون في ثلاثمائة رجل بثمانين بندقية اذ لم تصل اليهم البنادق الانجليزية ، ونزلت بالجعليين مجزرة عظيمة لا تقل بشاعة عن مجزرة الدفتردار بعد مقتل اسماعيل باشا ، وتم القضاء على المقاومة الجعلية قضاء تاماً ، واحتل الانصار المدينة ينتظرون جيش كتشنر بيقظة وحماس .

أما كتشنر فقد غير خطط الغزو السابقة تلك التي انتهجها جيش انقاذ غردون ، ولم يشأ ان يسير مع النيل بل بدأ في مد خط السكة الحديدية من حلفا نحو ابي حمد عبر الصحراء مقتصداً في الوقت والنفقات . وقبيل وصول الخط لأبي حمد هجم هنتر باشا على المدينة التي كان يحرسها الامير محمد زين ، ولكن سرعان ما حلت الهزيمة به وبالأنصار ووقع في الاسر وسقطت ابو حمد في يد هنتر . ثم ما لبثت بربر ان أخليت دون قتال اذ خشي الانصار التطويق، فقد كانوا يتوقعون قدوم بعض القوات الانجليزية المصرية عبر الصحراء الغربية من الدبة الى المتمة ، ولذلك فقد أخلوها ،ولكن الايام اظهرت خطأ استنتاجهم اذ ان كتشنر كان ينوي الغزو من ناحية الشمال . فدخل الجيش الغازي بربر في ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٧ وهي خالية من انصار المهدي .

واقعة النخيلة او أتبرة في ٨ ابريل ١٨٩٨ :

خرج محمود ود أحمد بجيشه من المتمة في ٢٠ فبراير ١٨٩٨ قاصداً بربر لاستعادتها ، وكان يعاونه في القيادة الامير عثمان دقنة . وظهر خطأ الخليفة عبدالله في هذه القيادة التي سلمها لشاب غير مجرب وجعل عثمان دقنة بخبرته الطويلة في قتال الانجليز مساعداً له . واختلف القائدان الشاب والمجرب في الخطة الحربية التي يجب ان تتخذ ، واصر عثمان على الابتعاد عن النيل لتفادي البواخر، ثم تطويق الجيش بحركة التفاف من خلفه حين تقدمه ، ومصادمته بعيداً عن ضفاف النيل حتى لا يجد عوناً من البواخر . ولما اختلف القائدان أرجعا الامر الى الخليفة فوافق على خطة عثمان دقنة الذي كان يرى ان يطوق جيش كتشنر فيهجم عليه هو ومحمود بجيشهما من الخلف بينما يتقدم الخليفة بجيشه من امدرمان لضربه من الامام . ولكن الخليفة رأى الانتظار بالعاصمة فلم يعمل بالجزء الثاني من الخطة .

نزل هذا الجيش على مسافة ٣٢ ميلاً من النيل وفيه حوالي عشرين الف مقاتل و ٨٠٠٠ بندقية . وفي واقعة النخيلة على نهر أتبرة التقى السردار بجيوش الانصار تحت قيادة محمود ود أحمد . وكان عثمان دقنة قد أمر الانصار بحفر خندق يقفون فيه وعدم الخروج منه . وبعد معركة حامية استعمل فيها الغزاة قنابل المدافع ورصاص الرشاشات انهزم الانصار ووقع محمود أسيراً بعد ان قتل من رجاله ٣٠٠٠ مقاتل ، وبلغت خسارة الجيش الفاتح ٥٥٢ بين قتيل وجريح . اما عثمان دقنة فقد انسحب بمن نجا معه من جنود الى ناحية القضاريف ليلحق بالخليفة في ام درمان .

بلغت الخليفة اخبار هذه الموقعة فاستعد لمعركة فاصلة ضد الأعداء ورفض فكرة التقهقر الى غرب السودان ، وتمثل بصمود وشجاعة عبد الله ود سعد وهو في ثلاثمائة رجل ضد جيش الانصار . وطلب الخليفة علي ود حلو ان تعطى له القيادة لمجابهة الأعداء على ان يزود جيشه بالبنادق . فاعترض الامير يعقوب على ذلك ، وأظهر عثمان شيخ الدين بن الخليفة عبد الله رغبته في ان يقود الجيش واشترط ان توزع الاسلحة النارية على اولاد البلد وكل من في الجيش لا ان تكون في يد الجهادية (العساكر السود) والبقارة فقط . ولم يوافق عمه الامير يعقوب على ذلك خوفاً من ان يحدث اولاد البلد من سكان النيل ثورة ضد حكم الخليفة عبد الله التعايشي .

وقد أخطأ كل من الخليفة واخيه يعقوب في تصرفاتهم هذه لأن عقدة ابناء النيل جعلتهم يبعدونهم من ممارسة حقهم الطبيعي في الذود عن استقلال البلاد بكل سلاح . وكان شيخ الدين بلا شك يمثل عقلية قومية اكثر نضوجاً وتقدماً من والده وعمه ، وكان المعروف ان الجهادية السود دائماً على استعداد لتغيير سيد

بآخر ، وان ولاءهم يكون مع الغالب لا الاستماتة مع المغلوب ، والخليفة عبد الله يعرف هذه الحقيقة [1] .

اخفق الخليفةعبد الله والامير يعقوب في تعزيز موقفهما ضد الغزاة بالرغم من أنهما أفرجا عن الخليفة شريف وبقية الاشراف وذلك لكي يقفوا صفاً واحداً ضد العدو. وازاء هذا الاضطراب الذي كان عليه الخليفة واصراره على سيطرة آله التعايشة والبقارة على حكم البلاد ، وتنفير القبائل التي تسكن على النيل انما كان يعمل على انشقاق عظيم بين اولاد البلد واولاد العرب ، وتنفير الأوائل من الولاء لدولة المهدية التيبدأت تتداعى وبدت كأنها دولة للتعايشة فقط. وكانذلك ظاهراً عندما اقترح بعضهم مثل الزاكي عثمان على الخليفة ان يهربوا من امام الجيش الفاتح ويلجأوا الى الغرب حيث تسكن بقية قبائلهم . لكن الخليفة استشاط غضباً لذلك الاقتراح وأصر على المقاومة في دولة المهدية .

أعد الخليفة جيشاً يتكون منحوالي٥٠٠٠٠ مقاتل من كل القبائل السودانية وبقي فيام درمان يتوقع صداماً مع كتشنر،وكان معه في القيادة اخوه يعقوب، وولده عثمان شيخ الدين ، والخليفة علي ود حلو ، والخليفة شريف ، وكان قد انضم اليهم القائد المحنك عثمان دقنة بعد انكسار جيش محمود في واقعة النخيلة ، وخرج هذا الجيش من ام درمان حتى بلغ جبال كرري وانتظر هناك جيش العدو الذي استمر في زحفه دون ان يجد مقاومة .

معركة كرري : الجمعة ٢ سبتمبر ١٨٩٨ :

وصل جيش كتشنر باشا الى موقع جبل كرري عند ظهر يوم الخميس ،

---

(١) كتابه لعثمان دقنة بتاريخ ٣ ذي الحجة ١٣٠٣ هـ. عن الجهادية .

وكان الخليفة بجيوشه آنذاك في تلك المنطقة ينتظر قدوم اعدائه . وحسب كتشنر أن الخليفة سيهاجمه ليلاً ، وكان يريد ان يتجنب صدام الظلام بالرغم أن جيشه وبواخره تحمل الاضواء الكاشفة . وأخذ يرسل الجواسيس في صفوف الخليفة ليعلن أنه سيهاجم جيوش المهدية اثناء الليل . ورأى الأنصار ألا يهجموا ليلاً بسبب الانوار الكاشفة التي تمكن اعداءهم من رؤيتهم ولا يستطيعون هم أن يروهم ، وأخيراً استقر رأي قادته على الانتظار حتى الصباح .

صلى الخليفة الصبح بجيشه ثم امرهم بالهجوم على اعدائهم الذين تلقوهم بالقنابل والمدافع الرشاشة فحصدتهم بسبب تفانيهم في الهجوم ، ويقول شقير « كنت أرى الدراويش فرساناً ومشاة يسقطون صفاً وراء صف أمام نيران الجيش الحاصدة وهم يتلقونها بقلوب لا تهاب الموت حتى رأوا أنـــه يستحيل عليهم اختراق هذه النيران » . وعند ذلك اضطروا الى التقهقر . ثم حاولت الخيالة البريطانية ان تقطع عليهم خط العودة الى أمدرمان ، ولكن كان عثمان دقنـة قد أعد لهم كميناً وما أن اقتربوا منه حتى هب عليهم برجاله فأوقع فيهم الرعب والفوضى وقتـــل منهم ٢١ فارساً كما جرح ٤٩ وركن الباقون الى الفرار حتى تصلهم النجدات .

لكن ما لبث ان تنبه السردار كتشنر لما حدث فأنجدهم ، ثم رأى الخليفة يأمر بقية جيشه بالهجوم مرة ثانية وابطـــال السودان يتلقون رصاص المدافع الرشاشة بشجاعة حتى سقط منهم عشرة آلاف قتيل،منهم أخوه الامير يعقوب وبعض كبار رجال دولته كما جرح اكثر من هـــذا العدد . فارتد الخليفة الى ام درمان ، وهناك جمع اهله وانسحب يريد غرب السودان ليجمع الرجال ويعود لصد العدوان .

الجيش الفاتح يدخل عاصمة المهدي : اعمال بربرية

بينما كان الخليفة يحارب كتشنر في كرري كانت بواخر الانجليز قد بدأت في ضرب ام درمان بالقنابل منذ الفجر فدكت المنازل وأوقعت الرعب في صدور النساء والاطفال كما قتلت وجرحت الكثيرات . وعند عصر يوم الواقعة دخل كتشنر وجيشه ام درمان حيث أمر باستباحة المدينة ثلاثة ايام كانت أشأم ما عرف تاريخ البلاد من سلب ونهب وقتل .

وفي يوم ١٨ سبتمبر طفحت مرة ثانية بربرية القائد البريطاني السير كتشنر فأمر بوضع الالغام في ضريح المهدي ، فهدم القبة ، ثم انه أمر بنبش القبر واستخراج الجثة ، وقطع رأسها ، ثم ارسله الى المتحف البريطاني بلندن بعد ان بعثر العظام . ولم تعرف البلاد مثل هذه البربرية الا في كتشنر عند استيلائه على السودان إذ رجع بالعالم الى عهود مغرقة في البدائية .

نهاية الخليفة

واقعة جديد أو أم دويكرات ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩[٤] :

حاول الخليفة ان يجند رجالاً من غرب السودان لمواصلة الكفاح ضد الغزاة ، ولحق به القائد عثمان دقنة بعد موقعة كرري بمن معه من رجال ، وانضم اليهم احمد فضيل بعد انسحابه من القضارف تحت وطأة الهجوم المصري الانجليزي عليه . وكان مع الخليفة عبد الله جماعة فيهم الخليفة علي ود حلو ، وانطلقوا

جميعاً بمن معهم من مقاتلة ونساء نحو ام درمان لملاقاة أعدائهم . ولكن العدو كان لهم بالمرصاد مقتفياً آثارهم . وعندما بلغوا قرية جديد بدأت قوات الغزو بقيادة السير رجلند ونجت بضرب المجاهدين السودانيين برصاص المدافع الرشاشة حتى حصدتهم . ولما رأى الخليفة وأصحابه أنهم خسروا المعركة افترشوا فراء الصلاة وجلسوا هادئين ينتظرون الموت بجنان ثابت كما هي عادة الزعماء السودانيين عندما يخسرون المعركة الفاصلة فلا يولون الأدبار. واستمرت رصاصات المدافع في حصدهم حتى أفنت معظمهم ولم يبق منهم حياً غير عثمان دقنة[1] الذي كان يعسكر بعيداً عن الخليفة ولم يعلم بالمعركة إلا بعد انتهائها ، وحاول الهجرة الى الحجاز ، ولكن السطات البريطانية اعتقلته قبل وصوله الى الحرمين ، وظل أسيراً في سجون مصر عدداً من السنين ، ثم أعيد الى السودان ووضع في سجن حلفا ، ولم يفرج عنه خوفاً من ان يثير القلاقل إذ رفض ان يعد بالاستسلام والتوقف عن الجهاد ، وظل في سجنه حتى توفي في ٨ ديسمبر ١٩٢٦ .

بانتهاء الخليفة على هذه الطريقة انتهت المقاومة المنتظمة في البلاد ، ولم يبق رجل يستطيع حمل السلاح الا كان قد قتل أو اصيب بجرح أو كسر. وخسر السودانيون في تلك المواقع الدامية زهرة رجالهم حين استماتوا في الدفاع عن وطنهم ضد قوات حصدتهم بأسلحتها ، وأفنتهم بقنابلها. وكان من أسوأ مظاهر الفتح تلك الافعال غير الانسانية التي ارتكبها كتشنر بإباحة العاصمة ثلاثة ايام ، ثم نبش قبر المهدي ، وفصل الرأس من الجثة وارسله الى المتحف البريطاني . هذه الافعال كانت أسوأ بداية لفاتح في نهاية القرن التاسع عشر[2] ومما لا شك فيه ان دفاع السودانيين كان مجيداً ، وأشاد به اعداؤهم الانجليز ممن حاربوهم في

---

(١) محمد صالح ضرار : تاريخ السودان ٨٩ .

(٢) ألان مورهد : النيل الابيض ص ٣٣٨ - لكن اعاد اللورد كرومر الرأس الى السودان حيث دفن خلسة في حلفا في مكان لا يعرفه سوداني .

المواقع ، وخلدوا تلك الشجاعة في كتبهم مثل حرب النهر لتشرشل ، ومـــع كلتشنر الى الخرطوم لستيفنسن . وكتب نعوم شقير الذي كان في المخـــابرات البريطانية للجيش الفاتح في كتابه يقول « ولقد أظهر السودانيون فيهـــا (أي واقعة كرري) من البسالة ، واحتقار الموت ، والاستهلاك في سبيل الغرض ما لا مزيد عليه » .

وهكذا ايضاً انتهى استقلال السودان ليدخل في عهد من عهود الاستعمار .



١٣

النظم الإدارية في عهد الخليفة عبدالله

« كل الانتفاضات العظيمة ذات الدوافع المتأججة التي تعتنقها جماعة من الجماعات يصيبها الانحراف والتشويه بمرور الايام ، فيصبح وجه البسيطة مقبرة للاماني السامية التي كان يحلم بها الشعب ، وتنحدر العواطف الانسانية العريضة بسهولة الى درك الهستريا ، وتنقلب الروح الحربية الرائعة الى وحشة قاسية ، وتنعكس الحرية فتصبح كبتاً ، ويتبدل النظام والأمن الى حكم استبدادي غاشم ، وتتحول خشية الله وتقواه الى خرافات وأباطيل » .

تشرشل

وهكذا انقلبت المثل العليا التي قام من أجلها محمد احمد المهدي والتي حاول ان يجد لها الارض الطيبة لتنبت وتزدهر ما لبثت ان اصبحت مقبرة لكل تراث عظيم رفعه .

ترك المهدي الخليفة عبدالله خليفته على دولة المهدية ليسير بها الى الطريق المرسوم ، ولكن الظروف الداخلية والخارجية حالت دون توحيد العالم الاسلامي مرة اخرى تحت راية المهدية ، بل انها أدت الى تفكيكها من الداخل .

أما عبدالله التعايشي فقد أدار الدولة دون تغيير في الشكل ولكنه أضاع

الجوهر . فالمهدي لم يكن راغباً في الحكم المنفرد والاستبدادية ، كما انه لم يكن يرمي لجعله وراثياً في اهله بعكس الخليفة الذي سيطر على كل صغيرة و كبيرة في الدولة . وهو لم يسر بحسب ما أوصى به المهدي حين قال له « انت لك السيف ، وليعقوب الجيش ، وللقاضي الكتب[1] » فهو قد جمل السلطة التنفيذية في يد الخليفة عبد الله ، وجعل ادارة الأمن العام في يد يعقوب بينا ترك القضاء لقاضي الاسلام . ولو سارت الامور على هذا التقسيم لما حدث حكم استبدادي في البلاد .

اما من أهم مظاهر التغيير في الادارة فقد كان في اصول الخلافة وذلك حين اخذ الخليفة عبد الله يبعد الخليفتين عن الادارة ، ويمهد لأخيه يعقوب ، ثم بعد ذلك لابنه عثمان الذي أسماه شيخ الدين ، وجعل يوليه المسؤوليات الكبرى في الدولة وخاصة في قيادة الجيش . وظهرت هذه السياسة للناس ، ولكن الخليفة لم يجرؤ على القول صراحة بإسقاط حق الخليفة علي ود حلو في ان يخلفه مع انه كان يعمل لذلك . وكان اول من جاهر بهذه الخطة التي كان يرمي اليها الخليفة لم يجرؤ على القول صراحة بإسقاط حق الخليفة علي ود حلو في ان يخلفه مع انه كان يعمل لذلك . وكان اول من جاهر بهذه الخطة التي كان يرمي اليها الخليفة عبد الله هو حامد جار النبي احد أتباع الخليفة الثاني، وكان قد انفصل عن راية علي ود حلو وانخرط في راية يعقوب ، ثم يقول بأن علي ود حلو لن يخلف عبد الله وانما الذي سيصبح خليفة هو إما يعقوب او شيخ الدين .

اعتبر الخليفة علي ود حلو هذا الكلام ممن كان تابعه بالأمس جريمة كبرى لانه كفر بتعاليم المهدي الذي وضع أسس الخلافة . فطلب ان يقدم للمحاكمة حيث حكم عليه القضاء بالقتل ، وحاول الخليفة عبد الله ان يسترحم له من ود حلو فلم ينجح . ونفذ حكم الاعدام في حامد جار النبي . وكان العامة والخاصة يتهمون

---

(١) شبيكة : السودان في قرن .

الخليفة عبد الله بأنه لن يسير بتعاليم المهدي في الخلافة وانه سيعمل على تغيير أسسها ، ولكنه كان في حيرة من أمره بسبب تفضيله ولده عثمان على أخيه يعقوب . حتى جاء الفتح المصري الانجليزي فقضى على كل النوايا والآمال فلم يتحقق منها شيء .

استمد الخليفة عبد الله قوته من منشور للمهدي ذكر فيه ان الخليفة عبد الله منه ، وتجب طاعته ، فكان الخليفة دائماً يرجع في أوامره للناس الى تعاليم المهدي او الرؤى التي يرى فيها المهدي والتي يجب ان يصدقها كل مصدق في مهدية محمد احمد . لهذا السبب فان الخليفة لم يشأ ان يتعجل في نسخ قرار المهدي المتعلق بالخلافة ، وارجأ ذلك فلم تحققه الايام لمقتله . اما الخليفة شريف فقد نجح الخليفة عبد الله في الزج به في السجن حتى لم يعد ذا خطر عليه من بعد ذلك ، واستخدم مجلس القضاة وكبار رجال الدولة في اصدار ذلك الحكم عليه وقضى على قوة الاشراف وزعامتهم .

كذلك أصيب منصب قاضي الاسلام بشيء كثير من الزعزعة ، فان الخليفة لم يلبث ان عزل احمد علي الذي عينه المهدي قاضياً للاسلام لمعرفته بمنشوراته اكثر من علمه بالشرع اذ لم يكن القاضي ويعقوب على وفاق ، وانتهى النزاع بينهما الى اتهام القاضي بالرشوة ، ثم أثبتت التهمة عليه ، فأمر الخليفة باعدامه . وخلفه الشيخ الحسين الزهراء من متخرجي الجامع الازهر ، ولكن كان توليه القضاء في وقت طغت فيه الخرافة على العلم ، وبدلاً من ان يعمل بمنشورات المهدي تجاهلها وعمل برأيه وبالشرع حتى قتل هو الآخر ايضاً . هذه الاجراءات القاسية ضد القضاة نفرت الناس من المنصب وأصبح الخليفة بتدخله الحاسم حاكماً استبدادياً . وبالرغم من جنوح الخليفة الى الاستبداد الا انه كان من عادته ان يعقد مجلساً في أعياد ٢٧ رجب وفي عيد الاضحى من كل سنة لكبار رجال الدولة ومن يحضر من أم درمان من العمال والامراء ، ويتحدث معهم في شؤون البلاد ، ويأخذ آراءهم فيها .

وما حدث في القضاء حدث في بيت المال اذ لم يقبل الخليفة واخوه يعقوب امين بيت المال الذي عينه المهدي وهو احمد ود سليمان ، ولما لم يعمل أحمد باوامر يعقوب الذي اتهمه بولائه للاشراف ، وعدم ضبط الحسابات وضعه الخليفة في السجن حيث مات . وخلفه ابراهيم عدلان الذي انتقد سياسة الخليفة الخاصة بمحاباته لأهله البقارة ، فأمر الخليفة باعدامه ايضاً ، ثم جاء من بعده النور الجريفاوي فالعوض المرضي فابراهيم رمضان فالحاج احمد ياسين وكان حظهم أحسن ممن سبقهم لأنهم كانوا يعملون باوامر الخليفة .

وأهم تغيير في بيت المال في عهد الخليفة انه اصبح مقسماً في توزيع دخله ، فقد كان يصرف على جيش الملازمين وهم حرس الخليفة بقيادة ابنه شيخ الدين من دخل ارض الجزيرة ، وعلى الترسانة مما كان يجمع من مزارع الخرطوم وقيمة بيع سن الفيل ، وجعل لنفسه وآله مخصصات من ايراد المشارع والمراكب وريش النعام وثلث الصمغ وغيرها . وجعل للخليفة علي ود حلو وزوجات المهدي مرتبات معلومة . ونشط الخليفة في صك العملة وأمر بضربها ، وقد ضربت الريالات ولكن كان مقدار النحاس فيها كبيراً بحيث لم تكن لها قيمة حسنة او اقبال عليها من الناس .

واستمر الجيش في يد يعقوب بعد ان نزعت رايات الخليفتين ، وعمل جاهداً في صناعة الرصاص للبنادق ولو انها لم تكن في نفس المستوى الأوروبي الا انها سدت النقص الناتج عن حصار بريطانيا للبلاد حتى لا تتسرب الاسلحة والذخيرة .

كما الغى رايات الخلفاء كذلك فعل بالامناء والنواب الذين عينهم المهدي للنظر في قضايا الدولة المختلفة وركز كل المسؤوليات في يده حتى قوى مركزه دون غيره . وكان هو الذي يعين العمال والامراء والمشرفين على الاموال في كل اقاليم السودان . وفي حالة الخلافات بين الامراء كان يرسل اليهم أمناء للنظر في

المشكلات ثم يضع الحلول حسب التقارير التي ترد اليه وعلى ضوئها .

وانقسمت دولة المهدية في عهد الخليفة الى عدة عمالات ، وقد أحيت المهدية والالفاظ العربية القديمة ، فأطلق لفظ امير على قائد الجيش ، ولفظ عامل على حاكم المقاطعة . وكانت العمالات هي - كما ذكرها شقير - عمالة الجزيرة ، وجبال ادريس ، وغرب بحر الابيض ، وشات ، والبادية الغربية من ام درمان الى شات ، والبادية الشرقية في البطانة ، وشرق النيل الكبير من العليفون الى حجر العسل ، وغرب النيل الكبير من خور شمبات الى حجر العسل . وأطلق على مديرية فاشودة عمالة الشلك والدينكا ، وبلاد فازوغلي ، وبحر الجبل التي كانت خط الاستواء ، ودمج دارفور وكردفان وأسماها عمالة الغرب ، وجعل القلابات والقضارف عمالة واحدة ، ثم فصل عمالة كسلا من طوكر التي تركها تحت أمرة عثمان دقنة ، وجعل دنقلا وبربر عمالة ايضاً . ولما كانت البلاد في حالة حرب فقد جعل كل عامل اميراً على الجيش ومعه معاونون لجمع الزكاة والعشور .

اهتم الخليفة اكبر الاهتمام بالجيش ، وقسمه على اقسام مختلفة لكن الجزء الاكبر والاقوى كان تحت قيادة ولده واخيه . فقد سلم الراية الزرقاء وما تحتها من جنود من غرب السودان لأخيه يعقوب ، وكان سلاحهم الرئيسي السيوف والرماح. وجعل حرسه الخاص من الملازمين وهم الجهادية السود الذين كانوا جنود الحكم المصري ومن انخرط في سلك الجندية من قبائل البقارة ووضعهم تحت قيادة ابنه الشاب عثمان شيخ الدين. وكان سلاحهم البنادق التي ورثوها عن الجيش المصري السابق . اما جيش الخليفة علي ود حلو وهم من ابناء الجزيرة فقد كان حوالي خمسة آلاف رجل بالسلاح الابيض ، وكل هذه الجيوش كانت في ام درمان العاصمة . وكان كثيراً ما يقيم الخليفة استعراضات حربية كان يحضرها سلاطين باشا الذي سمى نفسه عبد القادر سلاطين بعد ان ادعى انه اعتنق الاسلام . اما جنود الاقاليم فقد كانت تحت قيادات الأمراء والعمال الذين كانوا يدافعون عن

الثغور في الحدود . وكان في الجيش عدد من الخيالة والمدفعية ايضاً ممن كانوا يعملون مع الحكم المصري . لكن الحروب المتعاقبة في الداخل والخارج والمجاعة كل تلك فتكت بالرجال،وبعد ان كانت جيوش المهدية المعدة في ساحات القتال اكثر من ربع مليون جندي تقلصت الى خمسين الفا في موقعة كرري والى خمسة آلاف في معركة ام دويكرات ١٨٩٩ .

حكم الخليفة على رقعة واسعة من الارض كانت تتسع وتضيق حسب التغلغل الاوروبي في البلاد ونجاحه في طردهم من اراضي السودان . ومما لا شك فيه ان السيادة على البلاد كانت تمتد جنوباً الى أماكن ابعد من حدود السودان الحالية حيث طردت التجريدات البلجيكية ، وفي الشمال امتدت شمالي وادي حلفا قليلاً حتى حدثت واقعة توشكي . وفي الشرق أمكن إيقاف اي زحف حبشي على البلاد ، واما الحدود الغربية فكانت آمنة حتى طرقها الفرنسيون في عام ١٨٩٧ .

وكانت مدينة ام درمان عاصمة دولة المهدية ويطلق عليها بقعة المهدي ونمت بسرعة واصبح يسكنها عدد كبير من السودانيين النازحين من مختلف جهات السودان وخاصة من الغرب حتى قدر عددها بنصف مليون نسمة . وكان كثير من هؤلاء منضوين في سلك الجندية من جهادية وملازمين ، كما ان كل الأجانب الذين أسروا واعتنقوا الاسلام استقروا فيها ووجدوا لأنفسهم أعمالاً انتظموا فيها . وسبب هذا العدد الضخم ازمات في الغذاء خاصة ايام المجاعة مما جعل الأمن يضطرب بسبب سطو الجائعين على منازل الآخرين ، ومات كثيرون من جراء المجاعة حتى خيف على الأحياء من الرمم . ولما دخل الجيش الفاتح المدينة لم يكن عدد من فيها يتجاوز خمسة وعشرين الفاً . وقد اختط الخليفة في المدينة اربعة شوارع رئيسية . وبنيت بيوتها من الآجر والحجر ، وكلها من طابق

المشكلات ثم يضع الحلول حسب التقارير التي ترد اليه وعلى ضوئها .

وانقسمت دولة المهدية في عهد الخليفة الى عدة عمالات ، وقد أحيت المهدية والالفاظ العربية القديمة ، فأطلق لفظ امير على قائد الجيش ، ولفظ عامل على حاكم المقاطعة . وكانت العمالات هي – كما ذكرها شقير – عمالة الجزيرة، وجبال ادريس ، وغرب بحر الابيض، وشات، والبادية الغربية من ام درمان الى شات، والبادية الشرقية في البطانة ، وشرق النيل الكبير من العليفون الى حجر العسل، وغرب النيل الكبير من خورشمبات الى حجر العسل . وأطلق على مديرية فاشودة عمالة الشلك والدينكا ، وبلاد فازوغلي ، وبحر الجبل التي كانت خط الاستواء ، ودمج دارفور وكردفان وأسماها عمالة الغرب ، وجعل القلابات رالقضارف عمالة واحدة ، ثم فصل عمالة كسلا من طوكر التي تركها تحت أمرة عثمان دقنة ، وجعل دنقلا وبربر عمالة ايضاً . ولما كانت البلاد في حالة حرب فقد جعل كل عامل اميراً على الجيش ومعه معاونون لجمع الزكاة والعشور .

اهتم الخليفة اكبر الاهتمام بالجيش ، وقسمه على اقسام مختلفة لكن الجزء الاكبر والاقوى كان تحت قيادة ولده واخيه . فقد سلم الراية الزرقاء وما تحتها من جنود من غرب السودان لأخيه يعقوب ، وكان سلاحهم الرئيسي السيوف والرماح. وجعل حرسه الخاص من الملازمين وهم الجهادية السود الذين كانوا جنود الحكم المصري ومن انخرط في سلك الجندية من قبائل البقارة ووضعهم تحت قيادة ابنه الشاب عثمان شيخ الدين. وكان سلاحهم البنادق التي ورثوها عن الجيش المصري السابق . اما جيش الخليفة علي ود حلو وهم من ابناء الجزيرة فقد كان حوالي خمسة آلاف رجل بالسلاح الابيض ، وكل هذه الجيوش كانت في ام درمان العاصمة . وكان كثيراً ما يقيم الخليفة استعراضات حربية كان يحضرها سلاطين باشا الذي سمى نفسه عبد القادر سلاطين بعد ان ادعى انه اعتنق الاسلام . اما جنود الاقاليم فقد كانت تحت قيادات الأمراء والعمال الذين كانوا يدافعون عن

الثغور في الحدود . وكان في الجيش عدد من الخيالة والمدفعية ايضاً ممن كانوا يعملون مع الحكم المصري . لكن الحروب المتعاقبة في الداخل والخارج والمجاعة كل تلك فتكت بالرجال،وبعد ان كانت جيوش المهدية المعدة في ساحات القتال اكثر من ربع مليون جندي تقلصت الى خمسين الفا في موقعة كرري والى خمسة آلاف في معركة ام دويكرات ١٨٩٩ .

حكم الخليفة على رقعة واسعة من الارض كانت تتسع وتضيق حسب التغلغل الاوروبي في البلاد ونجاحه في طردهم من اراضي السودان . ومما لا شك فيه ان السيادة على البلاد كانت تمتد جنوباً الى أماكن ابعد من حدود السودان الحالية حيث طردت التجريدات البلجيكية ، وفي الشمال امتدت شمالي وادي حلفا قليلاً حتى حدثت واقعة توشكي . وفي الشرق أمكن إيقاف اي زحف حبشي على البلاد ، واما الحدود الغربية فكانت آمنة حتى طرقها الفرنسيون في عام ١٨٩٧ .

وكانت مدينة ام درمان عاصمة دولة المهدية ويطلق عليها بقعة المهدي ونمت بسرعة واصبح يسكنها عدد كبير من السودانيين النازحين من مختلف جهات السودان وخاصة من الغرب حتى قدر عددها بنصف مليون نسمة . وكان كثير من هؤلاء منضوين في سلك الجندية من جهادية وملازمين ، كما ان كل الأجانب الذين أسروا واعتنقوا الاسلام استقروا فيها ووجدوا لأنفسهم أعمالاً انتظموا فيها . وسبب هذا العدد الضخم ازمات في الغذاء خاصة ايام المجاعة مما جعل الأمن يضطرب بسبب سطو الجائعين على منازل الآخرين ، ومات كثيرون من جراء المجاعة حتى خيف على الأحياء من الرمم . ولما دخل الجيش الفاتح المدينة لم يكن عدد من فيها يتجاوز خمسة وعشرين الفاً . وقد اختط الخليفة في المدينة اربعة شوارع رئيسية . وبنيت بيوتها من الآجر والحجر ، وكلها من طابق

واحد ما عدا بيت الخليفة الذي كان من طابقين ولكن في مظهر عادي ليس فيه من الأبهة شيء .

واجه الخليفة صعوبات جديدة لم يواجه المهدي مثلها، وكانت تلك الصعوبات أشبه بالردة في الاسلام ، وكان المهدي يتمتـع بهالة من التقديس الديني والوطني لأنه واضع عقيدة المهدية بينما كان الخليفـة لا يتمتع بذلك القدر من التقدير . وكان المهدي يحارب لطرد المستعمرين بينما كان المستعمرون خارج حدود البلاد في عهد الخليفة. وكان المؤمنون بالمهدية يؤمنون بأنهم تحت راية المهدي سيفتحون العالم ، ولكن في عصر الخليفة وجدوا ان المهدي قد لحق بربه قبل تنفيذ مخططه الدولة المهدية العالمية. وهكذا ورث الخليفة عبد الله مشكلات ما لبثت ان تفحت و كشفت عن مضاعفات اخرى كما رأينا في عهده .

لقد قام الخليفة عبد الله بمسؤوليات الخلافة خير قيام ويتفق السودانيون على أنه كان ادارياً ممتازاً بمقاييس تلك الظروف والعصر ، وانه كان وطنيـاً غيوراً ساهراً على وحدة البلاد واستقلالها . وكرس كل جهده ووقته وفكره ورجاله للحفاظ على الوحدة والاستقلال . وقد ناهض الثورات الداخليـة ، والهجمات الخارجية بصبر وجلد طيلة حياته . وعند مماته جابه الموت بالطريقة التي كان يرغب فيها كل سوداني علىحد مثلهم المشهور « الموت مع الجماعةعرس». فللخليفة طموح عظيم ، وكفاءة نادرة ، وعقيدة راسخة ، ووطنية ثائرة ولو واجه غيره تلك المشكلات لانقسمت البلاد على نفسها شيعاً وقبائل ، ولالتهمتها الدول الاوروبية في وقت اقصر من ذلك بكثير . وبمقاييس الثقافة السودانيـة الحديثة فان مكانته كأحد رواد الوطنية والحرية سامية في تاريخ السودان .

وكان الخليفة كثير الاجتماع بالقضاة في مجلسهم كما انهم كثيراً ما كانوا

يتناولون الوجبات معه هم ومستشاروه من اهله ، وفي تلك الاجتماعات كان يتم قضاء العديد من شؤون الدولة .

وبطبيعة الحال كانت الاحكام هي ما نصت عليه الشريعة ، ولكن كلا من المهدي والخليفة كان يبالغ في منع التدخين وعقاب المدخنين ، وكان في دولة المهدية يعتبر التدخين من كبائر المحرمات .

مكانة الخليفة في السودان :

ما زالت مكانة الخليفة عبد الله غير مستقرة المستوى في نفوس السودانيين ، فبعضهم يرى فيه مغتصباً متسلطاً على دولة المهدية ، وبعضهم يرى فيه سلطة شرعية بايعها جميع الشعب ولكن الطموح القبلي عرقل سير خلافته ، واضطرها الى الجنوح الى القوة في اكثر سنواتها . ولو استمرت القبائل السودانية المختلفة في ولائها لحكمه لما اضطر الى اتخاذ كثير من التدابير الصارمة للحفاظ على حكمه . وقد اظهر الخليفة ليناً وحدباً على المواطنين بعد سنة ١٨٨٩ حين انتصر على اعدائه في الخارج ، وبعد القضاء على المارقين في الداخل ، وكان يمكن ان يسير بسياسة اللين التي انتهجها بعد ذلك . والسودانيون قوم عاطفيون يميلون الى سياسة العفو عند المقدرة بدلاً من العقوبة وخاصة الاعدام . لكن الخليفة لم يستطع ان يشبع رغبة السودانيين في العفو عن الذين ثاروا عليه او عارضوه ، ولذلك فانه لم يرض بعض السودانيين . لقد تخلص الخليفة من معظم قواد المهدي الأوائل ، ولم يبق منهم على صلات طيبة بالخليفة غير عثمان دقنة الذي كان متشبثاً بولائه للمهدي والمهدية وخليفة المهدي ، ولذلك فقد سارت الامور بينهما على خير وفاق بينما أعفى الكثيرين من القواد من مناصبهم او حاكمهم بالسجن

او النفي او الاعدام ، وما ذلك الا بعد ان ثبت لديه استغلال بعضهم لمناصبهم وعدم الاخلاص له .

وبما يؤخذ على الخليفة انه جعل السيطرة في البلاد لأهله وقبيلته البقـارة ، لكنه لم يجنح لذلك إلا عندما لمس تألب افراد القبائل القاطنة على النيـــل أي اولاد البلد على خلافته ومحاولتهم مناصرة الخليفة شريف وتقسيم البلاد . وخلافة المهدي في رأي الخليفة عبدالله عقيدة ملأت عليه قلبه وفكره ولذلك كان لا بد له من الدفاع عن كل معتقداتها ومقوماتها .



١٤

الحكم الثنائي ونظم الإدارة

عبر كتشنر النيل من ام درمان الى الخرطوم بعد يومين من انتصاره في واقعة كرري تماماً كما فعل المهدي بعد انتصاره على غردون ، ثم زار كتشنر انقاض سراي الحاكم العام ، ورفع العلمين المصري والبريطاني ايذاناً بقيام حكم ثنائي في السودان تشترك فيه الدولتان مصر وانجلترا كما اشتركتا في فتح البلاد . ومنذ ذلك التاريخ (٨ سبتمبر ١٨٩٨) اطلق البريطانيون اسم السودان الانجليزي المصري[١] على البلاد .

فاشودة :

كانت هناك مشكلتان في حاجة الى حل سريع تواجهان المنتصرين : الأولى القضاء على الخليفة عبدالله قضاء نهائياً وقد تم ذلك لكتشنر بعد اكثر من عام منذ انتصار قواته في واقعة كرري. اما المشكلة الثانية العاجلة فقد كانت بسبب تغلغل الفرنسيين من غرب السودان في طريقهم لاحتلال اعالي النيل في مديرية بحر الغزال . وكان الكابتن مارشان قد تقدم بجنوده حتى وصل قرية فاشودة

(١) كانت الخرط المصرية تكتب « السودان المصري الانجليزي » .

في النيل في تلك المديرية ورفع العلم الفرنسي ايذاناً بضم ذلك الجزء الى الممتلكات الفرنسية .

بمجرد ان علم كتشنر بتغلغل مارشان هب من فوره من الخرطوم في فصيلة مختلطة من جيشه الى المنطقة التي احتلها مارشان حيث وصلها في ١٩ سبتمبر ١٨٩٨ ووجد معسكر شارمان هناك . فاستدعى الضابط الفرنسي الى مقره الجديد للنظر في أمر وجود جنود فرنسا في تلك المنطقة ، ولما كان مارشان أقل رتبة من كتشنر فقد ذهب اليه حيث أعلن بأن وجوده هناك انما كان بأمر الحكومة الفرنسية .

امتنع الضابطان المتخاصمان من الدخول في معركة لفض النزاع وتركا لحكومتيهما العمل للتوصل الى حل سياسي للمشكلة ، ولما كانت فرنسا تسعى آنذاك للحصول على صداقة انجلترا لمواجهة المانيا فان وزير الخارجية الفرنسية دلكامي كان على اتم الاستعداد للتنازل عن اطماعه في السودان بغية نيل الصداقة الانجليزية . وما لبث ان أعلن ان فرنسا ليست على استعداد للدخول في حرب من أجل رقعة من الارض لم يسمع بها اكثر من تسعين في المائة من الشعب الفرنسي[١] وأمر مارشان بالانسحاب تاركاً وادي النيل للانجليز .

اما نتائج هذا الاتفاق فلم تكن ذات أثر على السودان بل على المسرح السياسي الاوروبي لأن فاشودة وضعت اللبنات الاولى للتفاهم الانجليزي الفرنسي الروسي .

هكذا انتهت المشكلتان الحربيتان العاجلتان ، ولم يبق سوى المشكلات الداخلية التي تتعلق بادارة البلاد المفتوحة بطريقة اكثر انسانية مما عهدته البلاد

---

(١) غرانت وتمبرلي .

وبما يحقق الطمأنينة ويشيع الامن في النفوس التي ارهقتها الاحداث اكثر من سبعين عاماً .

النظام الاداري :

كان اللورد كرومر هو العقل المفكر في وضع أسس الادارة في السودان ، وكان من حسن حظ الحكم الثنائي ان وجد البلاد خالية من كل تعقيد اداري يمكن ان يعرقل النظم التي يرى الحكام الجدد ادخالها في السودان. ووضع كرومر اتفاقية الحكم الثنائي ، واستغل المادة الثالثة التي تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية للحاكم العام الذي يتم تعيينه بأمر من الخديوي بعد ان ترشحه الحكومة الانجليزية ويعزل بطلب من الحكومة البريطانية وموافقة الخديوي . وبهذه المادة وغيرها جعل كرومر أمر السودان في يد الحاكم العام دون ان يترك ثغرة للحكومة المصرية للتدخل في ادارته، وهذا ما جعل المصريين وخاصة مصطفى كامل ينتقد هذه الاتفاقية انتقاداً ساخراً في عام ١٩٠٠ لان التضحيات المصرية في المال والأنفس انما كسبت لانجلترا حوالي المليون ميل مربع بينما خسرت مصر كل شيء .

بالرغم من اشتداد المعارضة المصرية في القاهرة فان ذلك لم يثن البريطانيين عن عزمهم في وضع الأسس الادارية التي تروق لهم. وكان اول ما فعلوه هو أنهم عينوا اللورد كتشنر حاكماً عاماً على السودان ، ووضعوا البلاد تحت الاحكام العرفية حتى يتسنى للحاكم العام ان يفعل ما يشاء دون تدخل من الرعايا الاوروبيين الذين عملوا على النزوح الى السودان في سبيل التجارة ، فلم يمكنهم من ان يتمتعوا بحصانة الامتيازات الاجنبية التي كانت سائدة في مصر واجزاء الامبراطورية العثمانية .

كان السودان في حاجة الى نظام اداري لكي يعم الأمن والسلام في ربوعه ،

ووضعت خطط الادارة الجديــدة بحيث لا تشكل نظاماً جديــداً لم يألفه السودانيون فتتعقد الامور على الاهلين . اما النظام الذي وضع فقد كان امتداداً للنظام في العهد المصري التركي السابق اي قبل قيــام المهدي بثورته ، فأصبح المسؤول عن البلاد الحاكم العام ، ويليه في المسؤوليات المديرون الذين يعينهم بعد تقسيم البـلاد الى مديريات . ثم قسمت كل مديرية الى اقسام أصغر هي المراكز وجعل على كل مركز مفتشاً يعاونه مأمور ونائب مأمور . لم يختلف هذا النظام الاداري عن النظام الاسبق في مبناه لكن الاختلاف كان في انواع الرجال الذين أعطيت لهم مسؤوليات الحكم . فقد كان الحاكم العام دائماً انجليزياً وكذلك كل من تولى وظيفة المدير والمفتش. اما المآمير ونوابهم فقد كانوا من المصريين. وفي اول عهد الحكم الثنائي كان كل الاداريين البريطانيين والمصريين من ضبــاط الجيش الفاتح ، وكان الانجليز يملأون الرتب العالية في الجيش المصري ثم اصبحوا يحتلون الوظائف الكبرى في ادارة السودان الحديثة .

لكن هؤلاء الضباط الانجليز ما لبثوا ان استبدلوا تدريجياً ببريطانيين من خريجي الجامعات اختيروا لتلك الوظائف حتى تتغير الادارة من أيدي العسكريين الى المدنيين . وحدث هذا التغير تدريجياً ، فلم تهتز العجلة الادارية بسببه . ولما كان اولئك الشبان البريطانيون قد التحقوا بوظائف مستديمة لن ينقلوا منها الى مصر او بريطانيا حتى في حالات الترقي ، فان روح الاستقرار سادت في البلاد بعكس ما كان الامر في عهد الحكم المصري السابق . وكان عدد هؤلاء يزداد سنوياً فبدأ بستة منهم في سنة ١٩٠١ وبلغ العدد ١٦٦ في سنة ١٩٣٣ واستمر في الازدياد بعد ذلك وأطلق عليهم أعضاء الخدمة السياسية السودانية .

مع ان الادارة لم تكن ابتكاراً جديداً الا أنها كانت اكثر نجاحاً من سابقتها لسببين ، الاول لأن نوع الاداريين كان اكثر مسؤولية، وأوسع أفقاً من الاتراك المصريين . والثاني لأن الضرائب التي وضعتها ادارة الحكم الثنائي بارشاد اللورد

كرومر كانت خفيفة الوطء على كاهل السوداني إذ اتخذ كتشنر ضرائب دولة المهدية نبراساً له في وضع أسسها. ولما كانت ضرائب المهدية لم تثقل كاهل الاهلين، وكانوا راضين عنها لمطابقتها للشريعة الاسلامية فان كرومر لم يشأ ان يزيد عليها خاصة وان البلاد فقدت الرجال والاموال والأقوات وهي تحارب أعداءها من كل جانب. وهكذا اقتبس كرومر من التركية السابقة والمهدية حسنات كل منها ومكن الادارة من ان تعمل بنجاح بفضل المراقبة الشديدة التي كانت منه ومن الحاكم العام.

لئن كان المدير هو رئيس كل مديرية الا أن مفتشي المراكز الذين يعاونونه في المراكز كانت لهم سلطات ادارية واسعة تطلبتها ظروف البلاد من حيث قلة المواصلات وصعوبتها وبطئها. وترك للمفتش الحق في ان يحكم كما يشاء في منطقته فيصبح مسؤولاً عن كل نواحي الحياة ويحددها ويرعاها، وكثيراً ما كان المفتشون يزورون المدارس للتفتيش عليها، والمصحات الطبية (الشفخانات) لمراقبة التطبيب فيها، والسوق لتلقي التحيات والاحترام من التجار. وبطبيعة الحال فان المفتشين كانوا الرواد يصيبون حيناً ويخطئون حيناً آخر، وأكسبتهم التجارب والعمل الجاد خبرة برزت فيما كتبوه من أبحاث قيمة في مجلة « السودان في رسائل ومدونات ».

هذه المسؤوليات التي أعطيت للمفتشين تظهر مدى رغبة الادارة الحديثة في جعل اللامركزية دعامة الحكم الانجليزي المصري، وقد كانت سلطات المفتشين مدعاة للتندر فيما بعد إذ كان بيد المفتش الحل والعقد، وكان قليل منهم في الأماكن النائية يبالغون في استقلالهم حتى سميت الادارة فيما بعد بحكومة المفتشين [1]، وأثارت عليها سخطاً كبيراً.

---

(١) أطلقه الصحفي السوداني احمد يوسف هاشم في انتقاداته الشديدة لبعض المفتشين ثم اصبح تعبيراً متداولاً.

ضئيلة كمرتبات من الضرائب الموضوعة على المحاصيل والحيوانات . واصبحت مكانة شيخ القبيلة لا احترام لها من احد خاصة في المدن والقرى حيث كانت وظائف العمودية أمراً مكروهاً ينفر منه الناس ، وتدهور المنصب حتى اصبح في أيدي رجال بسطاء رفعتهم الحكومة للمنصب ولكنهم انخفضوا به .

بدأت الحكومة الثنائية تغير في آرائها نحو هؤلاء الزعماء القبليين وعمدت الى اتخاذ اجراءات جديدة في سبيل التعاون معهم بغرض إشراك بعض الوطنيين في الحكم من جهة ،وفي تخفيض نفقات الدولة من جهة اخرى. واتخذت اول خطوة نحو تنفيذ هذه السياسة في عام ١٩٢٢ حيث صودق على قانون سلطات شيوخ البادية . وبموجب هذا القانون اصبح زعماء القبائل في البادية يتمتعون بسلطات محدودة في المحيط القضائي وليس لهم أية سلطات في الناحية التنفيذية لتفادي تقويتهم ولعدم خبرتهم . وتمكن حوالي الثلاثمائة شيخ من الحصول على هذه السلطات التي تقضي بقيام محاكم لقضايا حددت عقوبتها القصوى امام مجلس قضاة أهلي بمبلغ ٢٥ جنيهاً سودانياً . اما في المحاكم التي يحكمها شيخ واحد بدون مجلس فلا تتعدى سلطته غرامة أقصاها عشرة جنيهات ، ولم يمنح القضاة سلطات بأحكام للسجن . وفي عام ١٩٢٥ أنشئت المحاكم القروية وسلطتها لا تتعدى غرامة جنيهين .

في سنة ١٩٢٧ صدر قانون سلطات الشيوخ ثم عدل قليلاً في السنة التالية ، واصبح للحاكم العام الحق في انشاء مثل تلك المحاكم الاهلية في اي مكان شاء في البادية كما كان اول الامر . وقام نوعان من المحاكم الاهلية : الكبرى والصغرى للقضايا المدنية والجنائية ، وأعطي القضاة الوطنيون الحق في اصدار عقوبات بالحبس والغرامة الى مدة اقصاها سنتان وغرامة ١٠٠ جنيه . وامتدت هذه المحاكم للمدن والمناطق الاخرى ما عدا الجنوب الذي رأى البريطانيون ان يقيسوا فيه تجربة اخرى . وفي عام ١٩٣١ اصدر الحاكم العام تشريع محاكم

الزعماء في الجنوب الوثني ومنح زعماء القبائل في الجنوب سلطات قضائية لمعاقبة أفراد قبائلهم المخلين بالامن . ومنذ سنة ١٩٣٨ بدأت الحكومة التفكير في ادخال الحكومات المحلية على نظام الحكومات المحلية البريطانية بغرض اعطاء السودانيين تدريباً على ادارة شؤون مدنهم ومناطقهم الريفية فيا يخص النواحي الخاصة بالخدمات الضرورية للمدن والأرياف . واستهلت المجالس البلدية والريفية أعمالها بأعضاء معينين يرأسهم مفتش المركز في المجلس . ثم ما لبث ان تغير الوضع فأصبح بعض الأعضاء معينين وبعضهم منتخبين حتى أضحى جميعهم يحتلون عضويتهم عن طريق الانتخابات . وكان عدد المجالس البلدية والريفية قد بلغ ٥٦ في عام ١٩٥٢ ويبلغ مجموع الدخل من العوائد البلدية ١٬٥٠٠٬٠٠٠ جنيه . وكانت لأعضاء المجالس السلطات الخاصة بصرف هذا المبلغ بالطرق التي يحددونها .

كان البريطانيون يهدفون في هذه الادارة الأهلية الى نشر نوع من اللامركزية في السودان والى اشراك بعض الوطنيين في ادارة بلادهم . لكن بعض المثقفين من الوطنيين نظروا الى هذه الخطوة الانجليزية نظرة مختلفة ، فقد رأوا ان الانجليز انما يريدون ان يحيوا النعرة القبلية التي كانت سائدة قبل ذلك والتي قضت عليها ثورة المهدي وملأت الفراغ بالقومية السودانية . وكان بعض المثقفين لا يرحبون بالسياسة التي درجت عليها ادارة الحكم الثنائي من تجاهلها للقومية السودانية واصرارها على تنويع الناس بحسب قبائلهم في المستندات الرسمية ، كما انتقد المتعلمون السودانيون البريطانيين لأنهم حاولوا خلق طبقة حاكمة من الزعماء العشائريين ليكونوا موالين لهم ولحكمهم ،وثارت شكوكهم في نوايا الانجليز الذين وضعوا للجنوب تشريعات خاصة تختلف عما وضع في الشمال كأنما يعمدون الى فصله مستقبلاً عن الشمال . وكانت تلك المحاكم الأهلية في اول عهدها والى قبل الاستقلال بغيضة الى المتعلمين ، ولكنها استمرت في اعمالها حتى بعد ان نالت

البلاد استقلالها ، وهي الآن تؤدي خدمات مفيدة في القضاء السوداني وموضع احترام للاهلين .

نشأة القضاء :

أدخل الحاكم العام في السودان قانون عقوبات السودان سنة ١٨٩٩ ، وفي السنة التالية أدخل قانون التحقيق الجنائي ، كلاهما على غرار القوانين الهندية التي وضعها البريطانيون هناك في سبيل حفظ الامن وسلطانهم . وجعلت هذه القوانين مبسطة بعدد قليل من التعديلات حتى يسهل على الضباط البريطانيين تطبيقها لأنهم لم يكونوا حقوقيين او دارسين للقانون . وفي سنة ١٩٠٠ أدخل القانون المدني واستعمل في الاقاليم الشمالية .

وقسمت المحاكم الى كبرى وصغرى ، فالكبرى ينظر فيها المدير وعضوان ، والصغرى يحكم فيها قاض واحد هو احد الضباط البريطانيين . وكانت توزع القضايا على حسب خطورتها الجنائية .

اتخذ نفس النظام كذلك على القضايا المدنية فقسمت محاكمها الى صغرى و كبرى وحددت معالم كل منها ومسؤولياتها .

والى جانب القضاء الجنائي والمدني قام القضاء الشرعي فعين عدد من السودانيين والمصريين قضاة شرعيين للنظر في قضايا الزوا والطلاق والنفقة والارث .

١٥

التطور الاقتصادي والاجتماعي (١٨٩٨)

أنهكت الحروب التي استمرت منذ قيام المهدية السودان اقتصادياً فالزراعة قلت، والأيدي العاملة نقصت، والتجارة اضمحلت، والثروة الحيوانية تضاءلت. فلما سيطر الحكم الثنائي على البلاد كان من أهم أغراضه رفع اقتصاديات البلاد إذ كان يريد ان يجني الفائدة من المواد الخام ويجد لمصنوعاته أسواقاً جديدة. وكان لا بد له من توسيع زراعة المواد الغذائية والنقدية، وتطوير المواصلات لتصل الحاصلات السودانية الى العالم الخارجي عن طريق ميناء بحري، والعمل على عدم الاعتماد على الامطار، والسعي في استغلال مياه النيل بطرق حديثة تضمن سلامة الري المتواصل واستقراره. ثم إيجاد أسواق للحاصلات السودانية في الخارج، وتشجيع رأس المال البريطاني خاصة لاستغلال ثروات البلاد الزراعية والمعدنية متى وجدت. كانت هذه واجبات الحكم الثنائي في الحقل الاقتصادي.

عرف الانجليز ان السودان هو مصدر القطن طويل التيلة الذي يزرع في مصر، ورأوا أن يعملوا على زراعته في السودان بواسطة ري صناعي سواء أكان عن طريق بناء الخزانات، او اقامة المضخات (الطلمبات) على شواطىء النيل. لكن قبل الشروع في بناء خزان كان عليهم ان يقوموا بتجارب زراعته حتى اذا تأكد نجاحها انتقلوا الى الخطوة الثانية بزراعته بمساحات واسعة بعد بناء

الخزانات وحفر الترع. وبرهنت التجارب في كل من طيبة بأرض الجزيرة وشندي والزيداب عن نجاح القطن ، وبقيت مشكلة النقل من المناطق الزراعية الى ميناء سواكن على البحر الاحمر .

اصبح من الضروري بناء خط حديدي من عطبرة الى سواكن لنقل محصول القطن وغيره ثم جلب الواردات عن طريق سواكن التي كانت نافذة السودان آنذاك . وكان الرأي عند الحكومة ان البحر الاحمر أسهل اتصالاً من حلفا حيث تنقل الصادرات عبر مصر الى الخارج. كذلك رؤي ان تربط البلاد بشبكة مواصلات بالسكة الحديد من الابيض الى مدني والخرطوم وذلك لترحيل الصمغ من الابيض ، والقطن من الجزيرة عندما تتم زراعته ثم تنقل كلها الى ميناء على البحر الاحمر غير سواكن التي اصبح مدخلها لا يناسب البواخر العصرية الكبيرة ولذلك أنشئت ميناء بورتسودان ورست فيها السفن سنة ١٩٠٧ . ووصل الخط الحديدي الى الابيض سنة ١٩١٢ . وبذلك أعدت شبكة عصرية للمواصلات ربطت بين الأراضي المنتجة والميناء الحديثة التي كانت تنتظر المنتوجات الزراعية .

في سبيل تحقيق الهدف الزراعي سار استغلال مياه النيل على مرحلتين : الاولى باستعمال المضخات لضخ المياه في قنوات تصل الى أحواض الزراعة . والمرحلة الثانية كانت عبارة عن التفكير في بناء خزان بسنار لري أرض الجزيرة. وقبل ان يخطو مشروع الخزان خطواته العملية شبت الحرب العالمية الاولى ، فأوقف تنفيذ الفكرة موقتاً لصعوبات كثيرة تثيرها الحرب . وبعد نهاية الحرب بدىء العمل في بناء الخزان باستلاف مبلغ ١٣ مليون جنيه من اصحاب رؤوس الاموال البريطانيين ، وقبلت الحكومة البريطانية ان تكون ضامناً لحكومة السودان . وقامت شركة انجليزية بالمشروع وأعطيت امتيازاً باستغلاله لفترة ثلاثين سنة انتهت في عام ١٩٤٩ ولكن في سنة ١٩٥٠ اصبح ملكاً لحكومة

السودان [1] وكونت الحكومة لجنة الجزيرة لإدارة المشروع . ويحوي هذا المشروع حوالي المليون فدان تزرع بدورة رباعية قطناً وذرة ولوبياء ، ويعمل فيه المزارعون وهم أصحاب الارض غير ان الحكومة استأجرت منهم تلك الأراضي بإيجار اسمي نظير اعطائهم الحق الاول في زراعتها عند قيام المشروع ، وتم الاتفاق على ان تأخذ الحكومة ٤٠ ٪ من دخل المشروع سنوياً ، وتقسم على المزارعين ٤٠ ٪ بينما تأخذ الشركة العشرين في المائة الباقية نظير إدارتها للمشروع.

ما أن ظهر القطن السوداني حتى وجد أسواقاً معدة له في بريطانيا حيث مصانع لانكشير للنسيج والغزل ، واصبحت اقتصاديات البلاد منذ ذلك الحين معتمدة على القطن كلياً تقريباً . اما الصمغ فقد كانت تجارته تحتل الصدارة في اول الامر لكن ما لبث القطن ان اصبح المحصول النقدي الأهم . ونما دخل البلاد بانتظام ملحوظ مع توالي السنين .

وقد كان هناك اطراد في تنمية التجارة وزيادة الدخل الحكومي ولم تشذ الا سنوات الأزمة المالية العالمية (١٩٢٩ - ٣١) وكان هناك الارتفاع الظاهر في مستوى تصدير القطن والصمغ والجلود وبذرة القطن والفول السوداني .

كان هناك عجز في ميزانية السودان حتى سنة ١٩١٣ حين تعادل الميزان الحكومي ، وكانت مصر تسد ذلك العجز في الميزان وهي راضية بذلك نظير اعتراف البريطانيين بحقها كشريك في السودان. وكانت مصر تدفع ايضاً نفقات جيش الاحتلال في السودان ومن ثم كان لها حق الاشراف على ميزانية السودان. لكن بعد سنة ١٩١٣ حين لم يكن هناك عجز مالي فان ذلك الاشراف توقف .

وتحت اشراف البريطانيين عمل السودانيون بجد وعزم في سبيل تطوير

---

(١) انتقد الصحفي احمد يوسف هاشم الحكومة في الصحافة لأنها لم تدرب السودانيين لاستلام المشروع في الوقت المحدد ، فاضطرت الحكومة الى تسلمه خشية النقد الحاد الباني .

اقتصاديات البلاد حتى ظهرت بوادر الرخاء. ولكن الذي يؤخذ على البريطانيين أنهم جعلوا الثروة المالية في ايدي البنوك والشركات الاجنبيـــة والافراد ولم يستطيعوا تنمية رأس المـــال الوطني الا قليلاً . وقد نجحوا بالفعل في تدريب السودانيين ليعملوا كمزارعين في حقول زراعة منظمـة كما سلموا ادارة مشروع الجزيرة في حالة جيدة أمكن للسودانيين فيما بعد ان يسيروا بها بنجاح ، ودلت التجارب على ان روح المسؤولية والاهتمام لم تفارق السودانيين في ميدان التطور الاقتصادي بعد ان أظهروها من قبل في ميدان الحروب والمعارك اثناء المهدية .

التعليم :

عرف السودانيون نظام المدارس الحديثة اثناء الحكم التركي المصري ولكن على قلة ، فلما شبت المهدية انتهى ذلك النوع من التعليم ولجـــأ السودانيون الى الكتاب « الخلاوي » يدرسون القرآن وما يتعلق به من علوم . فلمـا قام الحكم الثنائي قرر اللورد كرومر ان يدخل التعليم بأهداف لخصها في قوله «انني أوضح ما اعنيه بالطبقة المتعلمة فأنا لا أرمي الى التعليم العالي ... فـــان كل ما تتطلبه الحاجة الآن هو تلقين بعض المعلومات في القراءة والكتابة والحساب لعدد خاص من الشبان حتى يتمكنوا من احتلال بعض المناصب الصغرى في ادارة القطر ، وان الحاجة لهذه الطبقة لجد عظيمة » . وعلى ضوء هذه الاشارة بـدأ التعليم في السودان .

كان كتشنر واضع اول لبنة تعليمية في السودان فقد انتهز فورة حمـــاس الشعب البريطاني لانتقامه[1] لغردون بقتل الخليفة والتمثيل بجثة المهدي فطلب من البريطانيين ان يتبرعوا لتخليد ذكرى الجنرال غردون بانشاء معهد تعليمي في

---

(١) ماكمايكل : السودان الانجليزي المصري .

السودان يطلق عليه « كلية غردون التذكارية » . وجمعت التبرعات في بريطانيا وبلغت مائة الف جنيه ، وبدىء العمل في البناء الذي تم في عام ١٩٠٢. ونقلت المدارس التي كانت في ام درمان من ابتدائية وصناعية الى الكلية الحديثة ، وكذلك مدرسة المعلمين والقضاة الشرعيين ، وافتتح معمل كيماوي بالكلية اذ أهدى المستر ولكم معداته للكلية التذكارية .

ولما كانت الحكومة تزمع تطوير اقتصاديات السودان فقد كان لزاماً عليها ان تعد الخبراء السودانيين الذين يستطيعون ان يملأوا الوظائف لمساعدة الرؤساء البريطانيين ، ولا يتأتى ذلك الا عن طريق توسيع قاعدة التعليم لتشمل عدداً أكبر من ابناء البلاد في مرحلة التعليم الاولي فالأوسط ثم الثانوي . وقد تخرج الفوج الاول من مساعدي المساحين من الكلية في عام ١٩٠٧ ، وأما المدرسون فقد تخرجوا في سنة ١٩١٢ ، وتخرج غيرهم من قسم الكتبة والمحاسبين. وكان كلهم يلحقون بالوظائف الحكومية ليشقوا طريقهم فيها .

لم يكن من الممكن في تلك الظروف المالية ان يتوسع التعليم حسب رغبة الأهلين لأن البلاد كانت فقيرة ، لكن مع ذلك نجد ان مدير المعارف السير جيمس كري كان مخلصاً في رغبته لزيادة المدارس حتى استطاع ان يفرض ضريبة خاصة للتعليم ساعدت بعض الشيء في انشاء مدارس مختلفة . وتذكر أعمال السير كري بمزيد من التقدير بين السودانيين خاصة الذين عاصروه . وهو الذي انشأ الكلية الحربية بالاضافة الى التوسع في التعليم .

هكذا نفذ كري سياسة كرومر وأعطى البلاد ما كانت في حاجة اليه من موظفين للمصالح الحكومية . وبفضل تلك الوظائف وجدت بعض العائلات اضافة في الدخل ومزيداً من الاستقرار المعيشي .

بالاضافة الى ذلك فقد أولت الحكومة اهتماماً بالتعليم الصناعي ايضاً لخلو

البـــلاد من الايدي الفنية فأنشأت لذلك مدرسة ام درمان الصناعية عـــام ١٩٠٧ وذلك لمد البلاد بالمساعدين الفنيين في أعمال البناء والنجارة وغيرها . ثم انشئت في سنة ١٩٢٤ مدرسة صناعيـــة اخرى في عطبرة لتدريب البرادين والصناع في الاعمال التي تحتاج اليها السكة الحديدية في الصيانة . ثم ما لبث ان افتتحت مدرسة ثانوية للتجارة واخرى ثانوية صغرى للزراعة اثناء الحرب العالمية الثانية . ولم يهل عام ١٩٥٢ حتى ظهر المعهد الفني وعدد من المدارس الفنية التي زادت في عهد الحكم الوطني .

وكان الاساتذة المصريون هم أعمدة التعليم في المدارس الابتدائيـــة والثانوية بالكلية ولهم فضل كبير في تشجيع تلاميذهم على الاطلاع خارج ساحات المدارس ونهل الثقافة العربية .

اما التعليم في المديريات الجنوبية فقد اتخذت الحكومة نحوه سياسة مختلفـة عما جرى في المديريات الشماليـــة ، فهي لم تنشىء في اول الامر مدارس لتعليم الجنوبيين وتركت ذلك للارساليات تقوم به وفق رغبتها . واستمرت الارساليات المسيحية من كاثوليكية وبروتستانتية تسيطر على التعليم هناك حتى سنة ١٩٢٦ حين رأت الحكومة ان تعطي الأمر عناية اكبر لاسباب لا تخلو من ان تكون سياسية . فقد رأت الحكومـة ان بعض المثقفين من السودانيين الشماليين والجنوبيين الذين نشأوا وتعلموا في الشمال قد بدأت ميولهم تتجه نحو مصر كما حدث في جمعية اللواء الأبيض . وهنا خطت الحكومة خطوة نحو الاحتفاظ بجزء من السودان في حالة اضطرارها الى اخلاء الجزء الشمالي . ورغبت في ربط السودان الجنوبي بيوغندا والكونغو . وفي سنة ١٩٢٨ عقدت ادارة الحكم الثنائي مؤتمراً في الرجـــاف حضره ممثلون عن حكومـــة يوغنده والكونغو البلجيكي والسودان وجمعيـــة الارساليات التبشيرية في الاقطار الثلاثة[١] وحضره البروفسور وسترمان من

---

(١) ماكمايل : السودان الانجليزي المصري .

معهد اللغات والثقافة الافريقية . وكانت مديرية بحر الغزال ومنقلة قد وضعت تحت اشراف رئاسة بطريركية الارسالية في شمال يوغندة عام ١٩٢٦ . وكانت أهم مقررات الاجتماع هي توحيد حروف الكتابة بين تلك الاقطـــار وجنوب السودان كما نظر في موضوع الكتب المدرسية والأجرومية باعتبار استبعاد اللغة العربية امر مفروغ منه . وكانت هذه الخطوة التي اتخذها البريطانيون فيما يخص التعليم في الجنوب من المسائل التي أثارت الخواطر في الشمال ، وأضعفت ثقة أهله في نوايا الانجليز نحو وحدة البلاد . ولم يغير الانجليز من خططهم تلك الا في سنة ١٩٤٨ أي بعـــد سنتين من مؤتمر جوبا الذي ضم عدداً من المندوبين الشماليين والجنوبيين ، والذي قررت فيه الاغلبية الجنوبية رغبتها الاكيـدة في المحافظة على وحدة السودان بكامل حدوده الجغرافيـة[1] . أما في الفترة بين سنة ١٩٢٨ و ١٩٤٨ فقد عمد الانجليز الى تنفيذ سياستهم الانفصالية ودفعوا للارساليـات إعانات سنوية كبيرة كي يتولوا التعليم في الجنوب . وكانت الارساليـــات تعلم اللهجات المحلية بالأحرف الرومانية مع قراءة الانجيل وقليل من اللغة الانجليزية . واتسعت بذلك الشقة بين التعليم في الشمال والآخر في الجنوب ولم يجتمعا إلا بعد الحركات الوطنية العنيفة في الشمال كما سيجيء ، فقرر الانجليز تعليم اللغة العربية في الجنوب وارسال التلاميذ الذين يتممون تعليمهم الثانوي الى الكلية الجامعيـــة بالخرطوم بدلاً من كلية ماكريري في يوغنده تمشياً مع رغبة السودانيين الجنوبيين . ولكن التعليم في الجنوب كان آنذاك خطوات بعيدة وراء الشمال الذي هو ايضاً لم يجد ما يصبو اليه . واستمر التعليم في الجنوب في ايدي الارساليـات حتى استقلت البلاد وعندها أعلنت جمهورية السودان الفتية ان التعليم في البلاد من مسؤولياتها وأعفت منه الارساليات وتولت تطويره في عام ١٩٥٧ .

شعر السودانيون بأهمية التعليم لأبنائهم ووجدوا أن المدارس الحكوميـــة

---

(١) مقال للوزير الجنوبي السابق بوث ديوي في جريدة الرأي العام ١٩٦٤ .

الابتدائية التي اصبحت المدارس الوسطى فيما بعد لا تفي بحاجة البلاد والرغبة الملحة في نهـــل العرفان ، لذلك أخذ بعض المواطنين يعمل على انشاء مدارس أهلية لسد بعض الحاجة ، وكانت اولى المدارس هي المدرسة الاهلية بأمدرمان والتي قبل ان تكون مؤسسة تعليمية كانت نصراً قومياً ووعياً سياسياً بين المثقفين السودانيين ، وكان شعورهم بإنشائها عظيماً وخلد افتتاحها أحد شعرائهم [١] وذلك في سنة ١٩٢٧ .

نشطت حركة التعليم الاهلي بعد قيام مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٨ وانتشرت المدارس الاهلية الوسطى في اكثر المدن السودانية حتى بلغ عددها في عام ١٩٥٦ أي عند اعلان استقلال السودان ٧١ مدرسة وسطى . وفي هذا الوقت كان عدد المدارس الوسطى الحكومية التي أنشأها الحكم الثنائي قد بلغ ٣٣ . لكن هذه المدارس ما لبثت ان ضعفت مالياً بالرغم من إغانة وزارة المعارف لها . كذلك شعر المدرسون بكثير من عدم الاستقرار لقلة الضمانات في الخدمة المستديمـــة ، وأخيراً رأت الحكومة ان تضمها بمدرسيها اليها بعد موافقة لجـــان إدارتهـــا ، وانضم معظمها الى وزارة المعارف باستثناء ١٩ مدرسة استمرت تعمل كمدارس خاصة مع تلقي الإعانات من الوزارة . ثم افتتحت ٢٠ مدرسة وسطى أهليـة تتلقى الاعانات من حكومة العهد الوطني . وتجدر الاشارة هنا الى نظـام السلم المدرسي المتخذ في السودان وهي عبارة عن أربـع سنوات للمدارس الأوليـة ، وأربـع للمدرسة الوسطى حيث يبدأ في تعلم اللغة الانجليزية ثم تجيء مرحـــلة الثانوي في أربـع سنوات ايضاً تنتهي بامتحان الشهادة المدرسية السودانية المعادلة لشهادة كمبردج المدرسية .

ومنذ افتتاح كلية غردون التذكارية عام ١٩٠٢ تطورت حتى أضحت مدرسة ثانوية لإعداد موظفي الدولة ، ولم يزد في عهد الحكم الثنائي عدد المدارس الثانوية

---

(١) ديوان الفجر الصادق لعبد الله عبد الرحمن .

الا في سنة ١٩٤٦ حين فتحت مدرسة ثانية ، ثم في سنة ١٩٤٩ حين أنشئت مدرسة ثالثة، حتى اذا تسلم مقاليد البلاد أبناؤها زادوا في عدد المدارس الثانوية حتى أضحت تزيد على العشرين في عام ١٩٥٨ وذلك في الشمال والجنوب .

في سنة ١٩٣٧ شهد السودان تغييراً ملحوظاً في السياسة التعليمية بالكلية فقد عين سكوت مديراً لكلية غردون التذكارية فوجدها كلية يسيطر عليها النظام الحربي الرهيب مع بعض تعسف المدارس الخاصة البريطانية ذات الصرامة. وشعر سكوت بأنه ليس في حقل تربوي يعنى بالتربية والتعليم كما يعنى بالنظام والعقاب . وكانت العلاقات بين الأساتذة البريطانيين والسودانيين تخلو من روح الزمالة، ولكن سكوت بذر بذور حب النقاش وعدم القبول بالشيء الا بالاقناع، وبتجريد الأساتذة البريطانيين من استعلائهم [١] . وكان عهده بداية ثورة فكرية جامحة في البلاد سرعان ما انتشرت بين الشباب المثقفين .

وبينما كان سكوت يجري تعاليمه في الكلية كان كل من قريفثس عميد معهد التربية ونائبه عبد الرحمن علي طه ويعاونهم مكي عباس يعلمون النظم الديمقراطية في المدارس الوسطى وينشئون فيها حكومات ديمقراطية لتسيير جميع المدارس. ولما أشرف التعليم في السودان على نهاية أعوام الحرب الثانية كان قد أعد شباباً يؤمن بالفكر والحرية والديمقراطية بالاضافة الى العلوم والمعارف ، وكانت لتلك التعاليم الجديدة أثرها في الحركة الوطنية فيما بعد .

رأت الحكومة ان تعيد النظر في سياستها التعليمية في البلاد فدعت الى السودان دي لاوار في لجنة لدراسة الموقف التعليمي ، وكان من أهم ما جاء في

---

(١) احتج أحد الأساتذة البريطانيين لأن أحد زملائه السودانيين دخل عليه وسيجارته في يده ، وأراد منعه من تدخينها بمكتبه . فثار عليه السوداني ووقف زملاؤه صفاً قوياً ، ثم أجبر سكوت ذلك الاستاذ البريطاني على الاعتذار لزميله السوداني .

تقريره هو ان توقف الحكومة التعليم الوظائفي الذي انتهجته لتخريج موظفين من الكلية ، وان تتجه الى التعليم العام ثم العمل على انشاء تعليم بعد الثانوي . ونتيجة لتقرير تلك اللجنة أدخل نظام الامتحان لشهادة كمبردج سنة ١٩٣٨ وفتحت المدارس العليا من علوم وآداب وبيطرة وزراعة وهندسة كانت هي النواة لجامعة الخرطوم فيما بعد ، اما كلية الطب فقد تم افتتاحها في سنة ١٩٢٦ وهي أولى المدارس العالية التي أنشئت في البلاد .

أما معهد التربية ببخت الرضا فقد أنشىء أساساً لاعداد مدرسين للمدارس الأولية ، وكان ينتظر منهم ان يعملوا في القرى عند التوسع في التعليم ، وهناك سيواجهون حياة أقسى من حياة المدن ، وكانت بخت الرضا تعدهم للافادة من ظروف القرية بقدر الامكان في سبيل نجاح مهمتهم ، كما كان القبول في المعهد بحسب المديريات والمناطق حتى يعمل كل مدرس في منطقته بعد تدريبه . ولكن عندما زاد عدد المدارس الأولية أصبح في الامكان قبول كل من يجد الطريق في المعهد وفي أترابه من المعاهد الاخرى . وعندما تقررت سياسة إدخال اللغة العربية في الجنوب تم انشاء معهد مريدي للتربية لاعداد المدرسين الجنوبيين لتدريس اللغة العربية لأبناء الجنوب .

بالاضافة الى معهد مريدي فقد كانت هناك مدرسة ثانوية لأبناء الجنوب الذين اصبح في امكانهم بعد حصولهم على الشهادة ان يلتحقوا بكلية الخرطوم الجامعية . وبدأت الكلية الجامعية تستوعب ابناء السودان في كل اقسامها ليحصلوا على درجات جامعة لندن حتى أضحت جامعة مستقلة لها نفس المستوى العلمي لجامعة لندن وفيها كل الكليات .

وهكذا نشأ التعليم الحديث في السودان وتلك خطوات تطوره ، وقد حقق الأهداف التي كان الحكم الثنائي يوجه سياسته نحوها فأعطى للبلاد نخبة من الموظفين كانوا حريصين على تقدير المسؤوليات التي ألقيت عليهم كما كانوا أكفاء

كموظفين من الدرجة الثانية ، ونجحت الحكومة في تدريبهم . ولما ازداد عددهم توقفت الحكومة عن التعليم المهني واتجهت الى التعليم العام وأوصلته الى المستوى الجامعي . وكانت الحكومة تواجه ضغط الرأي العام السوداني كما واجهت صعوبة الحصول على المال ، وأخذ على الحكومة أنها لم تتجاوب مع الأهلين في توسيع التعليم بالقدر اللازم ، كما أشار مستشارو وزارة المستعمرات البريطانية في تقدم لسير التعليم في السودان بان المسؤولين فيه قد اهتموا بالنوع والمستوى ولم يهتموا كثيراً بالكمية والعدد . ومن الواضح ان مستوى التعليم في السودان قد وصل بارشاد البريطانيين الى المستوى الجامعي المرموق لكنه كان قليلاً جداً . ونهل السودانيون منه ولكن لم يرتو غليلهم بالرغم من البعثات التي ارسلت الى انجلترا ومن قبلها الى بيروت ، ولذلك فقد كانوا يشعرون بأن أبناءهم محرومون من التعليم . والحقيقة فان الجهود التي بذلت لم تكن قليلة لما انها لم تحقق ما كانت تصبو اليه العقول والقلوب . وكانت المحاولات البريطانية لسلخ الجنوب من الشمال بارزة في الخطوات الخاصة بالتعليم بابعاد أبنائه عن الشماليين بارسالهم الى ماكرري في يوغندة وعدم مساعدتهم على تعلم اللغة العربية مع ان اللغة المألوفة بين القبائل الجنوبية هي اللغة العربية المكسرة[١] وهي لغة التفاهم بينهم .

---

(١) مكي عباس : مسألة السودان .

١٦

الانتفاضات الوطنية (١٨٩٨ - ١٩٥٢)

« ... ويمكن ان يقال بشيء من التأكيد ان مستقبل السودان يعتمد على التيارات الفكرية السياسية في بريطانيا أكثر مما يعتمد على أية أحداث تتعلق بالسودان » .

السير ماكمايكل سنة ١٩٣٣

سقط السودان مثخن الجراح ، فاقد القوة ، ضعيف القدرة امـــام سطوة الأسلحة البريطانية الفتاكة في كرري وفي النخيـلة وفي ام دويكرات . وكانت تلك المعارك الثلاث قد ألحقت الدمار بالقدرة السودانية التي استكانت بعدهـا لسلطان القوة والجبروت .

لكن ما لبثت ذكريات الاستقـــلال ، والعيش تحت ظل الاحكام الشرعية الاسلامية ، والانضواء تحت راية المهدية تعتمـــل في نفوس بعض السودانيين فينفجرون في ثورة جامحة ما تلبث ان تخمدها المدافع الر شاشا .

وكانت اولى المحاولات لاعادة الحياة الاستقلالية في بعض النفوس ما لجأ اليه الخليفة شريف وبعض أبناء المهدي الصبيان وهما الفاضل والبشري المهدي بعـد ان استسلموا للحكم الثنائي وذلك بعد واقعة كرري . وكان كتشنر حريصاً على ان لا تقوم قائمة للمهدي او لتعاليمه ، وما لبث ان بلغت السلطات أنباء تفيد

بأن الخليفة شريف وأبناء المهدي ما زالوا يتلقون راتب المهدي كما كانوا يفعلون في المهدية. وقبل ان يحقق المسؤول البريطاني في الامر أسرع الى مقر الخليفة شريف ورفاقه وسلط عليهم رصاص البنادق وقتلهم في الحال دون محاكمة، وقد استقبلوا الموت برباطة جأش وصبر، ولم ينج من ذويهم الا عبد الرحمن بن المهدي الذي لم يبلغ الخامسة عشرة بعد وكان يشاهد قتل اخوانه. وقوبلت تلك المجزرة بامتعاض شديد في البلاد ولكن لم يستطع السودانيون عمل شيء أمام القوة العسكرية المتفوقة عليهم فأذعنوا صاغرين.

لم تسكت تلك الرصاصات الالسن والقلوب لأن بعض الانتفاضات أعقبت مقتل اولئك الشهداء. لكن الملاحظ في تلك الحركات انها كانت ذات طابع فردي محلي ولم تشمل تنظيماً دقيقاً كتنظيم المهدي قبيل ثورته، وكأنما كانت تلك الانتفاضات تعبيراً عن رغبتها في حكم اسلامي مكان الحكم الثنائي. وفي سنة ١٩٠٣ قام احد الفقهاء المستوطنين وهو محمد الامين البرناوي بانتفاضة ادعى فيها المهدية في شرق مديرية كردفان. واستجاب له عدد قليل ولكن قبل ان يستفحل امره ألقت السلطات القبض عليه وأعدمته شنقاً في الحال وبذلك انتهت مهديته.

كانت فكرة المهدية وظهور النبي عيسى طاغية في نفوس عدد من الناس الذين كانوا يبحثون عن متنفس لهم بعد ما حل بهم، وكان من هؤلاء رجل يدعى محمد ود آدم من سكان سنجة، فقد ادعى انه النبي عيسى وثار مع اتباعه على الحكومة، واستطاع ان يقتل احد ضباط البوليس، والتحم ومن معه بالشرطة الذين أطلقوا الرصاص على الثائرين وقتل محمد في أثناء المعركة برصاصة احد الجند، وانتهت معركته بهذه المأساة.

بقيت بعض القلوب المؤمنة بالمهدي دامية ومن بينها قلب عبد القادر محمد إمام ود حبوبة احد المخلصين للمهدية والمؤمنين بها ايماناً قوياً. وكان ود حبوبة

ينمي على الناس وعلى اهله استكانتهم للحكم الثنائي وعدم الاستمرار في الجهاد في سبيل الله . وكان من ابناء قبيلة الحلاوين التي تسكن في ارض الجزيرة حيث بدأت الحكومة تنظر في أمر استئجار الاراضي من مالكيها لاستغلالها في زراعة القطن عندما يتم العمل في مشروع الجزيرة . وشعر ود حبوبة بأن الحكومة قد ظلمته في تسوية ارضه وأعطته أقل مما يستحق، ولم يكن ذلك غريباً في نظره إذ ماذا يمكن ان تفعل حكومة غير اسلامية سوى نشر الظلم في البلاد وخاصة ظلم المؤمنين بالمهدية . وكان ود حبوبة قد بدأ في تأليف قلوب الناس له ففتح أبواب داره يقبل الضيف وينفق على المريدين من الانصار والساخطين على الحكومة .

علم المفتش الانجليزي بما يقوم به ود حبوبة من نشاط مريب ، فأرسل اليه يستدعيه الى مكتبه ، ولكن عبد القادر ود حبوبة لم يعر الامر التفاتاً ، فجاء المفتش والمأمور الى مقره ، ولم يقبل أنصار ود حبوبة هذا التحدي فثاروا على المفتش والمأمور وقتلوهما فأرسلت الحكومة جماعة فيهم ضابط انجليزي وبعض الضباط المصريين والجنود فهجم عليهم ود حبوبة وأنصاره وقضوا عليهم ، ولكن ما لبثت الحكومة أن اتخذت اجراءات اكثر فعالية وألقت القبض على ود حبوبة وأعدمته شنقاً كما حطمت كل مريديه وانصاره . وهكذا خمدت ثورة ود حبوبة بعد ان التحمت مع السلطات اكثر من مرة وذلك في مايو ١٩٠٨ .

ويبدو أن حركة ود حبوبة لم تكن سطحية الجذور لأن احد أتباعه وقد كان يسكن في غرب السودان بجبال تقلي ادعى انه النبي عيسى جاء ليطهر البلاد ، غير ان الحكومة كانت له بالمرصاد وسرعان ما قتلته قبل ان يستفحل الامر في سنة ١٩١٢ .

السلطان علي دينار :

اما بعد ذلك فقد كانت الحركة المناوئة للحكومة تنمو وتترعرع في مديرية

دارفور بغرب السودان تلك المديرية التي استعصت على المصريين حتى فتحها الزبير ثم اصبحت بعد ذلك احدى مديريات السودان حتى ايام المهدية. وفي عهد الخليفة عبد الله التعايشي كان علي دينار مسؤولاً عن إدارة شؤون دارفور باسم الخليفة عبد الله ثم صار الخليفة يشك في ولائه للمهدية ويخشى ان يستقل بالبلاد خاصة وهو الوريث الشرعي لسلاطين دارفور . وطلب الخليفة من علي دينار ان يمثل الى ام درمان ففعل، وهناك أبقاه الخليفة ملازماً له حتى يقصيه من دارفور فلا يشكل خطراً على وحدة الدولة .

صاحب علي دينار الخليفة عبد الله حتى خرج المقاتلون السودانيون الى كرري لوقف الزحف الانجليزي المصري ، وانتهز فرصة اختلاط الحابل بالنابل فشد الرحال الى ام درمان بعدد قليل من رجاله ، وما لبث ان لحق به آخرون من الفور حتى بلغ عددهم الألفين حين دخل الفاشر واستولى على السلطة ، ولكن ما لبث ان قدم الى الفاشر ابراهيم علي وهو من العائلة المالكة في دارفور ، وكان ابراهيم قد وقع اسيراً في يد كتشنر بعد واقعة أتبرة ، وسار بموافقة السردار الى دارفور على أمل ان يحكمها. وهناك وجد ان موقف علي دينار أقوى من موقفه، فحاول الحصول على التأييد الفعال من كتشنر. واتصل علي دينار بكتشنر مبدياً رغبته في ان يدفع للحكومة جزية سنوية ويرفع العلمين المصري والانجليزي على ألا تتدخل الحكومة في شؤون مملكته الداخلية، وقبلت الحكومة بهذا الاجراء.

كثرت الصعوبات التي واجهت علي دينار في مملكته ووجد أنه محاط بعدد من المشكلات والاطماع التي تهدده ، فالحكومة الثنائية في الخرطوم تريد ان تشرف على ادارته وهو يتباعد عنها ولا يعطيها الفرصة لذلك . وكان السنوسي يطلب منه ان يسمح لأتباعه ببناء الزوايا في السلطنة ، ولكن علي دينار كان يخشى تطور نفوذ السنوسي الديني الى سياسي ولهذا فلم يسمح بمثل ذلك النشاط. وكانت فرنسا تهدد حدوده من الغرب وتنوي ضم بعض الأراضي التي كان يراها من أجزاء سلطنته ، وعرف ان الدفاع عن ممتلكاته ضد الأوروبيين يحتاج الى

أسلحة نارية ، فطلب من الانجليز ان يرسلوا له البنادق فأرسلوا اليه واحدة هدية. وكان السلطان يرى عدم خضوع قبائل الرزيقات لسلطته خروجاً عليه يجب أن يقابل بالشدة والحزم ، ولكن الخرطوم تمنعه من التعدي على الرعايا ، وأصبح يرى ان الحكم الثنائي يؤازر اعداءه . وكان علي يطمع في ان يمتد سلطانه ليشمل مديرية كردفان ايضاً ليعيد للسلطنة حدودها التاريخية .

ولما قامت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ كان استياء علي دينار من الحكم الثنائي قد بلغ حداً بعيداً ، واتصل به القواد الاتراك نوري باشا وأنور باشا ، وأصبح يتوقع الامدادات التركية عبر ليبيا ليجاهد مع خليفة المسلمين في حرب دينية ضد الدول المسيحية وخاصة الانجليز الذين منعوا اهل سلطنته من الذهاب الى الحج ، وكان يعد العدة وينتظر الاسلحة التركية لينهي الحكم الثنائي في جميع اجزاء السودان ، ويخرج الانجليز الذين حاصروا مملكته من كل مكان .

اخفق الاتراك في ايصال السلاح للسلطان ، وكان حماس السلطان لخليفة الاسلام التركي من جهة ورغبته في تخليص السودان من قبضة الانجليز من جهة اخرى لها الاثر الكبير في مجابهة الحكومة بالعدوان .

علمت الحكومة بنوايا علي دينار ورأت ان الساعة قد أتت لضم سلطنته نهائياً لبقية اجزاء السودان لعدة اسباب : فهي لم تشأ ان تنتظر ان ينقل السلطان الحرب الى الأراضي السودانية اذ قد يسبب مثل هذا الهجوم ثورات ومضاعفات في الاجزاء المحكومة ، وكانت الحكومة منذ سنة ١٩١٢ قد أوصلت الخط الحديدي الى الابيض فلم يبق بين الفاشر والخط الحديدي سوى ٤٠٠ ميل تقريباً ، وكانت الحكومة تشعر ايضاً بميل علي دينار الى خليفة المسلمين العثماني ، وبالاضافة الى ذلك خشيت من التوغل الفرنسي على حساب دارفور لان الاتفاقية الانجليزية الفرنسية لسنة ١٨٩٩ لم توضح في نصوصها الحدود بين النفوذين وضوحاً تاماً ، ولهذه الاسباب مجتمعة خرج القائد الانجليزي

هدلستون من الابيض في ٣٠٠٠ جندي ومعهم المدافع الرشاشة لقتال علي دينار .

كان الصدام بين الفريقين أشبه ما يكون بواقعة كرري بصورة مصغرة ، فالسلطان لديه ٤٠٠٠ جندي وفارس سلاحهم السيوف وقليل من البنادق القديمة وكثير من الحماس ، فهجموا على أعدائهم ، ولكن الرصاص حصدهم وهم على بعد عشرات الامتار من مراكز هدلستون ، وفقدوا اكثر من ٤٠٠ وانهزم الباقون في واقعة برنجية على بعد اثني عشر ميلاً من الفاشر في ٢٢ مايو ١٩١٦ . ورأى السلطان انه خسر المعركة فتقهقر الى جبل مرة يروم الاعتصام ومزيداً من الاستعداد . لكن ما لبث ان تخلى كثير من رجاله عنه حتى اصبح في قلة منهم ، وانتهز هدلستون تلك الفرصة فهاجمه في مقره بالجبل . وفي أثناء الاشتباك أصيب السلطان علي دينار برصاصة طائشة قضت عليه ، وبذلك انتهت آخر مقاومة منظمة في السودان الذي أصبح في قبضة الحكم الثنائي من أقصاه الى أقصاه .

ولئن كان علي دينار ينوي طرد الانجليز والمصريين على أمل ان يستولي هو على الحكم ليخلف حكومة المهدية ويقيم حكومة اسلامية يشد أزرها الاتراك فقد انهارت آماله ولم يتجاوب معه السودانيون الذين كانوا تحت الحكم الثنائي لضعفهم مادياً من ناحية ، ولأنهم كانوا قد نعموا باستقرار وأمن منذ بداية القرن العشرين من ناحية اخرى ، ولم يشعروا بأهمية علي دينار .

هكذا انتهت محاولات السلطان علي دينار للاستيلاء على الحكم في البلاد ، وتعتبر تلك المحاولة نهاية الثورات الدينية التي انصبغت بها الحركات القومية في السودان إذ أنه منذ ان استولى محمد علي باشا على السودان الى مقتل السلطان علي دينار كانت نزعة المقاومة للحكم الاجنبي منصبغة بالناحية الدينيـة ، ولم يظهر الشعور القومي السوداني الا عند نجاح محمد احمد المهدي الذي كانت أهم اسباب

ثورته دينية . وبعد اخماد ثورة السلطان علي دينار فان البلاد لم تدثر بغضها للحكم الاجنبي بستار الدين بعد ذلك بل ظهرت القوى الوطنية الحديثة بأجلى معانيها في مقاومتها للحكم الثنائي .

مطالب الأمة السودانية ١٩٢٢ :

هذا التعبير الحديث لم يعرفه السودانيون من قبل وقد جاء نتيجة انصهار السودان في بوتقة العالم الحديث وأخذه من سبل الحضارة والقيم الانسانية بنصيب وافر ، ومنذ ان اندلعت نار الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ بدأ السودانيون يلتمسون الاخبار الصادقة ، والكفاح العالمي ، وساعدهم على ذلك نشر اخبار الحرب والانتصارات والاندحارات في جريدة السودان التي كان يصدرها ثابت اللبناني [١] في الخرطوم . ووجدت الجريدة سنداً من الحكم الثنائي وقراء من السودانيين ، وبالاضافة الى ذلك فان التعليم الذي أفاضه الأساتذة المصريون على السودان لم يكن دون تجاوب مع الأبناء الذين تلقوه بصدور واعية . وقرأ السودانيون باللغة العربية والانجليزية التاريخ العالمي فكان طبيعياً ان يتفاعلوا بدروسه وعظاته وفلسفته من حيث يدري البريطانيون ولا يدرون ، ومن حيث لم يشعر المصريون ولا يتوقعون .

كان اول رواد القومية السودانية العصرية هو الضابط السوداني علي عبد اللطيف ، وهو فتى من أبوين جنوبيين ينتميان الى قبيلة الدينكا ، ولد في حلفا وشب في الخرطوم، ونهل من مدارسها وكليتها الحربية،وقاده ذكاؤه الى الشعور بمسؤولية نشر الوعي القومي في أبناء بلده دون تمييز بين شماله وجنوبه . وكان علي عبد اللطيف ضابطاً في الجيش المصري [٢] تحت إدارة كبار الضباط البريطانيين.

---

(١) توفي بلبنان سنة ١٩٦٤ .

(٢) كان كل الجيش والقوات في السودان تابعة للجيش المصري .

والتقى بضابط بريطاني فطلب منه الأخير ان يحييه ولكن علياً رفض واعتبر طلب البريطاني إساءة للكرامة السودانية وامتهاناً لها ، ومنذ ذلك الحين أخذ علي على عاتقه ان يحارب الاستعمار في بلاده حتى لا تهان كرامة سوداني .

آمن علي عبد اللطيف بحقوق أمته ، فما كان منه الا ان حاول نشر بيانه على الناس في مايو ١٩٢٢ وأسماه «مطالب الأمة السودانية ». وأشار فيه بوجوب زيادة المدارس ، ووجه انتقاده لمشروع الجزيرة وطالب بنزع الاحتكار الحكومي للسكر . وهزت هذه المطالب الحكم الثنائي ، وما كان منهم الا ان ألقوا القبض على الضابط وحكموا عليه بالسجن حيث بقي فيه عاماً ، وما ان خرج من السجن في ابريل ١٩٢٣ حتى بدأ في تنظيم الكفاح القومي في شكل جمعية شبه سرية أطلق عليها جمعية اللواء الابيض في ربيع عام ١٩٢٤ ، واتخذ لها شعاراً هو علم ابيض يجري عليه النيل ، ووضع في أحد أركانه العلم المصري وكتب عليه الى الأمام. وانضوى تحت اللواء الابيض عدد من الضباط السودانيين وغيرهم من المدنيين والخريجين في كلية غردون وبعض الموظفين في الحكومة وخاصة من موظفي التلغراف الذين كانوا ينقلون اخبار الجمعية والكفاح سراً بين بلدة واخرى على مفاتيح التلغراف وأسلاكه . وكان أهم نداء للجمعية هو وحدة وادي النيل بين السودان ومصر . وظن البريطانيون ان الحركة قامت بإيعاز من مصر ولم تظهر لهم الحقيقة الا فيما بعد حين شعروا بأن السودانيين يريدون اخراجهم من السودان ومصر على السواء ، لنيل حريتهم ، واسترداد كرامتهم ، وتحقيق أمانيهم القومية .

نظمت الجمعية عدداً كبيراً من المظاهرات السلمية التي جابت شوارع العاصمة والمدن الكبيرة في سائر انحاء السودان . وأسرع الانجليز في القاء القبض على زعماء الحركة وكان في طليعتهم في العاصمة علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين[١]

---

(١) توفي بالسجن سنة ١٩٣٢ .

وفي بورتسودان سجن علي ملاسي وأخمدت الحركة في يوليو ١٩٢٤ بوضع أكثر أعضاء الجمعية في السجون ، ومراقبة الباقين وتشريدهم . وكان تجاوب الوطنيين في تلك المظاهرات عظيماً . واشتركوا فيها قلبياً مما أظهر قوة الوعي القومي في السودان وخاصة في مدنه .

غمرت طلبة الكلية الحربية بالخرطوم نشوة القومية التي عمت الطبقات المتعلمة في البلاد والتي أسهمت في التعبير عما يجيش بصدرها بتلك المظاهرات السلمية ، فرأى الطلبة الحربيون أن يشتركوا مع المواطنين في التعبير عما يجيش بصدورهم. وما فرغت المحاكم من النطق بأحكام السجن على زعماء الحركة القومية حتى قام الطلاب الحربيون بمظاهرة سلمية مسلحة وجابوا شوارع الخرطوم يهتفون بسقوط المستعمرين ومنادين بالحرية . وحاول الضباط والجنود البريطانيون اعتراضهم ولكن خافوا الاصطدام بهم فتريثوا حتى إذا ما عادوا الى ثكناتهم أوفدت الحكومة اليهم أولياء أمورهم لتسليم السلاح وخادعتهم حتى اذا استسلموا قدمتهم الى محكمة عسكرية كان بعض اعضائها من كبار الضباط المصريين وذلك امعاناً في النكاية بمن وقفوا من الطلاب الحربيين في سبيل مصر والوحدة ، ثم زجت بهم في السجون وأساءت معاملتهم كما فعلت بزملائهم من أعضاء جمعية اللواء الابيض. وفي هذه المرة أعيدت محاكمة علي عبد اللطيف وحكم عليه بعشر سنوات سجناً بدل الثلاث[1] سنوات ، وهدأت البلاد ولكن الى حين .

في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ أذاع البريطانيون في مصر ان السير لي ستاك حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري أصيب برصاص بعض المصريين في القاهرة، وأنه اغتيل، واكفهر جو العلاقات المصرية البريطانية. ووجه المعتمد البريطاني بمصر اللورد اللنبي انذاراً الى سعد زغلول رئيس وزراء مصر يطلب منه ان تدفع مصر تعويضاً قدره نصف مليون جنيه ، وتأمر ضباطها وجنودها من

---

(١) خرج من السجن سنة ١٩٣٨ وهو مصاب بارتجاج في المخ ، وتوفي سنة ١٩٤٨ بمصر.

المصريين بالانسحاب من السودان في ظرف أربع وعشرين ساعة، وطلب إخلاء جميع الموظفين المصريين من الاراضي السودانية ، وأن يكون لحكومة السودان الحق في زراعة أية مساحة تريدها من مياه النيـــل دون التقيد بحق مصر في استخدام تلك المياه. وتحت التهديدات البريطانية اضطرت حكومة سعد زغلول الى الاستقالة ، وخلفتها وزارة أخرى دفعت الغرامة ، وأمرت بسحب الجنود والضباط المصريين من كل الاراضي السودانية .

لم يصدق السودانيون وخاصة ضباط الجيش منهم ان بريطانيا تستطيع بمثل هذه الانتهازية الانفراد بالسودان والتخلص من مصر. وكان الضباط السودانيون على اتصال بالضباط المصريين وقد وعدوا على قلتهم بالوقوف معهم ضد البريطانيين اذا مـــا اجبر البريطانيون المصريين على الانسحـــاب . وماج السجنـــاء السودانيون السياسيون ، واستولوا على السجن وأبدوا استعدادهم للنضـــال من أجل مصر والسودان ، ورفضت المدفعية المصرية تلقي الاوامر من البريطانيين لكي تعود ادراجها الى مصر . ولم تقبل الإذعان إلا لأمر صادر من ملك مصر . وتحرج الموقف في الخرطوم، ولكن ما لبثت ان وصلت الاوامر الصادرة من ملك مصر الى قواته المصرية بالسودان للانسحاب. وكانت مفاجأة مفجعة للسودانيين من عسكريين ومدنيين . وكان العسكريون السودانيون يقسمون يمين الولاء لملك مصر ، وبهذا فقد عقدوا العزم على الانضمام الى الفرق المصرية والانسحاب معها. وخرج بعض الضباط السودانيين من ثكناتهم فيهم عبد الفضيل الماظ ، وثابت عبد الرحيم ، وعلي البنا ، وحسن فضل المولى ، وسليمان محمد وبعض الجنـد وفي أيديهم مدافعهم الرشاشة وهم متوجهون الى معسكرات الجيش المصري، غير أن الجيش الانجليزي وقف لهم بالمرصاد ومنعهم مـــن الاستمرار في سيرهم ، ثم هددهم باطلاق الرصاص في الهواء، فما كان منهم إلا ان أطلقوا مدافعهم الرشاشة فوراً على جنود وضباط الجيش البريطاني، وصرعوا منهم اكثر من خمسائة قتيل في سرعة البرق ، وتحصنوا بالجداول واستمروا في إطلاق الرصاص دون أن

ينالهم أذى . واحتل عبد الفضيل الماظ المستشفى العسكري حيث اختطف ذخيرة لمدفعه ، وصار يشبع الجنود الانجليز برصاصه حتى ضاقوا به ذرعاً ، فرموا المستشفى العسكري برصاص المدافع حتى انهار بعبدالفضيل الذي استشهد ويده قابضة على مدفعه . ونفذت ذخيرة زملائه ، ولم يجدوا مزيداً منها ، كما أن القوات المصرية لم تشترك معهم في معركتهم ضد الانجليز فخرجوا من مكانهم وسلموا انفسهم ليستقبلوا الموت بشجاعة . وسرعان ما عقد الضباط البريطانيون محكمة عسكرية أدانت الابطال وحكمت على سليمان وحسن وثابت وعلي بالاعدام رمياً بالرصاص، ونفذ الاعدام في ثلاثة منهم وأبدل الاعدام بالتأبيد على أحدهم.

هكذا أسقطت حفنة من الضباط السودانيين الخرطوم يومين كاملين ولم يستسلموا الا بعد ان فرغت دخيرتهم ووجدوا أن القطارات قد نقلت آخر جندي مصري من السودان، وألحقت بهم المدنيين ، وأصبح البريطانيون ينعمون بفيء السودان دون اي تدخل من جانب مصر التي لم يبق لها من حقوقها في السودان غير العلم المصري ، واسمها في الخرط ، ورغبة بريطانيا في ان تعقد اتفاقية لمياه النيل غير مجحفة بمصر والتخلي عن تهديد اللورد اللنبي فيما يخص الزراعة بالسودان .

مع أن هذه الحركات السرية والاخرى العسكرية قد فشلت في اخراج الانجليز وفي توحيد وادي النيل إلا انها كانت خبرة ذات فائدة عظمى لتاريخ النضال السوداني فيما بعد. وكانت هناك عدة نتائج لهذه الانتفاضات منها ان اتهم الانجليز المصريين بتأليب وتحريض السودانيين ، ولذلك فقد رأوا ان يطردوا المصريين حتى يخلو لهم الجو ثم ان الانجليز بدأوا يفقدون الثقة في الطبقة السودانية المثقفة وناصبوها العداء على أنها ذات ميول خاصة نحو مصر ، وأقفلت حكومة السودان الكلية الحربية واعتبرتها مركزاً ثورياً خطراً، واستبدلت يمين ولاء الجيش الذي كان لملك مصر وجعلته للحاكم العام وبذلك قضت على النفوذ المصري الحربي في السودان. وإزاء هذه الاضطرابات المتتالية عمدت الحكومة الى سياسة

البطش والارهاب والقسوة لكي تدفن الشعور القومي في رمسه ، ونسيت أن من المستحيل محاربة الافكار ، وأن قتل الاشخاص لا يعني فناء الرأي . ولم تقنع الحكومة بمعاداة المثقفين السودانيين فحسب بل اتخذت طريقة لتقييد حريتهم ورأيهم وذلك بالعمل على توظيفهم في الخدمة المدنية حتى يصبحوا موظفين في الدولة فيمنعوا من اي نشاط سياسي بعكس ما اذا شقوا طريقهم في الاعمال الحرة . كذلك عمد الانجليز الى صنوف من الانتقام العجيب فجعلوا طلبة كلية غردون التذكارية مسؤولين عن كنس غرف داخلياتهم وتنظيم اسرتهم ، وحمل أكوام الرمال بعد الظهر ، كما أنها منعت تلاميذ المدارس الأولية من الجلوس في مقاعد واستبدلتها بالحصير ، بعد ان باعت المقاعد في كل المدارس بالمزاد العلني . ولكن هذه الاشياء علمت الشبيبة السودانية الخشونة والصبر والاعتماد على النفس والرغبة الاكيدة في بلوغ الاهداف السامية . ومنعت الصحافة المصرية من دخول السودان ووضعت العقوبات لكل من تضبط معه [1] .

وبخروج المصريين بدأ الانجليز يعملون على اضعاف الروابط بين شمال السودان وجنوبه فمهدت بعد ذلك لثقافة تبشيرية في جنوب السودان بعيداً عن اللغة العربية وما يمكن ان تحمله هذه اللغة من أساليب قومية وثورية . ووضع التعليم تحت اشراف الارساليات حتى يصبح الاختلاف في اللغة والدين والثقافة عظيما . ورأى الانجليز أنهم في حين لا يودون التعاون مع المثقفين أخذوا في تقريب زعماء القبائل الى الحكومة ومحاولة الحصول على تعضيدهم وابعادهم من العنصر المثقف . أما على الصعيد السوداني فقد زاد سخط المواطنين على الانجليز وتعسفهم وأوجسوا خيفة وريبة في نواياهم ، وأصيبوا بخيبة أمل لأن مصر الرسمية لم تسندهم في مظاهراتهم أو ثوراتهم بل سحبت قواتها من الاراضي السودانية دون تضحية ، واعتقد بعض السودانيين ان مصر آثرت بيعهم للانجليز على الصمود

---

(١) شبيكة : السودان المستقل ومختصر تاريخ السودان .

بجانبهم . وفوق هذا وذاك شعر السودانيون بأن الطريق الى الاستقلال طويل شاق لا يقام بفئة واحدة من فئات الشعب ، ولا في عاصمة البلاد فحسب ، ولا بحفنة من الضباط، ولكن بتعبئة الشعور العام، واستنفار المدن والقرى، وشحذ همم الارياف، وتوثيق عرى القومية بين أبناء البلاد ، وبالافادة من أخطاء الماضي ومن تجارب الآخرين في البلاد الاخرى وخاصة في الهند حيث يتحدى غاندي الامبراطورية البريطانية، وحيث نهرو وحزب المؤتمر وأعضاؤه ينظمون المقاومة الشعبية السلمية في الهند ضد بريطانيا وفي سبيل استقلال الهند .

مؤتمر الخريجين العام :

الخريجون في السودان هم أولئك النفر الذين تخرجوا في كلية غردون التذكارية بعد ان أتموا فيها دراستهم الثانوية . ولم يكن لهؤلاء الخريجين من شأن يربطهم إلا نادي الخريجين في ام درمان ، وهو النادي الذي زاره المسترسمسن مدير المعارف السودانية وقال فيه « ان هذا النادي سيلعب دوراً خالداً في تاريخ البلاد » . وكان سمسن يعرف ان التعليم أساس لكل نهضة قومية . ولكن النادي في اول ايامه لم يشترك في أي مسائل عامة تخص مستقبل البلاد بل كان منتدى اجتماعياً لأعضائه . وحاول بعض المثقفين من رجال المدن الاخرى عمل رابطة بين الاندية الاقليمية ونادي الخريجين بأم درمان في سبيل تقوية الاواصر والعلاقات ، وكتب محمد صالح ضرار وعبد القادر أوكير من مدينة بورتسودان اقتراحاً بذلك المعنى لنادي ام درمان سنة ١٩٣١ [١] . لكن هذا الاقتراح لم يأخذ طريقه العملي وان كان قد بقي يشغل الاذهان في كل مكان . ومنذ سنة ١٩٢٨ بدأت طلائع البعثات التعليمية التي أوفدتها مصلحة المعارف الى الجامعة

---

(١) احاديث اسماعيل الازهري الخاصة ١٩٣٨ لتلاميذه بالكلية .

الامريكية في بيروت تصل وتأخذ مقاعدها كأساتذة في الكلية . ولأول مرة يظفر السودان بتعليم خارج حدوده فجاءت البعثات وهي تحمل بين جوانبها رغبة في التنظيم والكفاح من اجل الاستقلال .

وبينما الصدور تختلج بهذه المشاعر اذ نكب السودان بالأزمة الاقتصادية العالمية كغيره من أقطار العالم، وفي سنة ١٩٣١ أصدرت الحكومة قراراً بتخفيض بداية مرتبات الخريجين حين تعيينهم وذلك من ثمانية جنيهات الى خمسة جنيهات ونصف ، ولكنها لم تخفض مرتبات البريطانيين الذين يتم تعيينهم . ولم يقبل طلاب الكلية هذا الاجحاف وطالبوا بالمساواة بين الموظفين السودانيين والبريطانيين من حيث التخفيض ، وأعلنوا بأن مشروع الحكومة إهانة للكرامة السودانية ولذلك فقد أضربوا عن الدراسة واعتصموا بداخلياتهم . وتوتر الجو في العاصمة ، وساند الخريجون الطلاب في مطلبهم ، وتدخل كبار السودانيين في الأمر واقنعوا الحكومة بضرورة زيادة المرتب . واخيراً تحت ضغط الاضراب والوساطة زادت الحكومة المرتب المبدئي الى ستة جنيهات ونصف ، وانفضت المشكلة بعد ان خلقت شعوراً قومياً قوياً .

كان أهم نتائج هذا الاضراب هو اتخاذ المشكلة طابعاً وطنياً ، وشعر الخريجون أن باتحادهم يستطيعون ان يكونوا قوة تنازع الحكومة سلطانها القوي، وبات أمراً مؤكداً ان مثل ذلك الاتحاد يجب ان يستمر ولكن تحت تنظيم دقيق رائده العقل قبل الحماس ، والتوعية قبل البذل حتى لا تذوب الجهود سريعاً .

ونشطت الجمعيات الادبية في العاصمة وفي المدن تلتقي على الادب والثقافة وتتصل بالسياسة العالمية والداخلية شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الافكار أكثر نشاطاً ورواجاً. وبرزت في الجمعية الادبية بنادي ود مدني فكرة تكوين مؤتمر يضم الخريجين الذين اتموا تعليمهم في المدارس السودانية ، وتكون أهم أهداف المؤتمر العمل على رفع شأن السودانيين . ووجدت الفكرة تأييداً حاراً في أوساط

نادي الخريجين بأم درمان وتم في سنة ١٩٣٧ تكوين اللجنة التنفيذية للمؤتمر . وكتب سكرتيرها اسماعيل الازهري خطاباً الى الحكومة في ٢ مايو ينبئها فيه بأنهم قد أقاموا المؤتمر بغرض رفع مستوى الشعب الاجتماعي وخدمة مصالح البلاد عامة والخريجين خاصة ، والتعاون مع الحكومة في مناقشة المسائل التي تهم البلاد .

رد السكرتير الاداري على مذكرة المؤتمر بأن الحكومة اخذت علماً بقيامه ، ولكنها تعتبره لا ينطق بلسان احد غير فئة الخريجين وأعضاء المؤتمر ، كما أنه ليس له الحق بالتكلم عن لسان فئات الشعب الأخرى . وكان لرد الحكومة أثره في المؤتمر اذ كان بعض أعضائه يرغبون في التعاون مع الحكومة بينما أظهرت هي شكها في نوايا المؤتمر والمثقفين ذلك الشك الذي ورثته منذ سنة ١٩٢٤ حين قامت جمعية اللواء الأبيض . وبالرغم من رد الحكومة الذي كان أشبه ما يكون باللطمة الا ان المؤتمر مضى في سبيله لتقوية بنيانه .

خطا المؤتمر خطواته بتؤدة وتفكير فقد كان كل أعضائه من موظفي الحكومة وهم بحسب نصوص القوانين غير مسموح لهم بالعمل السياسي . ولكن هدف المؤتمر الاعلى والسبب في قيامه هو استقلال البلاد ، بيد ان المؤتمر لم يشأ ان يعلن هذا الهدف صراحة بل أخذ جانب الحرص فذكر أهدافاً عامة يمكن ان تتدخل في السياسة عندما يبلغ أشده . ولكي يقوي المؤتمر مركزه في المدن والاقاليم البعيدة من العاصمة انشأ فروعاً ولجاناً في كثير من البلدان ، ووجدت عضويته اقبالاً عاماً من المتعلمين . وانصرف الى تأدية بعض الاعمال الاجتماعية مثل التعليم الاهلي وبناء المدارس وتعيين المدرسين لها ، واعتمد في المسائل المالية على التبرعات التي كان يجمعها من المواطنين .

علمت مصر بقيام المؤتمر وعجبت كيف سمح الانجليز في السودان بقيام مثل هذا النشاط ، ولما كان البريطانيون هم الذين سمحوا بانشائه فقد ارتاب فيه

المصريون وفي ثواياه نحو مصر . وهكذا كان موقف المؤتمر : الانجليز يظنونه صنيعة مصرية ، والمصريون يعتبرونه دسيسة انجليزية . وقد تعلم الانجليز منذ الاحداث الدامية في سنة ١٩٢٤ ألا يثقوا في الطبقة المتعلمة من السودانيين لان نزعاتهم السياسية كانت تميل الى مصر . غير انهم حسبوا أن هذه النزعة قد تلاشت تقريباً بعد خيبة الامل التي لقيها السودانيون في تلك السنة ، وتقديرهم الصحيح لموقف مصر الذي لم يسمح لها بالتدخل في السودان او مناصرة السودانيين الذين حفظوا لها الولاء ، ولذلك فقد أرادت ان تفتح صفحة جديدة مع المتعلمين مع مراقبتهم عن كثب ومحاولة استمالتهم لها .

وكان المصريون يرون في المؤتمر بذور شقاق بين مصر والسودان زرعها الانجليز لتغذية القومية السودانية ، وتحريض السودانيين ضد المصريين . ومما لا شك فيه ان الانجليز كانوا يتمنون مثل هذا الشقاق حتى لا تجد مصر موضعاً لقدم في السودان .

والصراع بين مصر وانجلترا في السودان كان بارزاً منذ التدخل البريطاني في الشؤون المصرية أواخر القرن التاسع عشر ، فبريطانيا تريد ان تزرع سهول السودان بالقطن ليغزل وينسج في لانكشير ، ومصر كانت تريد ان تؤمن مصالحها المائية في نهر النيل ، وتخشى ان تعيد بريطانيا تهديداتها التي تقدم بها اللورد اللنبي عام ١٩٢٤ وذلك بمطالبة مصر باعطاء الحق لحكومة السودان كي تزرع اية مساحات تريد من الاراضي دون قيد او شرط . هذه هي المشكلة الرئيسية التي كانت تتصارع فيها الدولتان الحاكمتان . ومن ثم كانت كل منهما تود الاحتفاظ بصداقة السودانيين او ولائهم او اخضاعهم بكل الطرق التي يمكن اتخاذها .

ومن الطبيعي ان السودانيين كانوا يتوجسون خيفة من الحكام الفعليين على البلاد وهم البريطانيون ، وكانوا يعملون على إثارة الشريك الأضعف في الحكم

أي مصر لمناصرتهم . كما كان هناك فريق آخر من السودانيين يرى ان المصالح المصرية في السودان أبدية لا يمكن ان تزول ، وان مصر قريبة قد تقوى في أي وقت ولذلك فانه قبل نوعاً من المساندة البريطانيـــة على اساس ان الاستعمار البريطاني سيزول حتماً في يوم من الايام ، ويرجع البريطانيون الى جزيرتهم ، اما المصالح المصرية الحيوية فباقية خالدة .

هذه هي الافكار المتضاربة في رؤوس السودانيين المثقفين وبالرغم من ذلك فانهم استطاعوا ان يجتمعوا في صعيد واحد مؤسسين المؤتمر ، واخذوا يعملون على تقويته بشتى الوسائل متناسين الخصومة في تلك المرحلة ، واصبح واجب المؤتمر الاكبر هو إيقاظ السودانيـين في كل قرية وكل بادية وكل مدينة والنهوض بهم والسمي الى حياة الاستقلال الكريمة .

وفي سنة ١٩٤٠ زار رئيس الوزراء المصري علي ماهر السودان ، وكان اول رئيس وزراء لمصر يزور السودان وهو في الحكم ، وتفقد كثيراً من البلاد . وانتهز المؤتمر الفرصة فدعاه الى حفل ، وأوضحوا اليه أهداف المؤتمر ما ظهر منها وما يكاد يظهر ، وشعر علي ماهر بأن المؤتمر لم يكن صنيعة لبريطانيا . ومنذ ذلك الوقت تغير موقف مصر الرسمي نحو المؤتمر ، وبدأت تتطلع الى الأخوة السودانية التي ما زالت تتوق الى إخراج الانجليز ولو أنها لم تظهر هـــذا الشعور جهراً . وطلب المؤتمر العون المالي من مصر حتى يتمكن من تحقيق أهدافه الاجتماعيـة والتعليمية وغيرها وأخذت مصر تبذل في سبيل التعليم وأقامت عـــدداً من المدارس في السودان .

اعتبرت حكومة السودان عمل المؤتمر خروجاً عن القواعد الدبلوماسية لأن أية مطالب من مصر الرسميـة او مساعدات مصر الرسمية كان يجب ان تأتي عن طريق حكومة السودان ، وأنه ليس للمؤتمر الحق في الاتصـال بالمسؤولين المصريين مباشرة . ولذلك فقد اعتبرت ان عمل المؤتمر لم يكن موفقاً في هذه

الناحية ، وازدادت الجفوة بينها وبين أعضائه ولجنته . اما المؤتمر فانه شعر بأنه سجل نصراً كبيراً إذ أبدل احد أعدائه الى صديق وفي، اما الآخر وهو بريطانيا فقد بقيت له معها جولات وجولات .

اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ وانهارت فرنسا في السنة التالية ودخلت ايطاليا الحرب في جانب المانيا . وكانت أطماع ايطاليا تنصب على التهام مصر والسودان . وشعرت انجلترا بحاجتها الى هدوء الحالة في هذين القطرين . كما كانت قد وجدت في قوة دفاع السودان جيشاً طالما هدد الطليان في إرتريا ، والحبشة [١] . وكثر عدد الجنود السودانيين الذين يحاربون في صفوف بريطانيا. وبينما الحرب مشتعلة إذ اجتمع تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وروزفلت رئيس الولايات المتحدة في اغسطس ١٩٤١ لعقد معاهدة الأطلنطي ، وكان من أهم ما جاء فيها حق تقرير المصير للشعوب بعد نهاية الحرب العالمية . وكان لهذه المعاهدة صداها البعيد في كثير من الشعوب وخاصة في السودان الذي اصبح جنوده حلفاء لبريطانيا . وكانوا يحاربون في الحبشة وإرتريا بل ان بعضهم كان يحارب في ليبيا ايضاً .

رأى المؤتمر أن اشتراك السودان في الحرب بجانب الحلفاء لا بد له من ثمن ولا أقل من ان يمنح استقلاله لتضحياته في جانب الديمقراطيات ، ومساندته لها . لذلك بعث المؤتمر بمذكرة في ٣ أبريل ١٩٤٢ الى حاكم عام السودان مطالباً بإصدار تصريح مشترك في أقرب وقت من الحكومتين المصرية والبريطانية بإعطاء السودان بحدوده الجغرافية الكاملة حق تقرير المصير ، وإلغاء قوانين المناطق المقفولة، وتحديد الجنسية السودانية ، وعدم تجديد عقد الشركة الزراعية في الجزيرة ، ووقف الإعانات للإرساليات مع توحيد برامج التعلم بين الشمال

---

(١) ما كايكل : السودان .

والجنوب ، وبعض المطالب الاخرى التي رأت لجنة المؤتمر أن لا بد من ذكرها

هكذا أسفر المؤتمر عن حقيقة نواياه السياسية ، ومرت أخبار المذكرة الى كل لجان المؤتمر الفرعية في البلاد . وبقي السودانيون ينتظرون رد الحكومة على مطالبهم الوطنية وأمانيهم القومية .

ولم يطل انتظارهم للرد الذي كتبه السكرتير الاداري السير دوجلاس نيوبولد المؤتمر ، وفيه يقول : —

« كلفني صاحب المعالي الحاكم العام ان أبلغكم أنه اطلع على مذكرتكم ويلاحظ معاليه أن الكثير من مطالبكم المدونة بها يمس مباشرة مركز السودان السياسي ودستوره ... وحكومة السودان ليست مستعدة لأن تبحث أمر تنقيح ذلك الدستور مع أية مجموعة من الاشخاص ، الا انه اذا قررت الدولتان المتعاقدتان في أي وقت اعادة النظر في الاتفاقية أو المعاهدة، فحكومة السودان تأمل ان تستشير الرأي السوداني المسؤول... وان مؤتمر الخريجين بدعواه تمثيل جميع السودانين ، وبمحاولة تحويل صفته الى هيئة سياسية وطنية ليس فقط يستحيل عليه ان يحتفظ بالتعاون الحكومي ، بل لن يكون له امل في استمرار اعتراف الحكومة به . وان المؤتمر بتقديمه المذكرة التي هي موضوع هذا الخطاب... قد فقد ثقة الحكومة، ولا يمكن ان تتعود الا اذا اعاد تنظيم شؤونه بحيث تكون الحكومة واثقة من أنه يحترم رغباتها ، ويلاحظ انذاراتها .

« ولهذه الاسباب التي دونتها آنفا يجد صاحب المعالي الحاكم العام أنه ليس في استطاعته ان يقبل هذه المذكرة ، وهي لذلك مردودة اليكم ... وانه يتحتم على الحكومة ان تصر على ان يحصر المؤتمر نفسه في الشؤون الداخلية ، وأن يقلع عن أي دعوى صريحة او ضمنية في تمثيل البلاد تمثيلاً عاماً ، وإنها ستصر على ذلك » .

هكذا كان رد السكرتير الاداري السير دوجلاس نيوبولد على المؤتمر بــل وعلى معاهدة الاطلنطي بين تشرشل وروزفلت ، وأصبح السودانيون ينشدون شعر شوقي في الوعود الانجليزية .

اليوم اخلفت الوعود حكومة   كنا نظن عهودها الانجيــلا

وعرف السودانيون أن بعض اقوال الانجليز إنما تذاع للاستهلاك الخارجي ، أما الامبراطورية فباقية. واتسعت شقة الخلاف بين المثقفين وجلهم من الموظفين وبين حكومة السودان .

اثرّ رد الحكومة على كيان المؤتمر تأثيراً قوياً اذ شطره الى شطرين،فأصبح جزء يرى أن السكرتير الاداري قد وعد رئيس المؤتمر ابراهيم احمد شفوياً بان الحكومة ستسرع في اقامة نظم دستورية يشترك السودانيون عن طريقها في حكم البلاد . بينما أصر الفريق الآخر برئاسة اسماعيــل الازهري على ان يكون رد السكرتير كتابة . ولما لم تستجب الحكومة لمــا أرادوا أعلن هذا الفريق أن مهادنة الحكومة تضر بمصلحة البلاد ولذلك فانهم لن يعتمدوا على مــا يقول السكرتير الاداري . واشتد الصراع داخل المؤتمر بين الفريقين . وفي سنة ١٩٤٣ سيطر الفريق الذي كان اكثر تطرفاً على المؤتمر لأنه تجاوب مع الحماس السوداني المعهود في كل كفاحه ، بينما اخفق الفريق المعتدل في نيل الأغلبية في لجنة المؤتمر الستينية . وأطلق الفريق المتطرف على نفسه « الأشقاء » واعلن مطالبته بقيام « حكومة ديمقراطية سودانية في اتحاد مع مصر تحت التــاج المصري » . ثم ارسلوا نسخة من دستور المؤتمر – اذ اصبحوا يتكلمون باسمه الآن – الى الحاكم العام وقد بينوا في دستورهم شعارهم بالوحدة مع مصر .

أما الفريق الآخر فقد نادى باستقلال السودان وأن السودان للسودانيين . ثم ما لبث هذا الفريق ان أنشأ حزباً سياسياً في سنة ١٩٤٥ هو حزب الأمـــة

ينادي بذلك الشعار ، وأقام آخرون احزاباً أخرى صغيرة بنفس الشعار مع اختلافات في الطرق والاسماء. وكان حزب الاشقاء هو أقوى الاحزاب الاتحادية وحوله احزاب اتحادية اخرى اختلفت في تفسير كلمة الوحدة مع مصر وقوة ارتباطها .

ووجد حزب الامة سنداً قوياً من السيد عبد الرحمن المهدي – ابن محمد احمد المهدي صاحب الثورة المهدية وتبنى أنصاره شعار « السودان للسودانيين » ، ورأت الحكومة ان مثل هذا الحزب الذي يناوىء مصر بشعاراته يجب أن تسمح له ببذل نشاطه في البلاد طالما انه يعمل على ايقاف النفوذ المصري [1] . وكان تعضيد السيد عبد الرحمن المهدي لحزب الامة سافراً وقوياً وانضمت كل جماهير الانصار في كل ارجاء البلاد الى مساندته .

أما حزب الاشقاء فقد لجأ الى طلب المساندة من السيد علي الميرغني راعي الطريقة الختمية ، ولكن السيد الميرغني كان يصرح دائماً بأنه رجل دين وانه لا يحب ان يزج بنفسه او بتعاليم الطريقة الختمية في المسائل السياسية . ولكن كان خصومه يلمسون مساندته الخفية الى حزب الاشقاء وذلك باشتراك كثير من رجال الطائفة في الحزب .

وبهذه التفرقة السياسية اتسعت شقة الخلاف بين الميرغني والمهدي ، تلك الفرقة التي بدأت عندما أعلن محمد احمد المهدي مهديته في سنة ١٨٨١ وكتب الى السيد محمد عثمان الميرغني والد السيد علي يطلب منه مبايعته ونصرته . ولكن الميرغني الكبير رفض مبايعة المهدي وخرج من كسلا حيث لجأ الى مصر وتوفي هناك . ولما تقدم الجيش الانجليزي المصري لفتح السودان عاد السيد علي

---

(١) شبيكة : السودان المستقل .

الى كسلا ثم الى ام درمان حيث ظل يمارس إرشاده لأتباعه في الطريقة . وكان قدوم السيد علي الميرغني الى السودان ذا أثر كبير على السكان الذين كثيراً ما كانوا يلجأون اليه ليكون واسطة بينهم وبين الحكومة في حل مشكلاتهم ، كما ان الحكومة وجدت في شخصيته وفي طريقته اقوى ترياق مضاد للانصار اتباع المهدي [١] . واستمر احترام الحكومة لكلمة السيد علي الميرغني الى آخر أيامها بالرغم من مناصرته لحزب الاشقاء الداعي الى وحدة مصر والسودان .

أما السيد عبدالرحمن المهدي فقد كانت الحكومة منذ صغره تحيطه بالجواسيس وتتنسم أخباره ، وكانت تهدف الى إضعاف مكانته في النفوس باهماله ، وضيّقت عليه وعلى مريديه وأنصاره الخناق حتى سنة ١٩١٢ عندما أشاد ابن المهدي باعمال الحكومة الأنشائيـــة وذلك بتوسعها في المواصلات وربط الابيّض بالخرطوم بواسطة السكة الحديدية. واشترك في الوفد السوداني الذي سافر الى لندن برئاسة السيد علي الميرغني لتهنئة ملك انجلترا بالنصر بعد الحرب العالمية الاولى واستطاع السيد عبد الرحمن ان يدخل الطمأنينة في قلوب الانجليز من ناحيته حتى سمحت له بان يزرع القطن ثم أصبح من أكبر منتجيه ومن أثرياء البلاد . واستغل ثروته في تقوية طائفته والصرف عليها من ثروته دون حساب . وكان بطبيعة سياسة وتعاليم والده يميل الى الدعوة الى الاستقلال ، ويؤمن بسياسة الحفاظ على العلاقات الطيبة بمصر .

ولما لم يسفر السيد علي الميرغني عن مشاركته للحركة السياسية علناً فقد ظهر زعيم آخر على مسرح حزب الاشقاء وهو اسماعيـــل الازهري . والازهري من بيت ديني معروف تلقى دراسته في كلية غردون والتحق بالتدريس ثم بعثتـه الحكومة الى بيروت في الجامعة الامريكية لتلقي دراسته الجامعية . ثم عاد بعد

---

(١) شبيكة : مختصر تاريخ السودان .

ذلك الى السودان وهو يحمل في نفسه آمالاً عراضاً لبلاده . وما ان أنشيء مؤتمر الخريجين حتى كان الازهري من ألمع أعضائه . وانتهز مركزه كمدرس في كلية غردون فأخذ يلقي التعاليم الوطنية في نفوس تلاميذه ، يخاطب فيهم المثل العليا للقومية ، ويبعث فيهم روح الوطنية . وكان يعلن بأنه سيترك الخدمة بعد خمس سنوات للعمل السياسي [١] والجهاد . وكانت لوطنيته وقوة عزيمته الاثر الكبير في فوزه بشعبية ساحقة بين ابناء المدن والمعلمين . وهكذا ظهر الازهري كزعيم حينما اكتفى السيد علي الميرغني بجاهه الديني الطائفي .

بينما كانت هذه الاعاصير السياسية والتفرقة الداخلية تجتاح السودانيين في الفترة ما بين سنة ١٩٤٢ و ١٩٤٥ كانت الحكومة تعمل جاهدة على اعطاء السودانيين فرصة للمشاركة في وضع سياسة وطنهم ، فأخرج السير دوجلاس نيوبولد – السكرتير الاداري – المجلس الاستشاري للسودان الشمالي في ١٥ مايو ١٩٤٤ . ولكن هذا المجلس لم يقنع السودانيين لأنه كان تحت سيطرة الحكومة ، ثم كان استشارياً لا حول له ولا قوة ، وعمد الى تشطير السودان الى شمالي وجنوبي بطريقة رسمية ، ثم لم يكن لاعضائه اي نفوذ على الوعي السياسي ، كما انه لم يرض الجنوبيين الذين طالبوا بالانضمام اليه . ولهذه الاسباب لجأت الحكومة الى اعطاء بديل عنه بسلطات اوسع واسم أوقع ، وكان ذلك البديل هو الجمعية التشريعية .

وفي سنة ١٩٤٥ انتهت الحرب العالمية الثانية ، وأنشئت الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وكان لهذه المؤسسات فعل السحر في نفوس البلاد الواقعة تحت نير الاستعمار . ودخلت مصر مع بريطانيا في مفاوضات منذ مطلع ١٩٤٦ ، واتفقت الاحزاب السودانية الاتحادية والاستقلالية على السفر الى مصر لمراقبة المفاوضات .

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٨ واستقال الازهري من الخدمة بعد ذلك ليتفرغ للكفاح السياسي ، والكاتب من تلاميذه في الكلية .

ولما كانت أهدافهم متباينة من حيث الوحدة مع مصر او الاستقلال التام فقد توصلوا الى اتفاق وسط يترك للسودانيين تعيين نوع من الارتباط الذي يريدونه مع مصر .

فوجىء كثير من المصريين الحزبيين بوصول الوفد السوداني لمراقبة المفاوضات المصرية البريطانية . وكان المصريون وخاصة الاخوان المسلمين تواقين الى الوصول مع الانجليز الى حل قضيتهم بما تؤمن لهم جلاء القوات البريطانية من مصر سريعاً. وكان بعض المصريين يرى ان السودان كان دائماً الصخرة التي ارتطمت بها المفاوضات في السابق ولا يريدون تأخير الجلاء عن وطنهم اكثر من ذلك بسبب السودان الذي اصبح عقدة يصعب حلها .

رأى حزب الاشقاء والاتحاديون أن الاحزاب غير راضية عن أنواع ارتباطاتهم بها في المستقبل ، وأوضح المصريون للوفد السوداني المختلط بأنه إما ان يقبل بالاتحاد مع مصر دون قيد أو شرط والا فان مصر لا تستطيع تأخير اتمام استقلالها والجلاء عن اراضيها اكثر من ذلك . وكانت هذه الصراحة المصرية مفاجأة للاحزاب السودانية ، وشعر الاتحاديون عامة وحزب الاشقاء خاصة بأن قضيتهم إن نفضت مصر اليدين عنها أضحت خاسرة ،بينما رأى الاستقلاليون أن ما من احد يستطيع استخلاص حقوق السودان الا ابناءهم بجهادهم .

تشاور الازهري ورفاقه ، وخوفاً من ان ينسحب المصريون من قضيتهم وأعلنوا موافقتهم على وحدة وادي النيل بين مصر والسودان بالشروط التي أرادها المصريون. ورفض وفد حزب الامة قبول الوحدة التي رضي بها الازهري واعتبرها خروجاً عن اتفاقهم لنحو حل وسط ، ثم عاد وفد الامة الى بلاده بينما مكث الأزهري في القاهرة يرقب الأحداث وتطور المفاوضات التي باءت بالفشل لأن الانجليز لم يقبلوا بفكرة وحدة وادي النيل دون استشارة السودانيين .

وفي اكتوبر ١٩٤٦ تفاوض صدقي باشا مع المستر بيفن بشأن تعديل المعاهدة

المصرية البريطانية ، وقبل ان يسافر صدقي الى لنـــدن طلب السيد عبد الرحمن المهدي مقابلته في مصر بغية الوصول الى حل وسط ، غير ان صدقي تجاهل رغبة السيد عبد الرحمن المهدي وذهب الى لندن ، ثم عاد الى مصر يحمل قصة الدفاع المشترك وبنداً يحفظ لمصر حقهـــا المعنوي في السيادة على السودان . وقوبلت اتفاقية صدقي ـ بيفن بمعارضة عنيفة في مصر بسبب الدفاع المشترك الذي اعتبره المصريون ـ وهم محقون ـ نوعا من الاحتلال، كما قوبل النص بالسيادة على السودان بمعارضة مماثلة من حزب الامة في الخرطوم . وسرعان ما ظهر أن كلاً من بيفن وصدقي فسر بنود الاتفاقيـــة حسب أهوائـــه ، وتهشم البروتوكول في مصر والسودان معاً .

حدثت بعد ذلك في مصر تعديلات وزارية وترأس الوزارة النقراشي باشا الذي لجأ الى مجلس الأمن وقدم شكوى بلاده من بريطانيا لمعارضتهـــا في جلاء قواتها ، ولاعتراضها على تحقيق وحدة وادي النيل بين مصر والسودان وأبرز النقراشي في خطابه الروابط التي تجمع بين القطرين وتعزز مطالبته بالوحدة. اما البريطانيون فقد كانت وجهـــة نظرهم ان السودان يسير في الطريق الدستوري المرسوم ، وان بريطانيا لا تنوي اعاقة ذلك التقدم ، كما انها لا تستطيع ان تقرر شيئاً عن مستقبل السودان دون استشارة السودانيين انفسهم ليقرروا وحدهم مصيرهم . ولكن النقراشي لم يوافق على موضوع تقرير المصير الا اذا كان تحت التاج المصري ، وأوضح ان اي امر من هذا الشأن لا يمكن ان يتم بطريقة ترضي مصر طالما كان السودان تحت حكم الانجليز . وبينما كان الخصمان يتجادلان في مجلس الامن كان يظهر في أروقته وفدان سودانيان احدهما يمثل الاتحاديين والآخر يمثل الاستقلاليين . ولم تستطع مصر ان تكسب الجولة لأن كـــلا من روسيا وبولندا كانتا تريان أن سياسة تقرير المصير يجب ان تؤخذ بعين الاعتبـــار . ولم يصدر مجلس الأمن قراراً في المسألة على أمل ان يدخـــل الطرفان في مفاوضات مباشرة لحل المشكلة .

رجعت المشكلة السودانية الى الخرطوم بعد ان طافت لندن والقاهرة وليك سكس . وفي الخرطوم كان الانجليز يريدون ان يطوروا المجلس الاستشاري ويستعيضوا عنه بالجمعية التشريعيه[1] التي اجريت انتخاباتها في نوفمبر ١٩٤٨ لتضم اعضاء من كل السودان شماله وجنوبه ، وفي ١٥ ديسمبر تم افتتاحها، وشكلت وزارة سودانية كما اشترك في عضويتها عدد من حزب الأمة وزعماء العشائر .أما الاشقاء فقد قاطعوها مقاطعة كانت قوية في المدن، وأقاموا المظاهرات الضخمة في العاصمة وفي أمدرمان وفي المدن الكبرى ، وشيعوا نعشها الى القبور وهي لما تولد بعد.وفي تلك المظاهرات ضرب البوليس زعماء الاحزاب الاتحادية ثم قدمهم للمحاكمات وأدخلوا السجون وكانت مصر معارضة للجمعية التشريعية ولم توافق على قيامها بينما أصدرت بريطانيا موافقتها منفردة.ولما كانت مصر تستطيع ان تمترض دون ان تمنع فان حكومة السودان مضت في سياستها وأقامت الجمعية التشريعية رغم كل المقاطعة والمعارضة من جانب حزب الاشقاء.

استقر المقام بأحزاب الجبهة الاستقلالية في ظل الجمعية التشريعية واخذ بعضهم مناصب وزراء في البلاد وتمتعوا بشيء من الحكم الذاتي . ولم يطل بهم المقام في الجمعية التشريعية حتى تقدم بعض اعضاء حزب الامة باقتراح يطالبون فيه بمنح البلاد حكماً ذاتياً كاملاً . وطرح الموضوع على أعضاء الجمعية للبت فيه وتمت الموافقة عليه بأغلبية ٣٩ الى ٣٨ وذلك في ٢٥ ديسمبر ١٩٥٠ . وكانت أغلبية هؤلاء الاعضاء المعارضين قد كونوا حزباً استقلالياً في ديسمبر ١٩٥١ هو الحزب الجمهوري الاشتراكي الذي ينادي بالاستقلال مع تقوية الروابط مع بريطانيا. وكان اعضاؤه ينتمون الى زعماء القبائل بتأييد من بعض رجال طائفة الختمية

---

(١) تتكون الجمعية التشريعية من ٩٥ عضواً منهم ٨٩ سودانياً،ومن هؤلاء ١٠ اعضاء عن طريق الانتخابات المباشرة و ٥٥ بانتخابات غير مباشرة و ١٠ معينين و ١٤ بحكم وظائفهم . أما الستة الباقون فهم الاعضاء البريطانيون في المجلس التنفيذي يقابلهم ستة من الوزراء السودانيين .

ومباركة زعيمها لحزبهم ، وأصبحت طائفـــة الختمية تسير في اتجاهين مضادين احدهما مع الاشقاء ينادي بوحدة وادي النيل ويقاطع الجمعية التشريعية ،والآخر يدعو الى الاستقلال ويشترك في الجمعية . وما لبثت طائفة الختمية ان انقسمت الى قسم ثالث هو الجبهة الوطنية التي تدعو لوحدة ضعيفة مع مصر تختلف عن وحدة حزب الاشقاء وزعامته ، وكان يذاع عن لسان السيد محمد علي الميرغني أن الختمية طائفة دينية لا تتدخل في السياسة ، وان لرجال طائفته ان يتخذوا ما يحلو لهم من احزاب .

وكانت طيلة تلك الفترة تجري الأحداث في مصر تباعاً دون استقرار . وأعلن النحاس باشا إلغاء المعاهدات المصرية البريطانية ثم احترقت القاهرة ، ثم قامت الثورة المصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وران على السودان هدوء نسبي في تلك الفترة إذ كان زعيم حزب الاشقاء اسماعيل الازهري يراقب الاحـــداث المصرية حتى يذكر الأذهان وخاصة الحكومات المتعاقبة بمشكلة السودان ووحدة وادي النيل ، بينما كانت الاحزاب الاستقلالية تحاول الوصول الى الحكم الذاتي الكامل وهي في الخرطوم وتشعر بأن مصر الملكية لا تستطيع حل المسائل المعلقة بين الاطراف الثلاثة : مصر وبريطانيا والسودان . ولم يكن ذلك من المستطاع الا بعد دخول مصر في فترة حاسمة من تاريخها الحديث .

١٧

الطريق إلى الاستقلال

عندما هبت ثورة ٢٣ يوليو في مصر كان السودان منقسماً الى عدة احزاب هي : الأشقاء وكانوا قد انقسموا على انفسهم في سنة ١٩٥١ بحيث تولى الازهري زعامة جناح ومحمد نور الدين زعامة جناح آخر ، وكان هناك حزب الجبهة الوطنية ، وحزب الاتحاديين . وحزب الاحرار الاتحاديين ، وحزب وحدة وادي النيل ، وكل هذه الاحزاب عمدت الى مطالبة مصر بتعضيدها ومساندتها ، كما انها كانت تدعو الى نوع او آخر من الاتحاد مع مصر . وكانت هناك ايضاً الاحزاب الاستقلالية وفيها حزب الامة ، والحزب الجمهوري الاشتراكي ، والحزب الوطني ، وكانت هذه تنادي باستقلال السودان عن كل من مصر وبريطانيا .

ولئن كانت كثرة الاحزاب تدل على حرية في الفكر ووعي سياسي الا أنها كانت ذات تأثير قوي على تفكيك الشعب وتفرقة الكلمة .

في ذلك الوقت بالذات كان السيد عبد الرحمن المهدي في لندن يجري محادثات مع إيدن وزير الخارجية البريطانية حول التقدم الدستوري للسودان . ولم يتفق المتباحثان نهائياً حول ذلك الموضوع لأن ايدن كان يصر على ان تكون الانتخابات القادمة للجمعية التشريعية في كثير من الدوائر عن طريق غير مباشر بينما كان السيد عبد الرحمن المهدي يرى أن الانتخابات المباشرة هي احسن الطرق . وكان

ظاهراً أن من رأي حزب الامة ان الانتخابات غير المباشرة يمكن ان تقع تحت تأثير الاداريين الانجليز وتصبح اقرب الى التعيين منها الى الانتخـــاب بسبب امكانية التدخل .

ورجع السيد عبد الرحمن المهدي وهو غير راض عن محادثاته مع ايدن ، ولما كان سري باشا رئيس وزراء مصر قبيل الثورة قد دعاه لمصر لعقد محادثات ، فان الدعوة استمرت قائمة حتى بعد قيام الثورة .

طرق العهد الثوري في مصر موضوع السودان بطريقة جدية عملية حـــين استمع لمعارضي فكرة الاتحاد مع مصر كما استمع لآراء المطالبين بوحدة وادي النيل . ورأى أن الاحزاب الاتحادية كثرت وتشعبت حتى ضاعت معالم الوحدة وأهدافها . ولم تتبين مصر أين تقع الاكثرية ، ولذلك فانها جمعت زعماء هــذه الاحزاب الاتحادية في القاهرة للمفاوضة وانتهت بان صهرت جميع احزابهم فيما سمي بالحزب الوطني الاتحادي برئاسة اسماعيل الازهري وانضوى تحت زعامته بقية الزعماء الوحدويين .

استأنفت مصر بعد ذلك مباحثاتها مع كل من الحزب الجمهوري الاشتراكي ، والحزب الوطني ، وحزب الامة وهي الاحزاب الاستقلالية ووعت مطالبهم . ثم ما لبثت ان جمعت كل الاحزاب الاستقلالية والوطني الاتحادي في محادثات انتهت باتفاقهم جميعاً على المبادىء التي تتخذ حول تمتـع السودان بالحـكم الذاتي وتقرير المصير .

نجحت الثورة في مصر حين اخفق السياسيون القدامى في تخطي عقبـــة السودان لأن مصر الثورة آمنت بحق السودانيين في تقرير مصيرهم ، وبذلـــك قطعت على البريطانيين كل أمل في التسويف ، بل إن مصر ذهبت خطوات ابعد حين طلبت ابراز حق السودانيين في السيادة على السودان وتقرير مصيرهم بعيداً

عن اي من دولتي الحكم الثنائي . وكما تحقق التقاء الاحزاب السودانية المتشعبة في الخطط التي تتبع في تقرير مصير البلاد تم الاتفاق ايضاً بين مصر وانجلترا على اطوار تلك الخطوات في ١٢ فبراير ١٩٥٣ وذلك بتوقيع المعاهدة المصرية الانجليزية .

وفي غضون شهر نوفمبر وديسمبر ١٩٥٣ اجريت الانتخابات البرلمانية في السودان ، ونال الحزب الوطني الاتحادي في مجلس النواب ٥١ مقعداً وحزب الأمة ٢٢ مقعداً ، والحزب الجمهوري الاشتراكي ٣ مقاعد ، والجبهة المعادية للاستعمار مقعداً واحداً ونال المستقلون احد عشر مقعداً والجنوبيون تسعة مقاعد . وهكذا فاز الحزب الوطني الاتحادي الذي ينادي بوحدة وادي النيل باغلبية مطلقة في البرلمان السوداني الاول .

اجتمع البرلمان السوداني الاول في اول يناير ١٩٥٤ لاختيار رئيس لمجلس النواب ، وفي ٦ يناير تم اختيار السيد اسماعيل الازهري رئيساً للوزارة وقد أكمل تشكيلها في ٩ يناير ، وكانت كلها من اعضاء الحزب الوطني الاتحادي بينهم ثلاثة من الجنوبيين .

كان قيام البرلمان السوداني هو الخطوة الاولى في الاتفاقية المصرية البريطانية ، وبقيت الفصول النهائية التي تتكون من سودنة كل الوظائف التي يشغلها البريطانيون والمصريون ، وجلاء الجيوش البريطانية والمصرية التي عادت الى السودان بعد اتفاقية ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، ثم يأتي بعد ذلك الاستفتاء العام نحو تقرير المصير ليحدد السودانيون رغبتهم إما في وحدة وادي النيل او الاستقلال التام .

وسرعان ما تمت سودنة كل الوظائف في الادارة والبوليس وقوة دفاع السودان ، وكذلك الوظائف الحساسة في كل المصالح الحكومية والوزارات ،

وتسلم السودانيون تلك الوظائف حتى أصبحت ادارة كل المرافق الحيوية في ايديهم . وقد تمت عملية السودنة في جرأة وشجاعة وسرعة اذ كان الحزب الوطني الاتحادي يشعر بان وجود كبار الموظفين البريطانيين في المراكز الهامة للدولة سيهدد حرية البلاد، وأنه لا سلامة للحكم الوطني الا اذا اصبح كبار رجال الخدمة المدنية فيه من السودانيين . وكان يُخشى ان تضعف الأداة الحكومية بسبب هذا التغيير السريع بوضع تلك الأداة في يد السودانيين على ما لهم من خبرة قليلة . بيد ان مصلحة الوطن العليا وهي التخلص من الادارة البريطانية كانت أهم ما يشغل بال الازهري آنذاك ، وقد نجح بالفعل في سودنة الوظائف وفي جعل الطريق مفتوحة امام الموظفين السودانيين للتدريب على إدارة بلادهم دون احداث هزة او تعطيل ، وجعل من الممكن للبلاد ان تقرر مصيرها اذ كانت السودنة من الشروط التي وضعت في الاتفاقية قبل السير قدُماً نحو الاستفتاء العام .

منذ ان تسلم اسماعيل الأزهري رئاسة الوزارة بدأت شخصية السودان تتبلور وتأخذ مكانها كدولة في نفوس ابناء الشعب . وبالرغم من أن الحزب الوطني الاتحادي كان ينادي بوحدة وادي النيل الا أنه عندما تولى الحكم اصبح يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه نحو إيجاد وطن مستقل . وكانت الصعوبات التي تواجه وحدة وادي النيل متعددة أهمها موقف حزب الأمة الذي كان ينادي بالاستقلال . ولقد ظهرت خطورة هذا الحزب من ناحية المعارضة في موضعين : الاول ان عدد اصوات الاستقلاليين في البلاد عامة كانت تفوق اصوات الاتحاديين في الانتخابات بالرغم من أن الاتحاديين اكتسحوا الدوائر . اما الموضع الثاني فهو المعارضة من جماهير الاستقلاليين الانصار من حزب الأمة الذين تجمعوا في الخرطوم لمقابلة اللواء محمد نجيب وزملائه وكبار الزوار والضيوف من مختلف الأقطار لحضور افتتاح البرلمان في اول مارس ١٩٥٤ . وكان حزب الامة يشعر بأن العاصمة المثلثة مكتظة بأنصار الاتحاديين كسائر مدن السودان بينما كان

أنصار حزب الامة يقطنون في المناطق الريفية . وخشي حزب الامة ان يظن نجيب وغيره من الزوار ان السودانيين يريدون الوحدة مع مصر كما سيظهر لهم من الحشود الاتحادية التي في العاصمة . ولهذا فقد احتشدوا ايضاً في العاصمة . وحدث من ذلك احتكاك واستعر الخلاف بين رجال الأمن وأنصار حزب الأمة وسقط صرعى من الجانبين امام قصر الحاكم العام حيث كان الضيوف العالميون . ونتج من جراء ذلك أن تأجل افتتاح البرلمان ، وبقيت البلاد في حالة من الحزن الأسى بسبب ذلك الحادث الذي لم يحسب له حساب .

استطاع اسماعيل الازهري ان يبرهن على مرونته السياسية في معالجة ذلك الموقف ، وانتهى الامر بسلام أرضى كل الاطراف، وبقي عليه التخلص من الحكم البريطاني بجميع ذيوله ورواسبه، وألا يبقى اي أثر لسيطرتهم السابقة على البلاد.

في اثناء رئاسة الازهري للوزارة قام بعملين خارج نطاق الحدود السودانية، الاول انه قبل دعوة رسمية لزيارة بريطانيا ، والامر الثاني ذهابه لحضور مؤتمر باندونج . اما نتائج زيارته لبريطانيا واسبابها فلم تكن واضحة ولكن كان هناك شعور بأن الانجليز أظهروا رغبتهم الأكيدة في عدم عرقلة اعمال وزارته ، وانهم لا يمانعون في استقلال السودان . اما في مؤتمر باندونج فقد ذهب الازهري ممثلاً للسودان في وفد من أعضاء حكومته ، وهناك التقى برؤساء الدول من الاقطار الافريقية والأسيوية. ولما أعطى الكلمة أعلن رغبة السودان في الاستقلال مع تكوين أقوى الروابط مع الشقيقة مصر .

كان من جراء تصريح الازهري نحو الاستقلال أثر لم تستطع مصر ان تهضمه، فهي لم تكن تنتظر من رئيس الحزب الوطني الاتحادي ان يتنكر لوحدة وادي النيل التي كان ينادي بها كثيرون من رجال الحزب. بيد ان الازهري كان آنذاك قد لمس حقيقة شعور السودانيين الذين آزروه وأعطوه اصواتهم الانتخابية، فهم لا يريدون وحدة مع مصر تضيع معالم سودانيتهم ، وهم مع حبهم القوي لمصر كانوا يريدون استقلال بلادهم مع روابط أخوية تربطهم بمصر . وشعرت مصر

بأن القومية السودانية قد نضجت بسرعة فائقة فأدركت أن السودان المستقل انما هو درع لأرض الكنانة . فلما اتصلت بها حكومة الازهري معلنة رغبتها في ان ينال السودان استقلاله الكامل عن طريق التصويت في داخل البرلمان أبدت الحكومة المصرية موافقتها على ذلك دون اللجوء الى استفتاء عام كما نصت على ذلك اتفاقية سنة ١٩٥٣ . ولم تعترض الحكومة البريطانية على هذا الاجراء . وبعد ان نالت الحكومة السودانية موافقة دولتي الحكم الثنائي على هذا التعديل في الاتفاقيــــة المصرية الانجليزية لسنة ١٩٥٣ اتفقت كل الاحزاب السياسية السودانية على أن يعلن أعضاء البرلمان رغبتهم في الاستقلال بمشروع قرار برلماني .

في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٥ انعقد البرلمان وصوّت اعضاؤه في جانب استقلال السودان ، وفي ٢٢ ديسمبر أقر مجلس الشيوخ هذا القرار .

واتخذت الخطوات النهائية في قرار الاستقلال في صبيحــة اليوم الاول من يناير عام ١٩٥٦ ، وفي احتفال مهيب أنزل العلمان البريطاني والمصري ، كما رفع العلم السوداني كل من اسماعيل الازهري رئيس الحكومــة ومحمد احمد محجوب زعيم المعارضة ، ودخل السودان في عهد جديد هو عهد الاستقلال .

من مراجع الكتاب

نعوم شقير : تاريخ السودان الحديث وجغرافيته

عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان

عبد الرحمن الرافعي : عهد محمد علي

عبد الرحمن الرافعي : عهد اسماعيل

ابراهيم باشا فوزي : السودان بين يدي غردون و كتشنر

عبد الله حسين : السودان

محمد أحمد الجابري : في شان الله

مكي شبيكة : السودان في قرن

المهدي : منشورات المهدي

دقنة : رسائل عثمان دقنة

عمر طوسون : تاريخ المديريات الاستوائية

محزون : ضحايا مصر في السودان

عبد الرحمن علي طه : السودان للسودانيين

محمد صالح ضرار : تاريخ السودان ـ البحر الأحمر وإقليم البجة

كرومر : بريطانيا في السودان

محمد عبد الرحيم : النداء في دفع الافتراء

الشاطر بوصيلي : معالم تاريخ وادي النيل

مندور المهدي : تاريخ السودان من أقدم العصور الى قيام الاحزاب السياسية

من المراجع غير العربية

Abbas, Mekki	:	The Sudan Question.
Archer, Thomas	:	The war in Egypt and the Sudan.
Budge, E. A. W.	:	The Egyptian Sudan.
Calliaud	:	Voyage à Méroé (Paris 1823-7)
Churchill	:	W. S., The River War.
Casati (Major)	:	Ten years in Equatoria (1891)
Crabités, Pierre	:	The Winning of the Sudan.
Cromer (Lord)	:	Modern Egypt.
Dodwell, Henry	:	The Founder of Modern Egypt.
English, G. B.	:	A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar (London 1822)
Galloway W.	:	The Battle of Tofrek 1887.
Hill, Richard	:	Egypt in the Sudan 1820 - 1881.
Holt, P. M.	:	The Mahdist State.
» »	:	History of Modern Sudan.
Hoskins, G. A.	:	Travels in Ethiopia (1835).
Jackson, H. C.	:	Osman Digna.
Mac Michael, Sir Harold	:	The Anglo-Egyptian Sudan.
» »	:	The Sudan.
» »	:	History of the Arabs in Norther Kordofan.

Moorehead, Alan : The Blue Nile.
» » : The white Nile.
Pallme, Ignatius : Travels in Kordofan (London 1844)
Parkyns, Mansfield : Life in Ethiopia (1853).
Petherick, John : Egypt, the Sudan, and Central Africa. (W. Blachwood, 1861).
Shibeika, Mekki : The Independent Sudan.
» » : British Policy in the Sudan.
Slatin, Rudolf : Fire and Sword in the Sudan.
Stevens, G. W. : With Kitchener to Khartoum.
Theobold, A. B. : The Mahdiya.
Wheeler, H. F. B. : The Story of Lord Kitchener.
Williams, Dr. J. : Life in the Sudan (1884).
Wilson, (Sir) Charles : From Korti to Khartoum (1885)
Wingate, F. R. : Mahdism in the Sudan.
Wingate, Ronald : Wingate of the Sudan.
Wylde, A. B. : '83 To '87 in the Sudan.

الفهارس

فهرست

الاعلام والاماكن

★

ـ ت ـ

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ غ ـ

ــ ل ــ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرس الموضوعات

صفحة



